أعلام العرب

١

عبقري الإصلاح والتعليم

الأستاذ الإمام محمد عبده

للأستاذ

عباس محمود العقاد

وزارة الثقافة والإرشاد القومي

المؤسسة المصرية العامة

للتأليف والترجمة والطباعة والنشر

الناشر : مكتبة مصر
٣ شارع كامل صدقي "الفجالة"
تليفون : ٩٠٨٩٢٠ — ٩٠٥١٤٧

تقديم

الطبعة الثانية

بقلم

محمد عبد القادر حاتم

نائب رئيس الوزراء للثقافة والإرشاد القومى

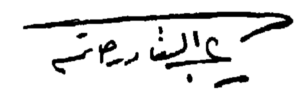
يسرنى أن أقدم الى قراء العربية الطبعة الثانية من هـذه السلسلة الناجحة التى تترجم لأعلام العرب الذين حملوا مشعل الحضارة ، وارتادوا آفاق العلم ، وشاركوا فى تراث الانسانية بأوفر نصيب .

وقد أثمرت سياسة الوزارة التى انتهجتها لتحقيق اشتراكية الثقافة ، بتيسير أثمان السلاسل التى تصدرها حتى تساعد كل بيت على أن ينشىء مكتبة له بثمن زهيـد ، وانى لأرجو لسلسلة أعلام العرب مزيدا من النجاح وأن تتوالى طبعاتها فيعم نفعها العالم العربى جميعا .

ويسعدنى أن تظهر هذه الطبعة فى وقت تقاربت فيه قلوب العرب وأوشكت أن تتحقق الوحـدة الثقافيـة الكبرى التى ننشدها بفضـل السياسة الحكيمة التى رسمها زعيمنـا وقائد نهضتنا الرئيس جمال عبد الناصر .

ولا يسعنى وأنا أقدم هذه الطبعة من سيرة محمد عبده الا أن أعبر عن عميق أسفى لوفاة كاتبها الكبير الأستاذ عباس محمود العقاد الذى كان رائدا من رواد الفكر والثقافة والأدب فى هذا الجيل ، وأن أذكر بالشكر والعرفان ما بذله من جهد كبير وعون صادق فى تحقيق كثير من المشروعات التى قامت بها الوزارة .

والله ولى التوفيق .



تقديم

بقلم
ثروت عكاشة
وزير الثقافة والإرشاد القومى

شغف الناس فى هذا القرن بقراءة السير ، فهى تحررهم حين يقرءونها من حدود الزمن ، وتعيدهم الى الماضى ، يستمدون منه العبرة ، ويتزودون منه بالعظات ، فتتصل بذلك حلقات الانسانية ولا تنقطع .

وكتابة السير ليست عملا سهلا ولا هينا ، ولكنها من أصعب صنوف التأليف ، فهى تتطلب من كاتبها أن يجمع بين قدرة المؤرخ وموهبة الأديب ، ليصبح قادرا على تحرى الحقيقة واستقصاء الشواهد ، والتزام الحيدة والانصاف ، والبعد عن الهوى والتحيز ، الى جوار ما يسبغه على الموضوع من الوحدة الفنية ، ويصور فيه شخصية صاحب السيرة تصويرا شائقا ، نابضا بالحياة .

ولا شك أن للعرب نصيبا كبيرا فى الحضارة الانسانية ؛ والتاريخ العربى زاخر بالأمجاد ، حافل بالأعلام فى كل فرع من

فروع المعرفة ، وفى كل ميدان من ميادين الحياة ، وما أحوجنا فى هذا الطور من أطوار نهضتنا العربية المتوثبة الى دراسة هؤلاء الأعــلام ، والترجمــة لكل منهم فى كتــاب يؤلفه كاتب من المتخصصين ، يعرض فيه سيرته ويحللها ، ويصف عصره ووقائع حياته ويبرز شخصــيته ، ويبين آثاره وفضــله على التقدم الانسانى .

ومن هنا نبتت فكرة هذه السلسلة الثالثة التى تصدرها وزارة الثقافة والارشــاد القومى بعد المكتبة الثقافية وروائع المسرح العالمى .

وقد توخت الوزارة فى هذه السلسلة الشهرية ما توختـه فى المكتبة الثقافية من تحقيق اشتراكية الثقافة ، وتشجيع كل بيت على تكوين مكتبة له بثمن زهيد ، وحددت ثمن النسخة منها بخمسة قروش وحسب .

وانى اذ أقدم هــذا الجهد المتواضع الى جمهور القراء فى الوطن العربى الكبير ، أرجو أن يوفقنا الله جميعا ، الى تحقيق أمانى الأمة العربيــة ، تحت قيــادة رائد القومية العربيــة ، الرئيس : جمال عبد الناصر .

ثروت عكاشة

بسم الله الرحمن الرحيم

تمهيد

نبدأ هذا الكتاب بفصل عن عصر اليقظة ، يليه فصل عن حياة القرية المصرية فى ذلك العصر ، يليه فصل عن الجامع الأزهر فيما اتصلت به حياة القرية من رسالته الفكرية والاجتماعية ، لأننا نفضى من كل تاريخ من هذه التواريخ الثلاثة الى تاريخ صاحب السيرة : أعظم من أنجبته القرية ونهض برسالة الأزهر فى عصره ، عبقرى الاصلاح والهداية محمد عبده ، قدس الله روحه وأعاننا على التعريف بفضله والتعريف بواجبنا من بعده ..

تمهيد نفتتح به هذه السيرة العطرة ، لنبسطها على ما تتحراه من سـير العظماء جميعا ، صـورة نفسية تعنينا منها حوادث الزمن ومواقع الأمكنة وأرقام السنين بمقدار ما تمثله لنـا من ملامح الصورة ومعالم الحياة التى تصورها ، وكل ما فى هذه الصفحات من أحاديث التاريخ والرواية عن محمد عبده فى نشأته وأسرته وصحبتـه وعوارض أوقاته من مولده الى وفاته ، فالذى تتحراه منه أن يكون عضوا من أعضاء قوة حية ، قبل أن تتحراه جزءا من فترات التـاريخ أو جزءا من الخريطـة

الجغرافية ، ويحلى لنا فى مقصدنا أن صاحب هذه السيرة ــ خاصة ــ ينبوع قوة روحانية تطوى عوارض الزمن وصغائر الدنيا فيما تفيض به من حياة انسانية ، يخلص لنا منها بعد تمحيص الجوهر عن نفايات الأوشاب والأخلاط ، أشرف ما تتحلى به نفس الانسان ، فى العالم الخالد الذى يذهب بالزبد ويبقى ما ينفع الناس .

وسنبلغ مقصدنا من هذه الصفحات اذا جلونا بها صورة يلتفت اليها طلاب القدوة الحسنة من أبناء هذا الجيل فيجدون أمام أعينهم ــ محمد عبده ــ اماما هو أولى أئمة العصر أن يأتم به المقتدى فيما اضطلع به من أمانة العقيدة ، وأمانة الفكر ، وأمانة الخير ، وأمانة الحق ، وأمانة الاخلاص للخلق والخالق ، فى كل ما يتولاه الانسان ــ الجدير باسم الانسان ــ من نية وعمل ، ومن سر وعلانية .

عباس محمود العقاد

العصر

قيل ان أحلك ساعات الظلام هى ساعة الهزيع الأخير من الليل قبل مطلع الفجر الصادق بلحظات .

ويصدق ذلك على أوقات الظلام فى عصور التاريخ ، فان أظلم أوقاته لهو الوقت الذى يسبق فجر اليقظة بقليل من السنوات ، ثم تأتى اليقظة فى حينها فاذا هى بصيص النور الأول ، قبل تباشير الصباح .

وعلى هذه الوتيرة كان القرن الثامن عشر فى الشرق العربى أحلك ساعات ليله الطويل : ليل الجهالة والجمود ، ولم تكن بين العصور نسبة متصاعدة فى ترتيب الزمن كتصاعد الأرقام فى حساب القرون ، فلم يكن القرن الثانى عشر — مثلا — أعرق فى النكسة و « الرجعية » من القرون التى تليه الى أواخر القرن السابع عشر الذى بدأت به نهضة العالم العربى فى العصر الحديث . بل كان القرن الثامن عشر أسوأ — ولا ريب — من أسوأ القرون التى تقدمته فى أيام الجهالة والجمود ، لأنه القرن الذى انبعثت فيه المسألة الشرقية من بقايا الحروب الصليبية ، فكان نذير الخطر الأكبر ، اذ كان الخطر قد تفاقم وتراكم ، وتجمع وتوسع ، حتى لا مزيد .

وكانت المسألة الشرقية قد تمخضت عن دور آخر وراء دور الحروب الصليبية وهو دور التفاهم بين دول الاستعمار على

تركة الرجل المريض . فبعد أن كان الغرض من المسألة الشرقية انتزاع الأقطار المسيحية من أملاك الدولة العثمانية أصبح هذا الغرض ـ كما قلنا فى كتاب ضرب الاسكندرية « هو تقسيم أقطارها جميعا من مسيحية واسلامية وتبادل الاغضاء عن كل نصيب متفق عليه يقع فى قبضة الطامعين فيه من المتنازعين على التركة وصاحبها بقيد الحياة .

الا أن المسـألة الشرقية صنعت من المعجـزات فى ايقاظ الشرق ما لم تصنعه الحروب الصليبية .

لأن الشرق العربى انتصر على الغرب فى تلك الحروب ورد عادية الدول الأوربية عن ذماره فقنع بما انتهى اليه وبقى على حاله التى هو فيها ، وهبط من بعدها دركة تحت دركة ، حتى أصبحت أممه بين موروث بقيد الحياة ، وبين ميراث كأسلاب الغنيمة مقسم فى من يقدرون على السلب والاقتسام .

لكن المسألة الشرقية جاءت فى أوانها هـذا فصنعت من المعجزات ما لم تصنعه تلك الحروب ، وكان سر هذه المعجزة أنها فتحت أعين الشرق على مواطن عجزه ونقصه ، وعلمته قهرا ما كان يأبى أن يتعلمه باختيـاره ، فأدرك حاجته الى التغيير العاجل ، وأدرك ما هو ألزم له من ذلك وهو حاجته الى علم يجهله ، واعتقاده أن أمم الغرب قد انتصرت بذلك العلم عليه ، وأنه لا غنى له عن ذلك العلم ليستعيد القوة التى انتصر بها على أعدائه ، قبل أن ينتصروا عليه ويأخذوا عليه كل طريق غير طريق الفناء أو التغيير ، ومن لم يطلب التغيير بعلم يتعلمه من

المنتصرين عليه فقد آمن بأن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم ، وآمن بأن قومه غيروا دينهم فتخاذلوا وانخذلوا ، فلا نجاة لهم بغير الرجوع الى الدين الصحيح ، مبرءا من لوثة البدعة والخرافة ، سليما من شبهة الدجل والغفلة .

فاذا كانت قارة الاستعمار قد حصرت خطتها حيال الشرق في سياسة واحدة تريدها وتتعمدها ، فهناك كما قلنا فى كتابنا عن الكواكبى « سياسة أخرى لم تردها ولم تتعمدها تلقاها الشرق منهـا فهب لمقاومتها ، وتيقظ لمطامعها ، ونزل معها فى ميدانها الذى استفزته له باختيارها وبغير اختيارها ... ونقصر القول على الشرق العربى كما كان فى أواسط القرن التاسع عشر .... ففي تلك الفترة كانت مصر قد ظفرت بحصـة كبيرة من الحكومة الذاتية ، وكانت لبنان قد خرجت بعد الفتن والأزمات بنصيبها المقرر من الامتيازات الداخلية ، وكادت جزيرة العرب أن تنعزل بالدعوة الوهابية وتوشك أن تمتد منها الى العراق ، وكانت العراق فى صراعها مع حـكم المماليك تتقدم فى خطى سراع الى الخلاص من ذلك الحـكم المضطرب بين الكسـاد والوباء .... ولعلنا ندرك حقيقة الحال ونعلم أن وعود الاصلاح كانت ضرورة لازبة ولم تكن انعاما ولا احسانا من ولاة الأمور اذا نظرنا الى بقاع العـالم العربى فلم نجد فـيه بقعة واحدة رضيت بما هى فيه ولم ينهض أملها للمطالبة بنوع من الاصلاح على نحو من الأنحاء ، فتحرك السـودان وتحركت الصحراء وتحركت قبائل المغرب فى ثورتها بل فى ثوراتها التى تكررت ولا

تزال تتكرر الى اليوم وصـــدق على العالم العربى بين أطرافه المترامية قول القائلين فى الغرب : انه مارد خرج من القمقم ولن يعود اليه ، وكان فى الحق ماردا هائلا يتململ فى الأسر ليخرج من قمقمه المظلم المحصور ، ولكنه لم يكن ماردا معصـــوب العينين كما صوره أولئك الراصدون للقمقم أو كما أرادوا أن يتصوروه . اذ كان للمارد زمامه فى أيدى الهداة من القـــادة الملهمين ومن رواد الثقـــافة الأولين ، وكان لهذه الهداية بين المسلمين وغير المسلمين طابع الشرق الخالد منذ الأزل : طابع العقيدة والايمان ..... وربما قال الجامدون قبـــل المجددين ان الأوربيين عملوا بأدب الاسلام فأعدوا العدة ونظروا الى حكمة الله فى خلقه فتقدموا وتأخر المسلمون ... » .

***

ونحن الآن نغتبط بالمصير الذى انتهت اليه المسألة الشرقية بعد منتصف القرن العشرين ، ولكن واجب العظة الصـــادقة يتقاضانا أن نذكر فى كل حين أن الشرق لم يكن سريع الخطى فى انتقاله من دور الجمود الى دور الخلاص ، لأنه قضى نحو قرن كامل يجاذب بعضه بعضـــا عن الطريق القـــويم بين من يحسبون أن هذا الخلاص كله فى اتباع الجديد على علاته ومن يحسبون أن هذا الخلاص مطلب بعيد المنال علينا اذا نحن لم ننبذ الجديد بقضه وقضيضه ، وكأنما خرج المارد من القمقم الى فضاء الأرض والسماء ولكنه خرج اليـــه مكبلا بالأغلال والأعباء التى تثقل الرءوس قبل أن تثقل الأقدام ، ولبثت كل

أمة من أمم الشرق الأدنى تنتظر القارعة التى تخصـها بالعظة بين جاراتها وأخواتها التى تشبهها فى المصـاب وتشبهها فى المصير ، فلم تتعظ أمة من هذه الأمم بمصاب غيرها على النحو الرشـيد الذى يعفيها من تكرار الجهود وابتـداء المسير من جديد ، وكأنما كانت أثقال الماضى أكبر وأخطر من دواعى اليقظة والحـركة فى الحاضر والمستقبل ، فبقيت هـذه الأمم المتيقظة تجرجر وراءها تلك الأثقال شوطا بعيدا بعـد استقامتها على منهج الاصلاح المحتوم .

وفى مصر كانت حملة نابليون هى الصدمة الكبرى التى خصتها بدروسها العاجلة ، وكانت دروسا محتومة لا تمهل المتعلم أن يتردد بين الجمود والحركة .

وربما كانت الغلبة العسكرية أضعف تلك الدروس أثرا ، لأن هزيمة المماليك لم تقع من الأمة موقع الدهشة ولم يصعب على الذين كلفوا أنفسهم تدبر عواقبها وأسبابها أن يردوها الى غضب الله وأن يعتبروا بعبرتها عقابا للقوم على الظلم والطمع وسوء السـيرة وغلبة الترف والنعومة فى الكثيرين منهم على صفات البأس والنخوة كما قال شاعر الجبرتى :

انمـا هـذه البـلاد لأقـوا
م حمـوها بالصارم المسـلول
وأرى دولة المـماليك مـالت
لضروب اللذات (كل مميل)[1]

---

(١) فى نسخ الجبرتى روايات لهذا الشطر صححناها بالظن هذا التصحيح .

واغتنوا عن تجريد سيف ورمح

بقـوام لدن وطـرف كحيـل

ولكنهم علموا أن ظلم المماليك قد يسوق اليهم من يغلبهم ويقهرهم ، ولكنه لا يضع فى يد الغالب القاهر سـلاحه الذى يصول به على عدوه فيقهره ويستذله وان لم يكن أحمد منه سيرة وأقل منه فسـادا كما شـهدوا بعد ذلك من سـيرة « الفرنساوية » فى هذه الديار ، ثم نظروا فعلموا أن نابليون لم يزحف على المماليك بجيش واحد بل بجيشين : جيش يحمل السلاح وجيش آخر من جماعة العلوم والفنون يحمل الكتب والأوراق وهو الجيش الذى حشده الفرنسـاوية فى المدينة . « وأفردوا للمدبرين منهم والفلكيين وأهل المعـرفة والعلوم الرياضية كالهندسة والهيئة والنقوشات والرسومات والمصورين والكتبة والحسّاب والمنشـئين حارة الناصرية حيث الدرب الجديد وما به من البيوت ، وفيه جملة كبيرة من كتبهم وعليها خـزان ومباشرون يحفظونها ويحضرونها للطلبـة ومن يريد المراجعـة ، وكان فى تلك المكتبة زيادة عن الكتب العلميـة والتاريخية أطالس فيها صور من سلف وصور الأماكن التاريخية وخرط البلاد والمدن والحيوانات والطيور والنباتات وتواريخ القدماء وسـير الأمم وقصص الأنبياء بتصـاويرهم وآياتهم ومعجزاتهم وحوادث أممهم ، وعند توت الفلكى وتلامذته فى مكانه المختص بعلم الآلات الفلكية ، وأفردوا لجماعة منهم بيت ابراهيم كتخدا السفارى وهم المصورون لكل شىء ، ومنهم

أريجو الذى أبدع تصوير المشايخ المعينين بالمجلس ، وفريق منهم يحنطون الحيوانات والأسماك ، وأفردوا أماكن للمهندسين وسكن الحكيم (رويا) ببيت ذى الفقار كتخدا ونظم دار الأدوية به ومعه عدة من الأطباء والجراحين ، وأفردوا مكانا فى بيت حسن كاشف شركس لعمل التحليلات الكيموية والظواهر الطبيعية ، وأفردوا أيضا مكانا للنجارين وصناع الآلات والأخشاب [1] » ...

وربما كان من بواعث احياء الثقة بعد موتها ، ومن بواعث الاقبال على هذه العلوم الغريبة بعد النفور منها والاعراض عنها ، أن أذكياء البلد فهموا أنها « بضاعتنا ردت الينا » وأن الفرنسيين انما أخذوا من علومنا فى المشرق ما أهملناه وضعيناه فبلغوا به من القوة حديثا مثل ما بلغناه قديما ، ولا يزالون يبحثون عن المزيد ليبلغوا فوق ما بلغوه ، ومكن لأذكياء البلد من هذا الاعتقاد أنهم نظروا الى الجلة المختارة من علماء القوم فرأوهم يجدون فى البحث ولا يترفعون عن التمرغ بالأتربة والخرائب ليكشفوا بين ودائعها عن أسرار الكيمياء والفلك وأخبار الرى والزراعة ، ولم يتورعوا عند سفرهم عن حمل ودائع المساجد وخزائن الكتب بما اشتملت عليه من المخطوطات المطوية والنسخ النادرة ، تنفيذا للمادة الحادية عشرة من شروط الصلح الأخير التى تنص على : « أن أرباب العلوم والصنائع

---

(١) الجبرتى وتقويم النيل وغيرهما ...

يأخذون معهم جميع الأوراق والكتب مما لا يخصهم فقط ، بل كل ما يرونه نافعا لهم » .

***

وقد فارقت الحملة الفرنسية مصر ولم تفارقها فكرة التقدم العصرى الذى سبق اليه القوم بعلوم ابتكروها أو بعلوم اقتبسوها منا ، وآن لنا أن نردها الينا .

ولكنها كانت فكرة تحوم بين بعض الرءوس ولا يظهر لها أثر فى الحياة العامة ، لاختلاف وجهات النظر بين طلاب الجديد على علاته وأعداء الجديد بحذافيره ، ولأن التجديد فى الحياة العامة مطلب تتولاه الهيئات المنظمة والحكومات المطاعة ولا يستقل به الأفراد فى جهود مبعثرة وآراء متضاربة ، فلما قامت فى مصر أول حكومة ذاتية بعد حملة نابليون لم تلبث أن أحست وطأة الضرورات العملية والحاح المطالب الموقوتة ، ولم تكن هذه الضرورات مما يحتمل التسويف بين الآراء المتشعبة والوجهات المتعارضة ، ووجب على ولاة الأمر أن يوطنوا أنفسهم على مصير كمصير المماليك أو يبتدروا الزمن الى الانتفاع العاجل بتجديد التعليم والتصنيع ، فأخذوا فى بناء المدارس وارسال البعوث وانشاء المصانع وتنظيم الدواوين وضبط موارد الثروة ، وعملت المطبعة عملها فى نقل المؤلفات النافعة واحياء الذخائر السلفية ، وتداولت أيدى المثقفين القلائل كتب الأجانب فى علوم التاريخ والفلك والجغرافية

والطبيعة والكيمياء وشئون الحكم والاجتماع ، كما تداولت كتب الأدب والثقافة من آثار السلف المهجورة ، واتجهت الهمم الى جمع هـذه الآثار من مظانها فى المساجد والزوايا وخزائن القصور ، فلم يمض جيل واحد بعد الحملة الفرنسية حتى ظهر « الرجل المثقف » فى البيئة المصرية ولم تخل منه بيئة من بيئات التقليد والرجعة الى القديم وهى على عادتها فى الأزمنة المختلفة أعدى أعداء التحول والتجديد .

وشرط الرجل المثقف فى كل عصر أنه « ابن عصره » وأن طابع عصره يلازمه فى تفكيره وعمله كما يلازمه فى نظرته الى العالم من حوله ، فلا يعيش فى الزمن الحاضر بعقل الزمن الماضى ، ولا يترجم الواقع والحقيقة بلغة الوهم والخرافة ، وقد وجد هذا الرجل المثقف فى كل بيئة من بيئات التقليد والتجديد ، فثبت طابع العصر على أبناء القرن التاسع عشر قبل انتصافه ، ولا نعنى بثبوت طابع العصر فى تلك الفترة أنها أخذت كل ما يعطيه العصر من علومه وفنونه وأفكاره وخواطره ، ولا أن المثقفين فى الأمة غلبوا على أفكارها وخواطرها أو غلبوا على كل ما بقى فى رءوسهم وصدورهم من ميراث ماضيهم ، ولكننا نعنى أنهم استطاعوا أن يفتحوا أعينهم على النور بعد الظلمة ، فأبصروا غاية ما تمتد اليه تلك الأعين من منظور معروض بين أيديهم تحت أضواء النهار ، ولم يزل فيهم بعد ذلك حديد النظر وكليله ، بل لم يزل فيهم من هو طويل النظر ينظر الى البعيد

ولا ينظر الى القريب بين يديه ، أو ينظر الى القريب اللاصق به ولا يعدوه الى ما وراءه .

كان القرن الثامن عشر أحلك ساعات الليـــل قبل مطلع الفجر ، فلما طلع الفجر وأشرق من بعده النهار تيسرت الرؤية لمن يستطيعها كما تستطيع عيناه ، وهذا هو الفارق بين المثقف ابن عصره فى منتصف القرن التاسع عشر وبين الجامد على قديمه قبل ذلك بخمسين أو ستين سنة . فارق بين من ينظر بعينه وبين من يتخبط فى الظلمة أو يقاد .

من هؤلاء الناظرين بأعينهم الى النور بعد منتصف القرن التاسع عشر ، بل فى الطليعة من أولئك الناظرين البصراء الى حقائق زمانهم ، نابغتنا الريفى الأزهرى الذى علم علم اليقين ، بل آمن ايمان الدين المتين ، أن « التقدم العصرى » رهين بعلوم لنا أهملناها وهجرناها ، وعلوم للمعتدين علينا سبقونا اليها ولم نلحقهم فى غير القليل منها ، وهى حقيقة من « بديهيات » أيامنا هــذه بعد منتصف القــرن العشرين ، ولكن نابغتنـــا الريفى الأزهرى ــ محمد عبده ــ كان يقــررها بعد منتصف القرن التاسع عشر فيجد أمامه من يخاطبهم بمثل ذلك المقال الذى كتبه فى صحيفة الأهرام الأسبوعية وتحرى فيه أن يكتبه بأسلوبه المخضرم بين القديم والحديث فقال :

« ليت شعرى اذا كان هــذا حالنا بالنسبة الى علوم قد أرضعت ثدى الاسلام وغذيت بلبانه وتربت فى حجره وتقلدت فى ايوانه منذ زمن يزيد على ألف ســنة ... فما حالنا بالنسبة

الى علوم جديدة مفيدة هى من لوازم حياتنا فى هذه الأزمان .... لابد لنا من اكتسابها وبذل المجهـود فى طلابها ؟.... كنا نؤمل أن المبنج يفيق بشم روح النوشادر ... فى زمان جرى فيه سيل العلوم حتى عم آنحاء الكرة على العمـوم ... وظهر فيه التوازن بينها وبين آحـوالنا المهجنة ، كثروتهم وفاقتنا ، وعزتهم وذلتنا ، وقوتهم وضعفنا ، وقدرتهم وعجزنا ، وصولتهم وانهزامنا ، وغير ذلك من المزايا والرزايا التى لا تعد ... لكن صمت الآذان وعميت الأبصـار ، ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة ولهم عذاب عظيم » [1] .

***

وقد كان الشاب محمد عبده يدعو هذه الدعوة وهو فى الطليعة من أبناء جيله ، ولكنه سجل بها طابع العصر كله من منتصف القرن الثامن عشر الى منتصف القرن التاسع عشر ، ومن هزيع الليل الأخير ، الى مطلع النهار .

(١) أحد فصول كثيرة كتبها سنة ١٢٩٣ هـ .

القرية

اذا أحاطت ألفاف الظلام ببقعة من الأرض خفيت معالمها ولم يتبين منها موضع من موضع ، وخيل الى الناظر اليها على البعد أنها خلاء بلقع أو أنها مسكن مهجور لا يأوى اليه ديَّار ، ولا ينبعث منه بصيص نور .

ويقترب السالك اليه فلا تنمحى أمام عينيه آية الظلام ، ولكنه يرى معها شيئا غير الظلمات التى أطبق بعضها على بعض : شيئا من النور هنا وهناك ، بين سراج ضئيل على باب دار ، أو فتيلة خافتة عند زاوية جدار ، أو نار تشب للهداية ، أو موقد يضرم للطعام : شيئا آخر من بصيص النور غير ألفاف الظلام .

على حالة مثل هذه الحالة كانت صورة القرية المصرية فى العصر المخضرم بين أواسط القرن الثامن عشر وأواسط القرن التاسع عشر :

صورتها من خلال التاريخ العام ظلام وموات ، وصورتها من قريب تنجلى عن شيء غير الظلام والموات ، بصيص من النور ورمق من الحياة .

ينظر القارىء فى صفحات التاريخ العام منذ قرون ترجع الى ما قبل الميلاد ، فلا يفرغ من قصة دولة طاغية الا ليبدأ

بعدها فى قصة دولة باغية ولا ينتهى من حكم دخيل الا لينتقل الى حكم أصيل يضطرب بين الضعف والشقاق وبين العسف والجمود ، وينطمس فى آثنـاء ذلك كل ما تخلله من بريق هنا ووميض هناك ، فلا تنطبق الصفحات آخر الأمر الا على ألفاف من الظلمات كتلك الألفاف التى تحيط بالسالك فى غياهب الليل فلا يبصر وراءها غير ظلام مطبق على ظلام .

وينتقل قارىء التاريخ العـام من تاريخ القرية على حدة فيرى شيئا آخر الى جانب الطغيان والمذلة : شيئا من العزة هنا ومن السخط هناك ، وشيئا من الشعور بغير التسليم وراء كل تسليم ، ولكنه متفرق متقطع يراه الناظر اذا تبينه وفتش عنه ، ولا يكاد ينكشف له من النظرة الأولى فى نطاق أوسع من نطاق الآحاد منفردين متفرقين .

ومن الحق ألا يعجب قارىء التاريخ العام من هذه الصورة المختلفة للقـرية المصرية فى تلك الفترة ، فانه كان أحرى أن يعجب لتلك القرية أن تبقى فيها بقية من التربة المخصبة بعد جوائح القحط والجـدب والاغتصاب والانتهاب وعـوارض الجفاف من سوء الزرع وسوء الرى أو سوء توزيع المـاء ان فاضت به مجارى ، فاذا كان هذا كله لم يستنفد ذخيرة الخصب فى هذه الأرض العتيقة فلا عجب أن تبقى للنفس البشرية ذخيرة من قوة الحياة بعد أن أصابها من غوائل الزمن ما أصاب أرضها من خراب وجدب واغتصاب .

وواقع التاريخ العام ، عند التأمل فيه ، أنه لم يخل قط من

دلائل القوة الكامنة وراء ظواهر التسليم والجمود ، وان طال بها الكمون والجمود أحيانا الى أجيال وراء أجيال .

فالتاريخ العــام لم يخل من ثورة المقاومة بعد مظالم بناة الأهــرام ، ولم يخل منها فى ابان دولة الرومان ، وربما كانت المسيحية المصرية شعلة من شعل هذه الثورة بما شرعته لأهلها من عقيدة تنكر عقيدة الدولة الحاكمة ، وبما ساقت اليه العازفين عن الطاعة العمياء من عزلة الدير ووحدة الرهبانية ... ومن أبى تلك الطاعة العمياء من غير أهــل الخير والتقوى فلعله لم يحمل سلاح العصيان ولم يذهب مع العصب والمنــاسر الا استباحة لعصــيان الحاكم الظالم ، قبل اســتباحته للحرام من الأنفس والأموال .

وينبغى أن نذكر أن الحاكم الظالم لم يكن فى وســعه أن يستأصل جذور الحياة فى القرية لو أراد ، وانه لم يكن له مأرب فى استئصالها ولم تكن له خبرة بوسائل استئصالها لو كان له من بعد النظر ما يخيفه من عواقبها فى الزمن البعيد . فأما مأربه منها فى حاضر وقته فكل همه منه محصول الزرع الذى يحمل اليه وهو قابع فى قصور المدينة ، ومن حمله اليه من أعوانه فهو فى تسخيره للحارثين والكادحين لا يستغنى عن مســألة فريق منهم ومداراة آخرين ، بل عن بذل الرشــوة لمن يعرفون فى القرية من لا يعرفهم من العاملين والمتمردين .

وكان ملتزم الزرع والضريبة لأصحاب الســلطان فى دولة المماليك أحوج ما يكون الى تلك المداراة ، ســواء فى القرى

التى يملكها أبناؤها أو فى القرى التى تزرع على « الروك » كما كانوا يسمون الزرع المشاع بعد أيام الأيوبيين .

فالمالكون لأرضهم على قلتهم كانوا أرسخ فى بلادهم قدما ، وأعصى مقادا على الملتزم ، من أن يسوقهم جميعا بعصا الاكراه والتسخير ، وقد يرضى فريقا منهم بالتزامات صغيرة الى جانب التزامه الكبير .

والزارعون فى أرض « الروك » غرباء عن الملتزم فى كل قرية غير قريته التى ولد فيها ان كان من أهل القرى ، أو هم غرباء عن مدينته ان كان من أهل العواصم البعيدين عن الريف . فسبيله اليهم أن يرضى من يعرفهم وأن يحسب لهؤلاء حسابهم ، لأنهم ان كانوا أضعف بأسا من أن يقدروا عليه فهو أقصر يدا وأعجز وسيلة من أن يقدر عليهم أجمعين ، وأن يستفيد شيئا من قدرته عليهم كارهين مضربين .

وقد كانت لموارد القطر كله حصيلة يحسبونها بالقراريط أربعة وعشرين قيراطا موزعة بين الأمراء والجند ومرافق الدواوين وأعمال القناطر والجسور والحيضان ، وكانت من هذه القراريط حصة محجوزة لأولئك الرؤساء المقدمين بين أبناء الريف ، يسمونهم فى سجلات الدولة بالعلماء أو مشايخ العربان ، ويسمون « بأبناء العرب » كل من لم يكن من أبناء الترك والجراكسة وأعاجم الجند من كل قبيل ، فلم يكن

« مشايخ العربان » كلهم بدوا يعيشون فى مضارب الخيام ، بل كان أكثرهم من الفلاحين والقرويين .

***

ان منفذ الحرية ، أو منفذ المقاومة ، أو منفذ الشكاية الذى بقى لأبناء القرى فى أواخر عهد المماليك ، قد يتمثل لنا فى حادث من حوادث كثيرة رواها المؤرخون لتلك الفترة ، ولكن هذا الحادث قد جمع من مراجع السلطة وأساليب المقاومة واشترك فيه الأمراء والعلماء وجمهرة الشعب على مثال يستحق أن نفرده بالذكر فى هذا المقام .

روى الجبرتى فى الجزء الثانى أن الفلاحين فى قرية من قرى مركز بلبيس شكوا فى شهر ذى الحجة سنة ١٢٠٩ هجرية ، (١٧٩٥ ميلادية) الى الشيخ عبد الله الشرقاوى كبير علماء الأزهر ظلماً لحق بهم من أتباع محمد بك الألفى أمير المماليك المشهور ، فأبلغ الشيخ شكواهم الى كل من مراد بك وابراهيم بك ليخاطبا الألفى بك فى هذه الشكوى ويطلبا اليه أن يكف أتباعه عما يوجبها ، وانقضى زمن على هذا البلاغ بغير جدوى ، فجمع الشيخ الشرقاوى علماء الأزهر وتشاوروا فى الأمر مليا فانتهوا الى انذار الأمراء جهرة بالمقاومة واتفقوا على اغلاق أبواب الجامع ودعوة التجار وأصحاب الأعمال الى اغلاق الدكاكين وحوانيت التجارة واعلان ما نسميه اليوم بالاضراب العام ، ثم ركب الشيخ الشرقاوى والعلماء فى اليوم التالى

وتبعتهم جماهــير الشعب الى منزل شيخ الســادات لاشراكه واشراك أتباعه معهم فى مقــاومة الأمراء حتى يستجيبوا الى مطالبهم ، وكان لابراهيم بك قصر بجوار بيت شيخ السادات فرأى هذه الجموع التى لا يكف عنها المدد مما حوله ، وهالته كثرتها فأرسل من يسأل عن سبب اجتماعها ، ثم علم بالسبب فلم يجسر على الذهاب بنفســه الى مكان الاجتمــاع وأناب عنه الدفتردار أيوب بك لاستماع اقوال العلماء والسعى فى تحقيق ما طلبوه ، فعلم منهم أنهم يريدون كف المظالم وصيانة الأموال والأرواح ورفع المكوس والضرائب الا ما يرتضــيه الرعية ، فخاطبهم أيوب بك فى تخفيف بعض هــذه المطالب والاكتفاء بتعجيل بعضها مما يســتطاع انجازه لوقته ، وقال : ان رفع المكوس والضرائب دفعة واحدة متعذر ، وانه قد يرفع شيئا فشيئا والا « ضاقت علينا المعايش والأرزاق » ، فصارحه العلماء قائلين : ان الأمراء ينفقون الأموال فيما لا حاجة به ولا خير فيه ، وما الحاجة الى انفاق المال فى البذخ والترف والاستكثار من الجوارى والمماليك ؟ ان الأمير يعطى ولا يأخذ ما فى أيدى الناس ، وان الانفاق على اللذات وضروب الزينة الخاوية اسراف وفضــول .

ولم يستمع العلماء جوابا شــافيا فى ذلك المجلس فبــاتوا ليلتهم فى حرم المسجد على أن يخرجوا فى الصباح الى الميادين والساحات العامة معلنين الأمراء بخلع الطاعة والاستجابة الى أحكام الشريعة ، فبادر ابراهيم بك الى طلب المعــذرة منهم

وأحال التبعة فى رفض مطالبهم الى اصرار المخالفين له من أمراء المماليك ، وعلى رأسهم صاحبه مراد بك ، وأبلغهم أنه يؤيدهم ويحارب فى صفوفهم اذا أصر المخالفون على الرفض والمراوغة ، وكاشف مراد بك فى الأمر مستحثا له على عمل شيء عاجل لتهدئة المدينة قبل انفجار الشعب كله بالعصيان .

وكان الوالى الأكبر يرقب الحالة لينظر ما يصنعه أمراء المماليك لتدارك الخطر قبل استفحاله ، فلما كان اليوم الثالث ولم يصنعوا شيئا قصد الى قصر ابراهيم بك وجمع هناك كبار الجند وأصحاب الكلمة النافذة فى عساكر المماليك وأرسلوا الى العلماء والرؤساء يدعونهم للمشاورة ويعدونهم بابرام الأمر على ما يحبون ، فحضر من رؤسائهم كل من الشيخ الشرقاوى والشيخ الأمير وشيخ السادات والسيد عمر مكرم والشيخ البكرى ، وهم نواب الأمة المختارون لهذه الملمات . وانفض الاجتماع بعد طول الأخذ والرد بقبول ما طلبه العلماء وكتابة موثق بذلك على الأمراء أن يتبعوه ولا يخالفوه ، ووقعوا جميعا على الحجة الشرعية » التى تسجل هذا الموثق وخلاصتها : أن يدين الأمراء بقضاء المحاكم فى قضايا الحقوق ، وأن تفرض الضرائب بموافقة الرعية على حسب الأحكام الشرعية ، وأن يمتنع عدوان الحاكم بغير جريرة من المحكومين . وسميت هذه الوثيقة بالحجة الشرعية على عادة قضاة الشريعة فى تسمية هذه العقود ، ولو أنها كتبت فى بعض البلاد الأوربية لجاءنا خبرها مع كتب القوم فى علوم السياسة الحديثة بعنوان من تلك

العناوين الكثيرة عن حقوق الشعب أو الدستور الأكبر أو « الماجنا كارتا » وما اليها من مصطلحاتهم التاريخية ، ولكن العلماء الذين دعوا أمراء العصر الى توقيع ذلك العهد لم يحسبوا أنهم جاءوا الى الناس بعهد جديد غير التذكير بعهد كتاب الله وسنة رسول الله التى نسيها أولئك الأمراء ، وكتب الموثق « حجة » عليهم بشهادة الرعية وشهادة « الأمة » التى تأمر بالمعروف من عباده العلماء .

***

وقد بقيت للقرية هذه البقية الصالحة من القدرة على المطالبة بالحق والشكوى من الظلم الى ما بعد عهد المماليك بزمن طويل ، ولم تكن فى كثير من الأوقات كافية لرفع المظالم وكف يد الظالم ، ولكنها كانت فى أحلك الأوقات كافية لتحريك القوة الكامنة فى قلب انسان مؤمن بالعدل والخير متحفز للجهر بما يؤمن به حيث يجدى الجهر بالايمان أو يجد له متسعا من القلوب والآذان .

وقد أرخ امامنا صاحب هذه السيرة لهذه الظاهرة الاجتماعية فى تلك الفترة بعينها ، فقال رحمه الله فى مقاله عن محمد على رأس الأسرة الخديوية أن الأمراء « اضطروا أن يخففوا من ظلمهم وأن يتخذوا لهم من الأهلين أنصارا يؤازرونهم عند قيام الحرب بينهم وبين خصومهم . فلما أحس الأهلون بحاجة الأمراء اليهم زادوا فى الدالة عليهم واضطروهم الى

قبول مطالبهم . فعظمت قوة الارادة الشعبية عند أولئك الذين كانوا عبيدا بمقتضى الحكومة وانتهى بهم الأمر أن قيدوا الأمراء والملوك معا ... نعم كانت الحكومة فى مصر على نوع تخالف به جميع الحكومات الشرقية ، وكانت البلاد موزعة بين أمراء كل منهم يستغل قسما منها ويتصرف فيه كما يهوى ، وكان كل منهم يطلب من القوة ما يسمح له بمد يده الى ما فى يد الآخر أو يدفع به صولته ، فالخصام كان دأبهم والحرب كانت اهم عملهم ، لذلك كان كل منهم يستكثر من المماليك ما استطاع ليعد منهم جنده ، وكانت تعوزه مؤنتهم اذا كثروا فاضطروا الى اتخاذ أعوان من أهالى البلاد ، فوجدوا من العرب أحزابا كما وجدوا منهم خصوما ، ثم رجعوا الى سكان القرى فوجدوا فيهم ما يحتاجون اليه ، فاتخذوا بيوتا منها أنصارا لهم عند الحاجة ، وعرف هؤلاء حاجة الأمراء اليهم فارتفعوا فى أعينهم وصار لهم من الأمر مثل ما لهم أو ما يقرب من ذلك . لهذا كنت ترى فى البيوت المصرية بيوتا كبيرة لها رؤساء يعظم نفوذهم ويعلو جاههم ... وذلك كان يقضى على كل أمير من أولئك الأمراء أن يصرف زمنه فى التدبير واستجلاب النصير ، واعداد ما يستطيع من قوة لحفظ ما فى يده والتمكن من اخضاع غيره ، وكان أنصاره من الأهالى يجارونه فى ذلك خوفا من تعدى أعوان خصمه عليهم ... وهذا يحدث بطبعه فى النفوس شمما وفى العزائم قوة ، ويكسب القوى البدنية والمعنوية حياة حقيقية مهما احتقرت نوعها . فكانت العناصر جميعها فى استعداد لأن

يتكون منها جسم حى واحد يحفظ كونه ويعرف العالم مكانته » .

ثم انتقل الى عصر محمد على فقال ما فحواه انه خاف على سلطانه من أبناء البلاد « فوجه عنايته الى رؤساء البيوت الرفيعة فلم يدع منها رأسا يستتر فيه ضمير (أنا) واتخذ من المحافظة على الأمن سبيلا لجمع السلاح من الأهلين ، وتكرر ذلك منه مرارا حتى فسد بأس الأهالى وزالت ملكة الشجاعة منهم ، وأجهز على ما بقى فى البلاد من حياة فى أنفس بعض أفرادها فلم يبق فى البلاد رأسا يعرف نفسه حتى خلعه من بدنه أو نفاه مع بقية بلده الى السودان فهلك فيه . وأخذ يرفع الأسافل ويعليهم فى البلاد والقرى كأنه كان يحن لشبه فيه ورثه عن أصله الكريم حتى انحط الكرام وساد اللئام ، ولم يبق فى البلاد الا آلات له يستعملها فى جباية الأموال وجمع العساكر بأية طريقة وعلى أى وجه ... فمحق بذلك جميع عناصر الحياة الطيبة من رأى وعزيمة واستقلال نفسى ليصير البلاد جميعها اقطاعا واحدا له ولأولاده ، على أثر اقطاعات كثيرة كانت لأمراء عدة » .

ثم قال : « أين البيوت المصرية التى أقيمت فى عهده على قواعد التربية الحسنة ؟ أين البيوت المصرية التى كانت لها القدم السابقة فى ادارة حكومة أو سياستها أو سياسة جندها مع كثرة ما كان فى مصر من البيوت الرفيعة العماد ، الثابتة الأوتاد ؟ ... انه أرسل جماعة من طلاب العلم الى أوربا ليتعلموا

فيها فهل أطلق لهم الحرية أن يبثوا فى البلاد ما استفادوا ؟ كلا . ولكنه اتخذهم آلات تصنع له ما يريد ... وظهر بعض الأطباء الممتازين وهم قليل ، وظهر بعض المهندسين الماهرين وهم ليسوا بكثير . والسبب فى ذلك أن محمد على ومن معه لم يكن فيهم طبيب ولا مهندس ... فاحتاجوا الى بعض المصريين ولم يكن أحد من الأعوان مسلطا على المهندس عند رسم ما يلزم له من الأعمال ولا على الطبيب عند تركيب أجزاء العلاج ، فظهر أثر استقلال الارادة فى الصناعة عند أولئك النفر القليل من النابغين ، وكان ذلك مما لا تخشى عاقبته على المستبدين » .

***

ومن المحقق أن الخطة التى نسبها الأستاذ الامام الى محمد على انما كانت احدى خططه المرسومة فى سياسته العامة التى أراد بها أن يحصر الأمر كله بين يديه وأن يجرد البلد من كل قوة تحدث نفسها بمقاومته أو الانتقاض على حكمه أو منازعته فى شأن من شئون الدولة سواء بدرت هذه المنازعة من جانب أبناء الترك كما كانوا يسمون المماليك عامة أو من جانب أبناء العرب كما كانوا يسمون الفلاحين عامة بغير تفرقة بين أبناء البادية وأبناء الريف ، وكان همه الأكبر أن يتخلص من أولئك السادة الذين رشحوه للولاية وتقدموا مرة بعد مرة لمحاسبة الأمراء من قبله ، لأنه علم أنهم قادرون على ترشيح غيره كما رشحوه وعلى محاسبته كما حاسبوا غيره ، وخشى من جانب الريف أن

يدين أبناؤه لصاحب جاه أو صاحب « عـزوة » من أهله ، وبخاصة بعد التحالف بين بعض أبناء الريف وبعض خصـومه الذين هجروا العاصمة فرارا من القتل والغيلة ، ولم ينس محمد على أن قبائل الأطراف ربما استقلت بالحكم زمنا وامتنعت عن أداء الخراج لولاة الأمر فى القاهرة كلما اتهمتهم بالمروق من سلطان الدولة أو بالجور على حقوق الرعية ، فلم يكفه أن يجرد أصحاب الجاه من قدرتهم على العصيان والانشقاق ، بل حرص على تجريدهم جميعا من كل جاه لا يستمدونه منه ، ولا يرجعون به اليه .

الا أن الحاكم المستبد قد يستطيع أن يستأصل الغروس النامية ولكنه لا يستطيع ـ مهما بلغ من طغيانه وحرصه ـ أن يستأصل الجذور الكامنة فى أعماق أرضها ، ولا البذور المدفونة فى انتظار نبع يسرى اليها أو سحابة تهطل عليها ، وتتركها لما قسم لها من الحياة فى تربتها .

ويظهر من سياسة الولاة بعد محمد على أن سياسة التجريد والاستئصال لم تجرد الريف من تلك العناصر التى يحسب الوالى حسابها ويشفق من عواقب اهمالها كما يشفق من عواقب استئصالها . فان الوالى محمد سعيد لم يلبث أن شعر بسوء المغبة من هـذا الاهمال ، وأدرك ضرورة الاستعانة فى حكم الريف ، فكتب الى الأقاليم قبل انقضاء جيل محمد على مراسيمه التى يقول فى أحدها بعد تمهيد وجيز : « وقد سنح لخاطرنا أن

أجعل الحكام ممن يوثق باعتمادهم فى الأمور الدينية والمدنية من عمد أبنــاء العرب بنواحى المديريات مع أبناء الترك على سبيل التجربة وابراز ما انطووا عليه من الثمرات المقصــودة بالذات أو ضدها ، وهناك يكون الاقدام على تقدمهم أو بتعيين تأخرهم عن برهان واضــح . فابتدأنا بتنصيب اثنين من عمد نواحى مديرية المنيا وبنى مزار نظار أقسام وجعلناهما موقعا للتجربة وأمرنا مدير الجهة المذكورة بتنصيب جانب من العمد حكام أخطاط . والآن تعلقت ارادتنا أن يكون حصــول ذلك بسائر الأقاليم فأصدرنا أوامرنا الى المديرين عموما وهذا اليكم لتنتخبوا من عمد أبناء العرب المجربين الأطوار المتصنفين بحسن الاستقامة والسياسة من يليق بالتقدم لمناصب الحكومة وترتبوا نظار أقسـام مديريتكم على الثلث منهم ، بأن يكــون اثنين ــ هكذا ــ نظار أقسام من أبناء الترك وواحد من أبناء العرب ، كما أن حكام الأخطاط يكون منهم ثلاثة من أبناء الترك وواحد من أبناء العرب ، وقبل أن ترتبوهم أعرضوا علينا بيان أسماهم وأسماء بلادهم وأقسامهم وأخطاظهم ... » .

وازداد شعور الولاة بضرورة المعــاونة بينهم وبين أبناء القرى على حكمها وولاية شئونها ، فشاعت الدعوة الى الحكم النيابى فى عهد اسماعيل ، وكان من أغراض اسماعيل فى مجاراته لهذه الدعوة أن يستخلص بعض السلطة من الرقابة الأجنبية باسم الأمة ليتصرف به ما استطاع على أيدى أعوانه وأوليائه من الوجهاء وعمد الأقاليم ، ولكنه ــ ولا ريب ــ كان يعمد

الى هذه الحيلة لأنه يدرك أن مشاركة هؤلاء الريفيين فى حصة من الحكم وسيلة لا غنى عنها لتوطيد سلطان الحاكم وضمان البقاء لصاحب الولاية الكبرى فى العاصمة ، ولم تكن ثورة عرابى فى عصر خليفته توفيق الا أثرا من آثار التهاون فى اتباع هذه السياسة ، أو أثرا من آثار العدول عنها لتغليب عنصر « أبناء الترك » على عنصر « أبناء العرب » فى وظائف الجيش والحكومة .

***

على أن ودائع الخير فى القرية لم تكن فى عصر من العصور محصورة فى أبناء « البيوتات » التى تتميز بالجاه والمال وسعة الثراء من الأرض والعتاد ، فان هذه البيوتات نفسها لم تكن لتستقر فى مكانها لو لم يكن قرارها على أساس آخر مكين هو أساس الأسرة أو أساس « البيت » على الاجمال ، وليس بالنادر أن يكون البيت الصغير دعامة للبيوتات العالية تعزها وتعتز بها وتتصل جميعا بوشيجة جامعة من النسب والمصاهرة ، وربما تعرضت البيوتات العالية لسطوة الحاكم المستبد اذا وقفت منه موقف المناجزة أو وقف منها موقف الحذر والريبة ، لأنه أقوى من كل بيت منها على حدة وأقدر على أن يأخذها متفرقة واحدة بعد واحدة قبل أن تأخذه دفعة واحدة وهى متفقة عليه . أما البيوت الصغيرة التى تتوارى عن بصر الحاكم الكبير وتغلب الظلم بالكثرة فهى الذخيرة الخالدة التى لا تفنى مواردها ولا

يتأتى للطغيان أن يجردها من مروءة العرف التى تتوشح مع الشعور بحقوق القرابة والمصاهرة وحياء النسيب من النسيب ودالة الصغير على الكبير وكرامة الكبير على الصغير ، وليس من شأن القروى الذى ينتمى الى قرابة واسعة موفورة العدد من هذه القرابات المعروفة فى بلاد الريف أن يستكين الى حاكمه الصغير فى القرية الى غير نهاية ، وليس من شأنه أن يعجز عن النجاة بنفسه من جوار الى جوار بين عشـيرته وذوى قرباه ، كلما ضاقت به الحال وبلغ به الجور والنكاية غاية الاحتمال .

والأسرة على أوضاعها العريقة هى عصمة القروى من جور حكامه وعوارض زمانه سواء منها ما يتوطد بالجاه والعصبة القوية وما يتوطد بالعدد الكثير والنسب المتشـعب والصهر المتجدد والعرف الموروث ، متلاحقا متمكنا على مدى الأسلاف والأعقاب .

وقد صادفتنا هذه الحقيقة فى ترجمتنا لسعد زغلول كما تصادفنا الآن فى ترجمتنا لأستاذه وزميله محمد عبده ، فقلنا فى فصولها الأولى ان « الأسرة عظيمة الشأن فى آداب المصريين من أقدم عصور التاريخ ولم يتجرد المصرى من عواطف الأرحام بين أبوة وأمومة وبنوة وقرابة وآصرة دانية أو قاصية ، وذلك هو قوام العرف الاجتماعى فى أخلاقه وعلاقاته ، وهو أيضا قوام المحافظة المصرية التى تحب الألفة وتعرض عن البدع والخوارق . والوصايا باتخاذ الأسرة معروفة فى الأدب المصرى منذ آلاف السنين ، ففى وصايا فتاح حوتب التى كتبت قبل أكثر من ستة

وأربعين قرنا يقول الوزير لتلميذه : اذا كنت رجلا ذا منزلة فاتخذ لك منزلا وأحبب قرينتك الحب الجميل وأطعمها وأكسها وطيب أوصالها وأدخل السرور على قلبها طول حياتها ... ولم تنس الوصية بتوقير الأسرة وصلة الأرحام بعد ذلك كلما كتبت الوصايا فى العهد القديم ، ففى نسخة من وصية عانى محفوظة فى مخطوطات الأسرة الثانية والعشرين يقول الحكيم : "تخذ لك زوجة فى شبابك لتنجب لك ولدا تربيه وأنت فى صباك وتعيش حتى تراه فى عداد الرجال . وما أسعد الرجل الذى له عشيرة كبيرة . ان الناس يوقرونه من أجل بنيه .

« وفى هذه الوصايا يقول الحكيم : ضاعف لأمك خبزها واحملها كما حملتك . لقد أثقلتها وما نبذتك وظلت تحملك حول عنقها بعد ميلادك وظل ثديها ثلاث سنوات فى فمك ولم تأنف من تنظيفك ولم تقل قط : ماذا أصنع بهذا ؟ وأرسلتك الى المدرسة تتعلم الكتابة ووقفت لك بالخبز والشراب كل يوم تنتظرك . واذكر اذا تزوجت وانفردت بمنزلك كيف ولدتك أمك وكيف ربتك وتعهدتك بكل ماعندها من وسيلة عسى ألا تصيبك بضرر ولا ترفع يديها الى الله بالدعاء عليك ولا يستمع الله منها الى شكاية » .

« فهـذه الرحمة البيتية قديمة لم تتغير فى الزمن الحديث ، ومن عظم الرأفة بالبنين أن يمتد زمن الرضـاع لهم الى ثلاث سنوات كما يفهم من هذه الوصية ، وأن الرأفة فى تلك الأجيال السحيقة لغريبـة ولو كانت رأفة الآباء بالبنين .... فالمصرى

اجتماعى من ناحية الأسرة وعراقة المعيشة الحضرية ، أو اجتماعى من ناحية انتظام العــادات والعلاقات منذ أجيال مديدة على نظام الأسر والبيوت ، وهذا هو أقوى ما يربطه بالمجتمع أو يربطه بالأمة والحياة القومية » .

***

ان العصور المتطاولة قد استنزفت من ثروة القرية ـ أنفسا وأموالا ـ غاية ما استطاعت أن تسلبه أو تفنيه مما لا يحصره الاحصاء ، وقد نحصره بتقدير الحســاب فيكفينا أن نعلم أن تعداد أبناء مصر هبط الى ما دون الملايين الثلاثة فى أخريات عهد المماليك بعد أن أربى على الثلاثين فى بعض عصور الفراعنة على تقدير بعض المؤرخين !

وربما هبط سكان القرى الى نحو الثلثين على الأكثر من هذه الملايين الثلاثة التى بقيت فى القرن السابع عشر بعد الهجرة الى المدن والفرار على غير قرار .

وجاء عصر الاقطاع بعد الدولة الأيوبية فصفى هذا العدد تصفيته الأخيرة حين قسم أبناء القرى الى فريق ملازم للقرية سماهم بالقراريين ، وفريق متردد بين القرى لا ينتسب الى مكان معلوم منها سماهم بالفراريين . ومن ذلك الحين أصبحت صفة « القرارى » عنوانا على العمل المتقن والصنعة المحكمة وقيل عن كل صانع يحسن عمله ويبالى أن يحمد عليه أنه قرارى فى هذه الصناعة ، حتى بلغ من سوء استخدام هذه الكلمة فى غير

موضعها أن وصف بها « اللص القرارى » والمحتال القرارى ، بعد أن كانت وصفا للزارع الخبير بشئون السقى والبذر والحرث والحصاد ، لاستقراره فى القرية وعلمه بطبيعة الأرض والجو وتقلبات الأهوية وعوارض الآفات ، خلافا للزارع الفرارى الذى لا يعرف من كل قرية غير موسمه فيها وأجرته من محصولها .

هؤلاء الفلاحون « القراريون » حملوا أوزار المظالم من قديمها ولكنهم احتفظوا كذلك بذخيرة العرف وشريعة الحياء من أصولها ، وحسبهم من هذه الذخيرة أن يأنف أحدهم أن يخزى هذا القريب أو ذاك النسيب بالعار الموروث ، وكل عار فى القرى موروث الى الأعقاب وأبناء الأعقاب ... أو حسبهم أن يقف بهم الاحتمال عند الحد الذى لا يحمد بعده احتمال ، ثم ينقلب بعد ذلك من الصبر الى الثأر أو يتحول من هذا الجوار الى ذلك الجوار . فان عم البلاء كل جوار حوله فى حقبة من الزمن فهو البلاء الذى يعم عاره ولا تلصق وصمته بهذا الجبين دون ذلك الجبين ، بين آلاف ومئين .

وفى هذا القرار من القرية نشأ فى القرن التاسع عشر رفاعة الطهطاوى ، وعلى مبارك ، وعبد الله فكرى ، وحسن الطويل ، وأحمد عرابى ، ومحمد عبده ... وكلهم بعثت به القرية الى الجامع الأزهر ، وبعث به الجامع الأزهر الى ميدان الكفاح والاصلاح .

الأزهر

فى منتصف القرن الثامن عشر (١٧٤٨) أسندت ولاية مصر الى الوزير العالم أحمد باشا كور ، وكان من المشتغلين بعلوم الهيئة والرياضة ، فرغب فى مذاكرة علماء الأزهر الذين يدرسون تلك العلوم فى حلقاتهم بالمسجد الجامع ، وخاطب مقدم العلماء الشيخ عبد الله الشبراوى فى ذلك ومعه عالمان من كبار علماء العصر هما الشيخ سالم النفراوى والشيخ سليمان المنصورى ، فسكتوا ثم صارحوه بأنهم يجهلون تلك العلوم ولا يشتغلون بتدريسها وانصرفوا بعد أول لقاء بينهم وبين الوالى وهم يحسبون أنها مسألة فرغ الحديث منها ، ولكن الوالى عاد الى الحديث مع الشيخ الشبراوى فى جلسة من جلساته معه بعد صلاة الجمعة بمسجد القلعة ، وكانت الخطبة فى ذلك المسجد من عمل الشيخ الشبراوى ، يؤم المصلين ومنهم الوالى ويتناول الغداء على مائدته بعد الصلاة ، ويجرى الحديث بينهما أحيانا على شؤون الأزهر وشؤون الدين على العموم ، ثم ينصرف الى موعده من الأسبوع الذى يليه .

قال الوالى ذات مرة ما فحواه : كنت أحسب مصر كما نسمع فى بلادنا منبع العلوم والفضائل ، فلما جئتها أخلفت ظنى وذكرت المثل القائل : « تسمع بالمعيدى خير من أن تراه » ! .

قال الشيخ الشبراوى : بل هى كما سمعتم معدن العلوم والمعارف .

قال الوالى : وكيف ؟ وأنتم أعظم علمائها ولم أجد عندكم شيئا من العلوم التى سألت عنهـا ، وغاية تحصيلكم المنطق والتوحيد ونبذتم علوم المقاصد من هيئة ورياضة .

قال الشيخ : نحن لسنا أعظم علمائنا وانما نحن المتصدرون لخدمتهم وقضـاء حوائجهم ، وغالب أهل الأزهر لا يشتغلون بشىء من العلوم الرياضية الا بقدر الحاجة الموصـلة الى علم الفرائض والمواريث .

فعاد الباشا يقول : وعلم الوقت كذلك من العلوم الشرعية ، بل هو من شروط صحة العبادة كالعلم بدخول الوقت وتحرير القبلة ومواعيد الأهلة وعدد السنين .

فأجابه الشيخ موافقا ، ولكنه قال : أن معرفة ذلك من فروض الكفاية ، اذا قام به البعض سقط عن الآخرين . وهذه العلوم تحتاج الى لوازم وشروط وآلات وصناعات وأمور ذوقية ، كرقة الطبع وحسن الوضع والخط والرسم والتشكيل والأمور العطاردية ، وأهل الأزهر بخـلاف ذلك ، أخلاط من القرى والآفاق .

فسأل الوالى : وأين البعض القائم بهذه الفريضة ؟

فقال الشيخ : انهم موجودون فى بيوتهم يسعى اليهم ، ودله على الشـيخ حسن الجبرتى والد الشيخ عبد الرحمن المؤرخ المشهور ، مطنبا فى تزكية علمه وفضله .

فسألهم الوالى أن يدعوه الى لقائه ، فقال الشيخ : انه أعظم قدرا من أن يستدعيه مثلى ، ولكنكم تكتبون اليه مع بعض خواصكم فيحضر اليكم ، فكتب اليه الوالى واحتفى بلقائه عند حضوره ووجده على ما وصف من الدراية بتلك العلوم التى يدرسها الباشا ، فأكثر من الاجتماع به بعد ذلك للمذاكرة فيها .

ونحن نعرف هذه القصة من رواية الجبرتى فى تاريخه ، كما نعرف من قصص التاريخ الأخرى شيئا كثيرا عن حقيقة العلوم الفلكية التى تلقى بعضها عن أبيه ، فاذا هى على صحتها واشتمالها على أدق المعارف الفلكية التى حصلها علماء الحضارة الاسلامية تجمع بين العلم الرياضى الصحيح وأخلاط من التنجيم وقراءة الطوالع وأرصاد السعود والنحوس ، ومن ذلك قول الشيخ عبد الرحمن فى مقدمة كتابه عن الحملة الفرنسية : « ان وقائع الأيام وخطوبها وحوادث الحادثات وكروبها .... داخلة فى حيز الابداع والاختراع بما أودعه الله من الخصائص فى الآثار العلوية عند اقتران بعضها ببعض ، وارتباط المناسبات الخفية بينها وبين ما على وجه الأرض . وذلك بحسب جرى العادة الالهية له مسببات وحوادث يستدل عليها بتلك القرانات والمناظرات ، وقد أودع الله فى بعض خالصى النفوس البشرية والأرواح المجردة عن العلائق الجسمية والشهوات النفسية معرفة بعض تلك الحوادث ، اما بالهام أو باكتساب ونظر فى علم الأحكام . فالبالنجم هم يهتدون ، وبالنظر فى ملكوت

السماوات والأرض يستدلون فيعرفون ، من غير أن ينسب لتلك الآثار تأثيرات ، وانما هى أسباب عادية وعلامات ، وان من أعظم الدلائل على ما رميت به مصر ، وحل به لأهلها تنوع البؤس والأصر ، بحلول كفرة الفرنسيس ، ووقوع هذا العذاب البئيس ، حصول الكسوف الكلى فى شهر ذى الحجة بطالع مشرق الجوزاء المنسوب اليه اقليم مصر ... » .

ولكن هذا الخلط بين علم الهيئة والتنجيم لم يكن وقفا على الفلكيين بالمشرق أو البلاد العربية ، بل كان النظر فى الكواكب لاستطلاع السعود والنحوس دراسة مقررة فى الجامعات الأوربية وكان أكبر الفلكيين فى عصره ــ جوهان كيلر ــ المتوفى قبل منتصف القرن السابع عشر يدرس الفلك والرياضة بجامعة جراز ويصدر بأمر الجامعة تقويمها السنوى مشتملا على أرصاد العالم كله ، منبئا بطوالع البروج التى تشرف على مواليد الأمراء والملوك وتقبض على أعنة الحوادث من سلم وحرب وخصب وقحط ورواج وكساد ، وكان العالم الكبير يؤمن بأسرار تلك الطوالع والأرصاد ، ويعزو مخالفة النبوءات أحيانا الى خطأ الحساب أو الى شوائب النفوس التى تتولى الرصد وتتلقى منه النبوءة ، كما قال المؤرخ العربى فيما تقدم . وقد كان اسحق نيوتن يضبط حركات الأفلاك بقانون الجاذبية وهو يدون مئات الصفحات فى مباحث الطوالع والأرصاد وطلاسم السحر والزايرجة السوداء .

***

ونمضى مع الجبرتى فى حديثه عن نذير النجوم ببلاء الفرنسيس ، فنقول ان هذا المؤرخ الأمين قد شهد حلول البلاء فى القاهرة ووصف أعمال المقاومة فى خارجها وداخلها بين كفاح المحاربين ودعاء المسالمين فقال انه « لم تكن الا ساعة وانهزم مراد بك ومن معه ولم يقع قتال صحيح وانما هى مناوشة من طلائع العسكرين بحيث لم يقتل الا القليل جدا من الفريقين ، واحترقت مركب مراد بك بما فيها من الجبخانة والآلات الحربية ، واحترق بها رئيس الطبجية خليل الجردلى وكان قد قاتل فى البحر قتالا عجيبا هو ومن انضم اليه من الغليونجية وبقية العسكر والمشاة الذين فى المراكب مع مراكب الفرنسيس ، وأقدم اقدام الأسد . فقدر الله أن علقت نار بالقلع فنزل البعض منها الى البارود الذى فى المركب فاحترقت ومات هو ومن بالمركب من المحاربين ، فلما عاين ذلك مراد بك ولى منهزما وترك الأثقال والمدافع وتبعته عساكره ، والمشاة نزلت فى المراكب وانفصل الفريقان بدون طائل » .

قال : « وقد كانت العلماء عند توجه مراد بك للقتال تجتمع فى الأزهر كل يوم لقراءة البخارى وغيره من الدعوات ، وكذلك مشايخ فقراء الأحمدية والسعدية والرفاعية وغيرهم من طوائف الفقراء وأرباب الأشاير كل يوم يذهبون للأزهر فيجلسون للأذكار وتجتمع أطفال الكتاتيب للدعاء وتلاوة اسمه تعالى لطيف ، وكل هذا حصل بسببه النفع العظيم . فهو — وان لم يدفع دخول الفرنسيس مصر لكونه أمرا مقضيا محتما لا يرد

بالدعاء لكن وقع اللطف بسبب هذه الدعوات ــ واجتماع القلوب بمجالس الذكر والاستغفار وآثار اللطف التى حصلت مشاهدة ، ولا تنكر ولله الحمد » .

ثم قال : « ولما أصبح يوم الأحد المذكور والمقيمون لا يدرون ما يفعل بهم ويتوقعون حلول الفرنسيس ووقوع المكروه ورجع الكثيرون من الفارين وهم بأسوأ حال من العرى والفزع ، فتبين أن الفرنج لم يعدوا الى البر الشرقى وأن الحريق كان فى المراكب المتقدم ذكرها ، فاجتمع فى الأزهر بعض العلماء والمشايخ وتشاوروا فاتفق رأيهم على أن يرسلوا مراسلة الى الفرنج وينظروا ما يكون من جوابهم ، ففعلوا ذلك وأرسلوها صحبة شخص مغربى يعرف لغتهم وآخر صحبته . فغابا وعادا وأخبرا أنهما قابلا كبير القوم وأعطياه الرسالة فقرأها عليه ترجمانه ، ومضمونها الاستفهام عن قصدهم ، فقال على لسان الترجمان : وأين عظماؤكم ومشايخكم ؟ لم تأخروا عن الحضور الينا لنرتب لهم ما يكون فيه الراحة ؟ وطمنهم وبش فى وجوههم .... ثم قال لهم : لازم المشايخ والشرباجية يأتون الينا لنرتب منهم ديوانا ننتخبه من سبعة أشخاص عقلاء يدبرون الأمور . ولما رجع الجواب بذلك اطمأن الناس ، وركب الشيخ مصطفى الصاوى والشيخ سليمان الفيومى وآخرون الى الجيزة ، فتلقاهم وضحك لهم وقال : أنتم المشايخ الكبار ؟ فأعلموه أن المشايخ الكبار خافوا وهربوا . فقال : لأى شىء يخافون ؟ اكتبوا لهم بالحضور ونعمل لكم ديوانا لأجل الراحة .. » .

***

ولا بد أن نذكر ونحن بصدد الأزهر والحملة الفرنسية أن دعوات الأذكار كانت فى حينها « قوة عملية » من جانب واحد على الأقل ، وهو جانب اليقين بنفاذها فى عقيدة الرعاة والرعية ، لا يشكون فى أثرها اذا خلصت النية وصدقت الشكوى ولا يأمن الحاكم الظالم أن تستجاب من المظلوم فى شدة البلاء وانقطاع الرجاء فى غير الله . وقد مضى على حملة نابليون نحو مائة وسبعين سنة ونشبت الحرب بين مصر والحبشة وتوالت الهزيمة بعد الهزيمة فاعتصم الخديو اسماعيل يومئذ بتلك القوة — قوة التلاوة فى البخارى والتماس الدعوات من العلماء — فلم يخامره الشك فى أثرها ولكنه قال للعلماء بعد اتصال الهزيمة : اما انكم لا تقرأون البخارى واما انكم لستم بعلماء ... فردها اليه عالم جرىء وذكره بالحديث النبوى اذ يقول عليه السلام : « لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر أو ليسلطن الله عليكم شراركم فيدعو خياركم فلا يستجاب لكم ... » .

وقد ركب الفرنسيون رءوسهم بمصر واقتحموا الجامع الأزهر ودنسوا محاريبه وربطوا فيه الخيل والدواب فلم ينقض غير قليل حتى خرجوا من مصر مدحورين بعد أن خيل اليهم والى الناس أنهم لن يرحلوا عنها مكرهين ، ولم ينس أبناء البلد أن يربطوا بين جلائهم السريع وبين عدوانهم على ذلك الحرم المقدس ودعوات علمائه عليهم بالخذلان والنكال .

***

هذه نبذة موجزة من تاريخ الأزهر خلال فترة من فترات ذلك العهد الذى كان كما تقدم أحلك ساعات الظلام قبل مطلع النهار ، ويكفى تاريخ كل فترة من حيـاة هذا المعهد الخالد للتعريف بوظيفته التى استقر عليها وبيان مكانته التى تبوأها من الأمة فى أيام خضوعها لسلطان الدخلاء الواغلين عليها . فقد تقرر بحكم العرف والتقليد وحكم العقيدة والسمعة انه صوت الأمة الذى يسمعه الحاكم الدخيل من المحكومين ، وانه ملاذ القوة الروحية فى نفوس أبناء الأمة وفى نفوس الحاكمين الذين يدينون بعقيدتها ، ومن لم يكن من أهـل تلك العقيـدة فقد يحسب لها حسابها الذى ينسـاه اخوانها فى الدين مع الجهالة المطبقة أو مع هوى الساعة ، وقد حسب له الفرنسيون هذا الحساب ونسيه أناس من أمراء المسلمين ، ولكنه لم يضع قط كل الضياع فى وقت من الأوقات .

ومن فهم الواقع على جليتـه أن نذكر أن أهل البلد قد حددوا وظيفة الأزهر وظائف علمائه تحديدا يعز أحيانا على الدستور المكتوب ، فكان منهم من يتولى الصدارة فى شئون السياسة ومخاطبة الحكام لأنه أقدر على هذا العمل وأصلح له من زملائه ، وان كان فيهم من هو أوسع علما وأشهر بالتقوى ، وكان منهم من يثق الناس بتقواه ويطمئنون الى نزاهته فى أمور الدين والرئاسة ، وهكذا كان منهم من يفاوض الوالى التركى وليس هو بأعظم علماء البلد ، وكان منهم من يفاوض القائد الفرنسى وليس هو بمكان الرئاسـة العلميـة ، ولكنهم كانوا

مرشحين لوظيفة السفارة بين الأمة والحكومة بما لهم من خبرة فى سياسة الناس وأساليب الاقناع وعلاج المشكلات ، ولغيرهم سمعته فى هداية القلوب والبصائر والتماس الوسيلة عند الله اذا خابت الوسائل عند العباد .

ولم تنقطع الصلة زمنا طويلا بين هذه الرئاسة القوية الروحية وبين القرية المصرية من قرى الريف أو قرى الصعيد ، وقد يغنينا عرض أسماء الشيوخ والرؤساء الذين اختارهم نابليون وألف منهم الديوان الكبير للعلم بمبلغ هذه الصلة بين الأزهر والقرية ، فقد تألف هذا الديوان من عشرة ندر منهم من لم ينسب الى قرية يعرف بنسبته اليها كما يعرف باسمه ولقبه ، وهم عبد الله الشرقاوى والشيخ خليل البكرى والشيخ مصطفى الصاوى والشيخ سليمان الفيومى والشيخ محمد المهدى والشيخ موسى الرسى والشيخ مصطفى الدمنهورى والشيخ أحمد الويشى والشيخ يوسف الشبراخيتى والشيخ محمد الدواخلى ، وقبل ذلك كان الشيخ « الشبراوى » يقول للوالى العثمانى ان الغالب على أبناء الأزهر انهم أبناء القرية والريف .

وقد تقدم فى الكلام على القرية خبر الثورة التى أثارتها شكاية أهل بلبيس لابن اقليمهم الشيخ الشرقاوى الكبير ، فلا يفوتنا أن نذكر أن شكاية الأقاليم كانت تصل الى قادة الأزهر من كل طائفة معتدى عليها ولو وقع العدوان عليها فى رحلة الطريق ، وحدث أن سليمان بك أغا نهب سفينة لبعض

أبناء الصعيد تحمل التمر والميرة وشيئا من الأزواد والأطعمة ، وزعم الأغا أنه استخلص بما نهبه ديونا له على أولاد وافى من أهل الصعيد ، فغضب المجاورون من الصعايدة وأبلغوا مشايخ الأزهر أن السـفينة انما كانت تحمـل رزقا مرسلا اليهم من عشائرهم فى قراهم ، فركب الشيخ الدردير والشيخ العروسى والشيخ المصيلحى الى الأمير ابراهيم بك وواجهوا سليمان أغا فى حضرته بكلام شديد ، ولم يرجعوا الا على وعد برد ما استلبه كله ، مع البقية التى فضلت عنده مما استولى عليه .

***

ومن الواضح أن الجامع الأزهر انما استقرت له هذه المكانة فى العالم كله لأنه المدرسة الجامعة فى الرقعة الوسطى من العالم الاسلامى الفسيح من المشرق الى المغرب ، بين مدارس بغداد فى المشرق ومدارس قرطبة فى المغرب ، وقد أفلت هذه المدارس حينا مع أفول الدولة العباسية وأفول الدولة الأموية وسائر الدول الأندلسية ، وورثت الجامعة الأزهرية شهرتها جميعا كما ورثت فى القاهرة شـهرة مصر القديمة بالعلوم والمعارف التى حسبت من السحر المباح زمنا عند كثير من حكماء الاسلام ، وتلك هى العلوم والمعـارف التى كان « ذو النون » المصرى يبحث عنها فى نقوش البرابى وتحت ركام الكنوز المدفونة فى الرغام ، وانما كان الوزير العثمانى « أحمـد باشا » يقول عن مصر انها اشتهرت فى العالم كله بأنها « معدن العلوم والمعارف »،

وهو يعنى تلك الشهرة العريقة التى ذاعت عنها قديما ثم اتصلت بها بعد الاسلام شهرة الجامع العتيق ثم شهرة الأزهر بعد انفراده بامامة العلم فى بلاد الاسلام .

والمأثور عن الفاطميين أنهم كانوا يشتغلون بالنجوم والكيمياء والعلوم الكونية التى نسميها اليوم بالعلوم الطبيعية أو العلوم الحديثة ، وكان الامام جعفر الصادق – وهو امام رفيع القدر بين علماء الاسلام من جميع المذاهب – حجة فى علوم الدين والدنيا ، يعلم أبا حنيفة الفقه ويعلم جابر بن حيان الكيمياء ، وكان علماء الفاطميين ودعاتهم يقتدون به فى الجمع بين هذه العلوم ويستعينون بالمنطق والفلسفة على نشر دعوتهم بين أهلها من طلاب الدنيا والدين ، وليس فى أوراق المحفوظات الباقية سجل ثابت لتدوين أسماء العلماء وأسماء الكتب التى درسوها بالأزهر من هذه العلوم ، ولكن اجازات العلماء بعد انشاء الأزهر بأكثر من ثمانية قرون كانت تحتوى أسماء العلوم التى أجيز لهم أن يلقنوها الطلاب فى حلقاتهم ، ومنها سند العالم الكبير الشيخ أحمد عبد المنعم الدمنهورى المتوفى قبل نهاية القرن الثانى عشر للهجرة (١١٩٢ هـ) وفيها بيان الدروس التى حضرها وأجادها وألف فيها وهى عدا علوم الفقة واللغة دروس « الحساب والميقات والجبر والمقابلة والمنحرفات ، وأسباب الأمراض وعلاماتها ، وعلم الاسطرلاب والزيج والهندسة والهيئة وعلم الأرثماطيقى وعلم المزاول وعلم الأعمال الرصدية وعلم المواليد الثلاثة وهى الحيوان والنبات والمعادن

وعلم استنباط المياه وعلاج البواسير وعلم التشريح وعلاج لسع العقرب وتاريخ العرب والعجم ... » .

وهــذه العلوم المتفــرقة تجمــع فى ذلك العصر صــفوة المعارف الانسانية التى تدرس فى معاهد الثقافة العليا ، وكانت ــ على ما يظهر ــ تباح لمن يستعد لها من الطلاب المتقــدمين الذين يختارهم أساتذتهم ويأنسون فيهم القــدرة على النقل عنهم ، ولعل هذا ما عناه الشيخ الشبراوى بقوله عن هذه العلوم انها « فروض كفاية » يتخصص لها من يطلبها ولا تفرض على الذين يحضرون دروس العلمــاء الآخرين ولا يقبلون عليها ، ولعل الأساتذة الذين يبلغون فيها مبلغ التعليم والافادة يعتزلون الحلقات العــامة بطلابهم ومريديهم كما فعل الشيخ الجبرتى الكبير ، وهو على الأرجح قد تلقى مبادئها عن شيوخ من قبله تعلموها وعلموها على طريقته فى أخريات أيامه ، وعلى هــذه الطريقة بعينها تعلم الشيخ الدمنهورى كما سيرد فى الصفحات التالية .

واذا بدا من هذه الطريقة أن « العلوم الكونية » كانت من الدراسات « المخصوصــة » أو الدراسات التى لا تباح على عواهنها ، فمن جزاف القول أن ينسب ذلك كله الى الجمود وضيق الأفق وقلة الاكتراث بالحجر على العقول أو الحجر ــ كما نقول فى عصرنا الحديث ــ على حرية التفكير .

فقد يقع الذنب فى ذلك على شىء غير الجمود والحجر على الحرية الفكرية .

نعم .. قد يقع ذنب « التقييد » الذى أحيطت به دراسة العلوم الكونية على طريقة تدريسها أو طريقة اعـداد الطلاب للتقدم فيها ، وما من علم من تلك العلوم سلم من الخلط بينه وبين علم زائف يشبهه ويحمل عنوانه وليس هو بذلك العلم الأصيل فى حقيقته ونفعه .

فعلم الفلك قد اختلط بعلم التنجيم وانتقل من ثقاته وأمنائه الى المحتالين الملفقين لأكاذيب الطوالع وعلاقات الألفة والزواج والمشاركة فى أعمال الكسب والارتزاق .

وعلم الكيمياء قد اختلط بتحضير الذهب وسحر المعـادن وصناعة السموم بغير رقابة عليهـا وعلى الجرائم الخفية التى تستخدم فيها .

وعلم المنطق قد اختلط بالسفسطة والجدل ، وظهر من طريقة تعليمه فى الأمم القديمة من عهد الاغريق الى عهد البيزنطيين أنه مفسدة للعقول ومدرجة للعبث بالعقائد وقواعد التفكير الصادق والبحث المفيد .

وليس من الاغراب فى الظن البعيد أن نعتقد أن أصحاب الرأى وذوى البصر بالتربية فى العصر الحديث كانوا يحيطون تلك العلوم بمثل ما أحيطت به من القيود بالأمس لو أنها بقيت الى اليوم بأضرارها وشوائبها ودامت على حالها من اختلاط الصحيح بالزائف واختلاط المتعلمين بين طلابها على استعداد وعلى غير استعداد ، وبين المشتغلين بها للعلم والفائدة والمشتغلين بها للاحتيال والشعوذة ، فليس الجمود وحـده علة تقييدها

بالأمس وليست حرية الفكر وحدها هي التي رفعت عنها قيودها اليوم ، ولكنها حكمة بصـيرة دعت اليها أسـبابها فى حينها وأوجبتها أمانة الفكر وسلامة المجتمع على المسئولين عنها من أهل العلم والسياسة .

الا أن الحكمة البصيرة اذا حاف عليها الجمود ، واصطلحت عليها الأثرة مع الجمود ، ذهبت أسبابها وبقيت قيودها وتحولت من الرقابة البصيرة الى الحجر الأعمى والعداء اللجوج ، وكان فعل الأثرة هنا أشد من فعل الجمود فى كراهة المزايا العلمية التى يمتاز بها العـارفون ويحرمها أصـحاب الظهور بالمعـرفة وهم يكرهونها مخلصين لجهلهم بحقيقتها ، ان لم يكرهوها مغرضين لخوفهم من مزاحمتها ، وقد أوشك الحذر من تلك العلوم أن ينقلب فى أوائل القـرن السابع عشر من الحكمة البصيرة الى الجمود المعيب والغرض المريب ، وضعف الغيورون عليها عن حمايتهـا واحتمال تبعاتها ومصاعبها ، ولكنهم اسـتفادوا من قوارع الهزيمة بعد الحملة الفرنسية شيئا واحدا على الأقل وهو الشعور بالأسف عليها والجرأة على بث هذا الأسف فى كتبهم المتداولة ، ومنها كتبهم التى ألفـوها فى صميم عـلوم الدين والشريعة ، فلم ينس الشيخ حسن العطار وهو يبسط القول فى أصول الفقه فى حاشـيته على شرح الجـلال المحلى على جمع الجوامع أن يصرح بأسفه لاهمال علوم الحكمة واللغة ، فيقول فى كلامه على القياس من الجزء الثانى : « من تأمل ما سطرناه وما ذكر من التصدى لتراجم الأئمة الأعلام على أنهم كانوا مع

رسوخ قدمهم فى العلوم الشرعية والأحكام الدينية لهم اطلاع عظيم على غيرها من العلوم واحاطة تامة بكلياتها وجزئياتها حتى فى كتب المخالفين فى العقائد والفروع ، يدل على ذلك النقل عنهم فى كتبهم والتصدى لدفع شبههم ، وأعجب من ذلك تجاوزهم الى النظر فى كتب غير اهل الاسلام ، فانى وقفت على مؤلف للقرافى رد فيه على اليهود شبها أوردوها على الملة الاسلامية لم يأت فى الرد عليهم الا بنصوص من التوراة وبقية الكتب السماوية حتى يظن الناظر فى كتابه أنه كان يحفظها على ظهر قلب ، ثم هم مع ذلك ما أخلوا فى تثقيف ألسنتهم وترقيق طباعهم من رقائق الأشعار ولطائف المحاضرات ، ومن نظر ما دار بين المصنف رحمه الله وبين عصريه الأديب الصلاح الصفدى من المراسلات البليغة والأشعار الرقيقة علم أنه رحمه الله ممن تخضع له رقاب البلغاء وتجرى فى مضماره سوابق الأدباء ، وكذا ما دار بين سلطان المحدثين الحافظ بن حجر العسقلانى ومن عاصره من فحول الأدباء من لطائف الأشعار والنكات الأدبية ، وكذا العلامة الدمامينى ، بل وبين الحافظ السيوطى والسخاوى من المناقضات وما ألفه من المقامات ، وفيما انتهى اليه الحال فى زمن وقعنا فيه علم أن نسبتنا اليهم كنسبة عامة زمانهم ، فان قصارى أمرنا النقل عنهم بدون أن نخترع شيئا من عند أنفسنا ، وليتنا وصلنا الى هذه المرتبة بل اقتصرنا على النظر فى كتب محصورة ألفها المتأخرون المستمدون من كلامهم نكررها طول العمر ولا تطمح نفوسنا الى النظر فى غيرها ، حتى

كأن العلم انحصر فى هذه الكتب ، فلزم من ذلك أنه اذا ورد علينا سؤال من غوامض علم الكلام تخلصنا منه بأن هذا كلام الفلاسفة ولا ننظر فيه ، أو مسألة أصولية قلنا لم نرها فى جمع الجوامع فلا أصل لها ، أو نكتة أدبية قلنا هـذا من علوم أهل البطالة ، وهكذا . فصار العذر أقبح من الذنب . واذا اجتمع جماعة منا فى مجلس فالمخاطبات مخاطبات العامة والحديث حديثهم ، فاذا جرى فى المجلس نكتة أدبية ربما لا تتفطن لها ، وان تفطنا لها بالغنا فى انكارها والاغماض عن قائلها ان كان مساويا وايذائه بشناعة القول ان كان أدنى ، ونسبناه الى عـدم الحشمة وقلة الأدب ، وأما اذا وقعت مسألة غامضة من أى علم كان ، عند ذلك تقوم القيامة وتكثر القالة ويتكدر المجلس وتمتلىء القلوب بالشحناء وتغمض العيون على القذى ، فالمرموق بنظر العـامة الموسوم بما يسمى العلم اما أن يتستر بالسكوت حتى يقال ان الشيخ مستغرق أو يهذر بما تمجه الأسماع وتنفر منه الطباع .

وقالوا سـكرنا بحب الاله
وما أسكر القوم الا القصع

فحالنا الآن كما قال ابن الجوزى فى مجلس وعظ ببغداد :

ما فى الديار أخو وجد تطارحه
حـديث نجد ولا خـل تجاريه

وهذه نفثة مصدور فنسأل الله السلامة واللطف » .

***

ثم عاد الشيخ الى بث هذا الأسف بعد ذكر العلوم العصرية والالمام بمؤلفاتها المترجمة عن اللغات الأوربية فقال فى عرض الكلام على الخلاء والملاء وضغط الهواء : « انا لو وضعنا خشبة مستوية أو أنبوبة مسدودة الرأس فى قارورة بحيث يكون بعض الأنبوبة داخل القارورة وبعضها خارج عنها وسددنا رأس القارورة بحيث لا يدخلها هواء ولا يخرج ، وذلك بأن نسد الخلل بين عنق القارورة والأنبوبة سدا محكما لا يمكن نفوذ الهواء فيها ، فاذا أدخلنا الأنبوبة فيها أكثر مما كانت بحيث لايخرج شىء من الهواء عنها انكسرت القارورة الى خارج ، واذا أخرجناها عنها بحيث لا يدخل فيها شىء من الهواء انكسرت الى داخل ، ولولا أنها مملوءة بالهواء وما فيها من الأنبوبة بحيث لا تحتمل شيئا آخر لم يكن كذلك . فدل ذلك على امتناع الخلاء . وقد قال شارح حكمة العين : ان هذه اقناعيات لا برهانيات ، وأقول ان مسألة الخلاء ومسألة اثبات الميل فى الأجسام من مسائل العلم الطبيعى وبتحقيقها ينكشف للفطن أسرار غريبة وعليها ينبنى كثير من مسائل علم جر الأثقال وعلم الحيل واستحداث الآلات العجيبة ، ووقع فى زماننا أن جلبت كتب من بلاد الافرنج وترجمت باللغة التركية والعربية وفيها أعمال كثيرة وأفعال دقيقة اطلعنا على بعضها ، وقد تتحول تلك الأعمال بواسطة الأصول الهندسية والعلوم الطبيعية من القوة الى الفعل ، وتكلموا فى الصناعات الحربية والآلات النارية ومهدوا فيها قواعد وأصولا حتى صار ذلك علما مستقلا مدونا

فى الكتب وفرّعوه الى فروع كثيرة ، ومن سمت به همته الى الاطلاع على غرائب المؤلفات وعجائب المصنفات انكشفت له حقائق كثيرة من دقائق العلوم وتنزهت فكرته — ان كانت سليمة — فى رياض الفهوم :

فكن رجلا رجله فى الثرى
وهامة همته فى الثريا

فالنفس الانسانية بالاطلاع على حقائق المعارف تتكمل ، والفاضل الكامل بأنواع العلوم يتفوق ويتفضل ، لا بتحسين هيئة اللباس والمزاحمة على التصدر فى مجالس الناس . قال الحكيم الفارابى :

أخى خل حيز ذى باطل	وكن والحقائق فى حيز
فما الدار دار مقام لنا	وما المرء فى الأرض بالمعجز
ينافس هذا لذاك على	أقل من الكلم الموجز
محيط السماوات أولى بنا	فماذا التنافس فى المركز

فلا تجعل سعيك لغير تحصيل الكمالات العرفانية مصروفا ولا تتخذ غير نفائس الكتب أليفا ومألوفا .

ولا تك من قوم يديمون سعيهم
لتحصيل أنواع المآكل والشرب
فهذى اذا عدت طباع بهائم
وشتان ما بين البهيم وذى اللب

وهذه نفثة مصدور ، ولله عاقبة الأمور ، لعمرى لقد تساوى

الفطن والأبله الأفن ، واستنسر البغاث وسد طريق النظر على الناظر البحاث ، ولا حول ولا قوة الا بالله العلى العظيم » .

والشيخ حسن العطار ــ نافث هذه الشكوى ــ قد كان مثلا للعالم المثقف بثقافة عصره قبل نحو القرن ونصف القرن . ولد بالقاهرة سنة ١١٩٠ وتوفى بها سنة ١٢٥٠ هجرية (١٧٧٦ ــ ١٨٣٥ م) وشهد حملة نابليون وعاشر علماءها واستفاد من زيارة معاملها ، وعاش زمنا فى دمشق وزمنا فى أشقودرة بالبلاد الألبانية ، واجتهد لنفسه فى تحصيل المعارف الحديثة فدرس الطبيعة والفلك والهندسة والمنطق وطرفا من علم الميكانيكا الذى كان يسمى بعلم الحيل ، وألف الرسائل فى العمل بالاسطرلاب ، والربعين المقنطر والمجيب والبسائط ، وأدمن الاطلاع على كتب الأدب فنظم الشعر وأجاد كتابة الرسائل ، وأسند اليه تحرير الوقائع المصرية عند انشائها لاشتهاره بجودة الأسلوب والتمكن من صناعة القلم مع حسن الاطلاع على المعارف الحديثة وحسن الفهم للعلاقة بين قواعدها النظرية ونتائجها العملية فى المخترعات وعجائب الفنون ، ثم تولى مشيخة الجامع الأزهر بعد أن قارب الخامسة والخمسين فبقى فيها الى سنة وفاته .

***

ولقد تولى هذا العالم الفاضل مشيخة الجامع الأزهر وهو ــ كما نرى ــ لا تعوزه الغيرة على العلم الحديث ولا الرغبة

في تعميمه واجتذاب العقول الناشئة اليه ، ولكنه كان ، رحمه الله ، رجلا من رجال الفطنة والكياسة ولم يكن على غرار ذوى البأس الصارم والعزيمة الغلابة من أولئك المصلحين النوادر الذين يناط بهم افتتاح العهود وهدم العوائق الراسخة فى سبيل الإصلاح ، ولا سيما الاصلاح الذى يعارضه أعداؤه باسم الدين ويعتصمون منه بالحصون المنيعة من العادات المتأصلة والمصالح المتأشبة وصغائر الغرور والادعاء ووجاهة المظاهر والألقاب ، ونحسبه — لو كان من أولئك المصلحين النوادر — لما تسنى له فى مدى السنوات القلائل التى تولى فيها مشيخة الجامع أن يقوم بعمل ذى بال لتجديد نظام التعليم واتمام العدة اللازمة لابتداء ذلك النظام ، فان العزيمة الغلابة لا تكفى وحدها للغلبة على معارضة الشيوخ واعراض الطلاب وتبديل مصالح هؤلاء وهؤلاء فى النظام القديم بمصالح مثلها أو أكبر منها تعوض عنها العلماء المعارضين والطلاب المعرضين . وقد تكفى عزيمة الشيخ للابتداء فى العمل ، ان لم تكف للتقدم البعيد فى طريقه ، لو أنه وجد من ولاة الأمر معونة صادقة تفعل بالسلطان ما لا يفعله البرهان ، ولكن ولاة الأمر فى عهده كانوا يؤثرون سكوت العلماء عنهم على اثارتهم بالشكوى والاتهام من أجل عمل يغضبهم ولا يرضى أحدا غيرهم ، وليس هو — بعد — من الأعمال الذى تلجئهم الضرورة العاجلة اليه .

على أننا قد نبالغ فى تهوين أثر القدوة الحية اذا خطر لنا أن نفثة المصدور ذهبت فى الهواء ، فانها نفثة عالم كبير يسمعها

منه العاقل والغافل ويقرآها فى كتبه مئات الطلاب من مريديه ومريدى غيره من العلماء الموافقين والمعارضين ، وتأتى فى اوانها الذى مهدت له الحوادث وتهيأت له النفوس المتطلعة والآمال المتوثبة ، فهى من طلائع الجو الذى يتفتح له الأفق وان لم يمتلىء به لأول وهلة ، وعلى هذه السنة من سنن التجديد تبتدىء طلائع الأجواء فى جميع الآفاق .

ثم تعمل الضرورة الواقعة عملها غير مدفوعة بحيل المحتالين وتعلات الكسالى المتعنتين . فقد نفث الشيخ نفثته فى مفتتح القرن التاسع عشر والمدارس الحديثة تتوالى عاما اثر عام ، بين مدرسة للهندسة ومدرسة للطب ، ومدرسة للألسن ومدرسة للعلوم الطبيعية ، ويتوالى معها بناء المعامل لصناعات السلم والحرب ، ويختار لها الطلاب والمحترفون من أبناء الأزهر الناشئين ، كما تختار منهم البعوث الى البلاد الأوربية فيقضون فيها الأعوام المعدودة ويعودون الى مناصب الرئاسة أو مناصب الأستاذية ، ويصعدون من تلك المناصب الى أرفع مراتب الدولة وتتهيأ لهم وسائل التنفيذ التى لم تكن مهيأة لشيخهم فى منصبه ، فلم يمض جيل واحد حتى كان فى القاهرة من تلاميذ العلوم الحديثة حزب كبير يفهم ما ينبغى عمله للمضى بالنهضة العلمية فى سبيلها ويملك من الرأى والمشورة المسموعة ما يعينه على خصومها ...

ويتفق أن يكون أكبر دعاة هذه النهضة تلميذا للشيخ العطار اختاره للسفر الى الغرب ونصح له قبل سفره « أن ينبه

على ما يقع فى هذه السفرة ، وعلى ما يراه وما يصادفه من الأمور الغريبة والأشياء العجيبة ، وأن يقيده ليكون نافعا فى كشف القناع عن محيا تلك البقاع » .

ذلك التلميذ الناجح هو نابغة جيله (رفاعة بدوى رافع الطهطاوى) رحمه الله ، وهو القائل فى فضل العلوم الحديثة ، بعد أن نبه بغاية ما يستطاع من الصراحة فى ذلك الزمن الى اهمال محمد على الكبير لتعميم تلك العلوم فى الجامع الأزهر : « ... ولو أنه أعلا منار الوطن ورقاه لم يستطع الى الآن أن يعمم أنوار هذه المعارف المتنوعة بالجامع الأزهر الأنور ، ولم يجذب طلابه الى تكميل عقولهم بالعلوم الحكمية التى كبير نفعها فى الوطن ليس ينكر ، نعم ان لهم اليد البيضاء فى اتقان الأحكام الشرعية العملية والاعتقادية وما يجب من العلوم الآلية كعلوم العربية الاثنى عشر ، وكالمنطق والوضع وآداب البحث والمقولات وعلم الأصول المعتبر ، ولمثل هذا فليعمل العاملون وفى ذلك فليتنافس المتنافسون ، غير أن هذا وحده لا يفى للوطن بقضاء الوطر ، والكامل يقبل الكمال كما هو متعارف عند أهل النظر ، ومدار سلوك جادة الرشاد والاصابة ، منوط بعد ولى الأمر بهذه العصابة ، التى ينبغى أن تضيف الى ما يجب عليها من نشر السنة الشريفة ، ورفع أعلام الشريعة المنيفة ، معرفة سائر المعارف البشرية المدنية ، التى لها مدخل فى تقدم الوطنية ، من كل ما يحمد على تعلمه وتعليمه علماء الأمة المحمدية . فانه بانضمامه الى علوم الشريعة والأحكام يكون

والمفهوم ، لمحمد بن ساعد الأنصارى ، وهى كتاب يشتمل على سبعة وسبعين علما : أولها علم الحرف وآخرها علم الطلاسم ؛ ورسالة للاسرائيلى ، ورسالة للسيد الطحان ، كلاهما فى علم الطالع ، ورسالة للخازن فى علم المواليد ، أعنى الممالك الطبيعية . وهى الحيوانات والنباتات والمعادن . وأخذت عن شيخنا الشيخ حسام الدين الهندى شرح الهداية فى علم الحكمة ومتن الجغمينى فى علم الهيئة بمراجعة قاضى زادة ومطالعة السيد عليه ، وأخذت عن سيدى أحمد الشرفى شيخ المغاربة بالجامع الأزهر كتاب اللمعة فى تقويم الكواكب السبعة ...

« ولما ذكر ما تلقاه من هذه العلوم أعقبه بما طالعه بنفسه بدون الأخذ عن شيخ . فقال : طالعت كتاب احياء الفؤاد بمعرفة خواص الاعداد فى علم الأرثماتيقى فى نحو كراسين ، وكتاب عين الحياة فى علم استنباط المياه ، فى نحو كراسين ، والرسالة فى الكلام اليسير فى علاج البواسير فى نحو كراسين ، ورسالة التصريح بخلاصة القول الصريح فى علم التشريح فى نحو كراسين ، ومنها كتاب اتحاف البرية بمعرفة الأمور الضرورية فى علم الطب فى نحو خمسة كراريس ، ومنها رسالة القول الأقرب فى علاج لسع العقرب فى نحو كراس ، ومنها منهج السلوك فى نصيحة الملوك فى نحو عشرة كراريس ، ومنها كتاب بلوغ الأرب فى أسماء سلاطين العجم والعرب ، معنونا باسم السلطان مصطفى خان ابن السلطان أحمد خان المولود فى رابع عشر شهر صفر سنة تسع وعشرين ومائة وألف يوم الأربعاء

أول النهار فى الساعة الأولى بعد الشمس ، الجالس على سرير الملك فى سابع عشر شهر صفر الخير سنة احدى وسبعين ومائة وألف ، يوم الأحـد قبل الشمس . انتهى كلامه ، ملخصا بتصرف .

« وانظر الى هذا الامام الذى كان شيخ مشايخ الجامع الأزهر ، وكان له فى العلوم الطبية والرياضية وعلم الهيئة الحظ الأوفر ، مما تلقاه عن أشياخه الأعلام فضلا عن كون أشياخه كانوا أزهرية ، ولم يفتهم الوقوف على حقائق هـذه العلوم النافعة فى الوطنية ، وفضل العلامة الجبرتى المتوفى فى أثناء هذا القرن فى هـذه العلوم وفى فن التـاريخ أمر معلوم ، وكذلك العلامة الشيخ عثمان الوردانى الفلكى ، وكان للمرحوم العلامة الشيخ حسن العطار شيخ الأزهر أيضـا مشاركة فى كثير من هـذه العلوم ، حتى فى العلوم الجغرافية ، فقد وجدت بخطه هوامش جليلة على كتاب تقويم البلدان لاسماعيل أبى الفداء سلطان حماة المشهور أيضا بالملك المؤيد ، وللشـيخ المذكور هوامش أيضـا وجدتها بأكثر التواريخ وعلى طبقات الأطباء وغيرها ، وكان يطلع دائمـا على الكتب المعـربة من تواريخ وغيرها ، وكان له ولوع شديد بسـائر المعارف البشرية ، مع غاية الديانة والصيانة ، وله بعض تأليف فى الطب وغيره زيادة عن تآليفه المشهورة ... فلو تشبث من الآن فصاعدا نجباء أهل العلم الأزهريين بالعـلوم العصرية التى جددها الخديو الأكرم بمصر بانفاقه عليها أوفر أموال مملكته لفازوا بدرجة الكمال

واتنظموا فى سلك الأقدمين من فحول الرجال . وربما يتعللون بالاحتياج الى مساعدة الحكومة ، والحال أن الحكومة انما تساعد من يلوح عليه علامات الرغبة والغيرة والاجتهاد . فعمل كل من الطرفين متوقف على عمل الآخر ، وترجع المسألة دوريه ، والجواب عنها أن الحكومة قد ساعدت بتسهيل الوسائط والوسائل ليغتنم فرصة ذلك كل طالب وسائل ، وكل من سار على الدرب وصل ، وانما تكون المكافأة على تمام العمل .. فهذا ما يتعلق بطبقة العلماء ، وقد ذكرنا ما يتعلق بالعلم فى الفصل الأول من الباب الأول من هذا الكتاب مبسوطا بما فيه الكفاية ».

***

وهذا الفصل من كتاب « مناهج الألباب » يعتبر وثيقة « رسمية » من أهم الوثائق فى تاريخ التعليم بالجامع الأزهر ، لأنه يشتمل على ثبت صحيح بأسماء المؤلفات الكثيرة التى كانت تؤلف فى علوم الطب والرياضة والطبيعة وغيرها من العلوم التى تسمى بالعلوم الكونية تمييزا لها من العلوم الالهية أو الشرعية ، ويشتمل كذلك على أسماء مؤلفيها والعلماء الذين يدرسونها وطريقتهم فى تحصيلها ، اما بالقراءة على أصحابها أو بالمطالعة فى مراجعها ، ومن هذا الثبت الصحيح يتبين لنا أنها كانت تحيط بصفوة المعارف البشرية كما عرفها الناس الى نهاية العصور الوسطى فى بداية القرن السابع عشر ، وأنها كانت دراسات « موسوعية » جامعية من طراز مناهجها فى أنحاء العالم كله على عهدها .

ويدل هذا الفصل على موقف الحكومة يومئذ من مسألة التعليم بالجامع الأزهر ، فانها كانت على موقف الحذر من تقرير علوم تدرس فيه بغير طلب من أهله ، هيبة لعلمائه وخوفا من تهمة المساس بالدين والاجتراء على سنن السلف ومجاراة البدع المستحدثة : بدع الفرنجة أو بدع الفلاسفة كما قال الشيخ العطار بألسنتهم حين تتلى عليهم مسألة من مسائل المعرفة لم ترد فى كتاب من كتب المتأخرين . وكأنما كان النابغة الأزهرى — رفاعة — يلوح لشيوخ العلماء بالخطة التى يسلكونها اذا ترقبوا من الحكومة أن تغير مسلكها « فان الحكومة انما تساعد من يلوح عليه علامات الرغبة والغيرة والاجتهاد . فعمل كل من الطرفين متوقف على عمل الآخر ، وترجع المسألة دورية ... » ان لم يبدأ علماء الأزهر من قبلهم بمسلك جديد .

وقد دل رفاعة بما كتبه عن مسألة التعليم الأزهرى على صراحة الرائد المجدد وحصافته فى وقت واحد ، فكان صريحا فى تنبيهه الى اهمال محمد على الكبير لتلك المسألة ، وكان صريحا فى تنبيهه العلماء الى موضع تقصيرهم أو موضع مشاركتهم فى تبعة ذلك الاهمال ، وكان حصيفا فى عنايته بسرد أسماء العلوم والمؤلفات التى سبق اليها العلماء الأسبقون ، فانه — ولا شك — قد فطن للوجهة التى اتجه اليها تيار الفكر الحديث فى البلاد وكشفت عن الموطن الحساس الذى لمسته هذه المسألة من جانب العاطفة القومية ، فمنذ الحملة الفرنسية وقعت الصدمة فى ذلك الجانب من العاطفة القومية موقعين

متناقضين متلازمين : موقع اليقين بغلبة القوم وفيه من دواعى الوجوم والانكسار ما فيه : وموقف العزاء بسبق الشرق الى تلك العلوم والايمان بأنها عند القوم عارية مستعارة نستردها لنقول لأنفسنا وللعالم انها بضاعتنا ردت الينا ، وفى ذلك من تجديد الثقة ما فيه .

ورفاعة فى دعوته نجباء الأزهر الى العلم العصرى باسم السلف انما تسلم هذه العاطفة من حيث تركها رواد الفكر الحديث ، ولعله تعمد أن يسوق الكلام فيها بذلك الأسلوب التقليدى المسجوع ليدخل فى روع قرائه أن الكاتب العصرى لا يعجز عن مثل ذلك الأسلوب ، أو أنه لا ينقضه ولا يخلعه عن قلمه ، لأن المعرفة العصرية لا تنقطع بكاتبها عن ماضيه .

ولم يتمكن رفاعة من تقرير النظام الذى كان يؤثره لتعليم طلاب الأزهر ، لأنه أبعد الى السودان فى أخريات أيامه لتنظيم التعليم فيه ، وتوفى سنة ١٨٧١ والأزهريون لا يتحفزون لتلك الخطوة التى كان ينتظر منهم أن يخطوها تشجيعا للحكومة على استخدام سلطانها فى تقرير نظامه اعتمادا على دعوة أهله ، ولكن شيخ الجامع لعهده ــ الشيخ مصطفى العروسى ــ خطا فى داخل الأزهر خطوة حسنة بالرقابة على علمائه وطلابه وانتقاء الصالحين منهم للتعليم والتعلم ومتابعة الدرس فى العلوم التى يتطلبها العمل الجديد فى دواوين القضاء ومدارس الحكومة العصرية ، وأهمها علوم الحديث والتفسير والأصول والتوحيد والفقه والنحو والصرف والمعانى والبيان والبديع والمنطق ، ثم جاء

خليفته الشيخ محمد المهدى العباسى فأسس نظام الامتحان لشهادة العالمية على نظامها الحديث بعد استئذان الحكومة لاعتبار هذه الشهادة فى ولاية الوظائف العامة غير التدريس بالجامعة الأزهرية ، وجعل هذه الشهادة على درجات : أولى وثانية وثالثة ، على حسب اجابة الطالب وطبقة الكتب التى يجرى الامتحان فى مادتها .

***

على هذه الحالة كان الجامع الأزهر حين وصل الشاب محمد عبده الى القاهرة لينتظم فى سلك طلابه :

المفروض فيه بحكم الشهرة الموروثة أنه جامعة عالمية تزود طلابها بكل ما وسعته العقول البشرية من معارف الماضى والحاضر وعلوم الدين والدنيا .

والحقيقة الواقعة أن دروسه يومئذ كانت مقصورة على قشور من علوم الفقه واللغة يتلقاها الطالب عن أستاذه ويعول فى تحصيلها على حفظ الذاكرة وقلما يطالبه أحد من أساتذته أو يطالب هو نفسه بوعيها والتصرف فى لفظها ومعناها .

وكان التعلم والتعليم كلاهما فوضى مهملة لا رقابة عليها لأحد ، فلما دعا الأمر الى اختيار طائفة من خريجى الأزهر لوظائف القضاء والتعليم رسمت لهم شروط الامتحان ودرجات الاجازة على مثال الشهادات المدرسية التى كانت ترشح الحاصلين عليها من خريجى المدارس العصرية لوظائف الدولة .

وقد كان الراغبون فى تغيير هذه الحالة غير قليلين ، ولكنهم كانوا لايملكون سلطة التغيير ، أو يملكونها ويؤثرون أن يتمهلوا حتى يجىء طلب التغيير من أهله ، تجنبا لاثارة الشبهات بابتداع البدع واتباع دعاة الزندقة — أو الفرنجة — فى أمر المعهد الأكبر من معاهد الدين .

محلة نصر

ولد أستاذنا الامام بحصة شبشير من قرى اقليم الغربية ، ولكنه نشأ بقرية « محلة نصر » من قرى مركز شبراخيت باقليم البحيرة ، حيث نشأ والده ولشأت أسرته من قبله .

وقرية « محلة نصر » هذه احدى القرى الصغيرة فى أقاليم الريف ، ولكنها — على صغرها — كانت من تلك القرى التى يصح أن يقال فيها انها موصولة التاريخ بتاريخ القطر كله ، ذات كيان اجتماعى مكين ، تتمثل فيه أحداث العهود ويحس أهله فيه طوارىء الزمن من عهد الى عهد ، بل من ولاية الى ولاية ، لأنهم يعيشون فى ظل كيان غير منقطع عن مجرى الحوادث الكبرى فى الاقليم ، وفيما حول الاقليم من ميادين الحياة فى أنحاء البلاد .

ولا يخطرن لنا أن هذا شأن عام مشترك بين جميع القرى فى هذه الأنحاء ، فان من هذه القرى ما يبلغ من عزلته أن يتغير الوالى فى القطر كله ولا يدركون تغيره بعمل ظاهر فى القرية ، بل منها ما يعم الوباء وينتشر بين أقاليم شتى ولا يصل اليها ، لقيام العلاقة بينها وبين ما حولها على المعاملات البعيدة ، وقد تكون منها معاملات « حولية » تعود مع المواسم والمحاصيل ، ولا تخرج من نطاقها المحدود بقية أيام الحول .

أما هذه القرية الصغيرة فى اقليم البحيرة ــ محلة نصر ــ فكانت من تلك القرى الممتازة بدوام اتصالها بالحياة الاجتماعية والحياة السياسية فى سائر أنحاء البلاد ، وتاريخها فى خلال القرن الذى ولد فيه الأستاذ الامام شاهد على هذه الصلة الدائمة بينها وبين كل حادث خطير من الحوادث القهرية التى سجلت لنا أدوار التاريخ فى الوطن المصرى بحذافيره .

مارست العيش فى ظل نظام الاقطاع ، وسميت باسم محلة « نصر » لأنها كانت اقطاعا لرجل بهذا الاسم لم يبق من تاريخه ما يعرف غير هذه النسبة .

ولما نشأت أنظمة « التفاتيش » الزراعية التى خلفت عهد الاقطاع كان أكبر هذه التفاتيش من أملاك الخديو اسماعيل على مقربة منها ، او على علاقة بأهلها ، والى جوار هذا التفتيش بمركز السنطة هاجر أبو الأستاذ وعمه ، وكان معهم ــ كما قال الأستاذ فى تاريخه ــ قدر من المال يسمح لهم باستئجار أطيان يعملون فيها بأيديهم ومعونة شركائهم ، فاشتهر والده بين أهلها « بالفتوة والبراعة فى الصيد بالسلاح فأحبه لذلك مصطفى افندى المنشاوى ومحمد أخوه ، وكانا موظفين فى دائرة اسماعيل باشا الخديو : أولهما فى وظيفة مفتش زراعة والثانى فى وظيفة ناظر ، وطابت له صحبتهما فعدوه كأنه واحد من أهلها ، ودام ذلك مدة سنين » .

وقد كان أهل محلة نصر يشعرون بتقلب الأحوال بين وال ووال من أبناء الأسرة الخديوية ، فاعتقل بعض أهلها فى زمن

عباس الأول ثم أفرج عنهم فى عهد خلفه محمد سعيد ، ومنهم والده وبعض رؤساء أسرة المنشاوى ، لاتهامهم بحمل السلاح وإيواء بعض المطلوبين للخدمة العسكرية ، فى أشد أيام النقمة عليها .

ولم تنج المحلة الصغيرة من وباء الطاعون الذى فتك بكثير من سكان القطر فى منتصف القرن التاسع عشر ، فمات به جده « حسن خير الله » عن ولدين هما أبوه وعمه .

وكان للقرية مقامها الدينى ، أو كان هذا المقام هو نواتها الذى التفت به سائر مساكنها ، وذلك أن أجداد محمد عبده كانوا يسكنون الخيام مدة من الزمن ، ثم اتفق أن اتصل بهم شيخ يسمى عبد الملك لا يعرف نسبه ، وكان معتقدا ينسبون اليه الكرامات ، فاتخذ له خلوة يتعبد فيها بالمحل الذى قامت عليه بعد ذلك محلة نصر ، ثم توفى فنهض جدهم — وكان من بيت الشيخ — ببنـاء قبة جعلوا لهم مسـاكن من حـولها ، وانضمت اليها بيوت كثيرة تألفت القرية من مجموعها بعد فترة وجيزة .

ولم تخل القرية من « قوتها الحيوية » التى أسلفنا فى الكلام على القرية المصرية أنها كانت عدة الريفيين فى مقـاومة سلطان الطغاة الكبار ومقاومة أعوانهم من الطغاة الصـغار أصحاب الاقطاع أو أصحاب الالتزام . اذ كان هؤلاء الطغاة أعجز من أن يسوقوا الزارعين جميعا بعصـا الاكراه ، ولم يكن لهم بد

فى قرى الريف ونسمع من يسميه تارة بسبر البلد أو سبر العائلة ، قبل أن تسرى على الألسنة كلمة التقاليد العائلية أو كلمة العرف الاجتماعى ، وكان هذا « السبر » ولا يزال أقوى سلطانا بين أهل البلد من سلطان الحكم والشريعة فى كثير من الأحوال ...

ومن الأخبار القليلة التى رويت لنا عن محلة نصر نعلم أنها — على صغرها — قرية ذات أسر مسماة وبيوت منسوبة ، وأن أسرة التركمانى من أسرها الثلاث المعدودة كان لها بيت كبير فيها بغير باب تعيش فيه أكثر من « عائلة » واحدة من عائلات الأسرة الكبيرة . وترك الدار الكبيرة بغير باب فى الريف علامة فى وقت واحد على الكرم المقصود والجوار المرهوب ، فلا تقام السدود فى وجه الضيف الغريب ولا يجترىء المعتدى على اقتحام الدار على كره من أهلها ، وتلك هى آية الكرم والمنعة فى كل عرف وكل بيئة ، فليس للبيت مكانة وراء مكانة الموئل الذى لا يغلق ولا يستباح .

ويروى الأستاذ الامام من ذكريات طفولته أنه كان قبل أن يدرك معنى الكرم والمنعة يرى أن الكبراء من زوار القرية ينزلون فى بيته ضيوفا على أبيه ولا يذهبون الى بيت العمدة وهو أغنى من أبيه وأقرب الى مقام الرئاسة فى الحكومة ، وكان أبوه يأكل مع الضيوف ولا يأكل مع أهله فى الدار ، فاذا خلا البيت من الضيوف تناول طعامه وحده على حكم هذه العادة ، فكان الطفل الصغير يضيف هذا الانفراد الى سمت الوقار الذى

يرعاه لأبيه ، ويحسبه أكبر رجل فى الدنيا ، لأنه لا يعرف من الدنيـا غير محلة نصر وما جاورها من شـبيهاتها فى الاقليم المحدود .

وكل أنباء القرية تروى لنا عن هذه الأسرة أنها كانت تنشأ على الفروسية وتحمل السلاح وتتعرض للشبهة والمطاردة ، بل للسجن والمصادرة من جراء هذه الخصلة المتأصلة فيها ، ومن أنباء الأسرة فى جيلين قريبين نعلم أنها لم تكن قط تستكين الى المقام فى موطنها على كره ومهانة ... فلا يزال البـارزون من أبنائها بين مقام مرضى فى ديارهم أو ايثار للهجرة والاغتراب ، ان لم يقعدهم عنها السجن والاعتقال .

ولا ينبئنا صاحب الترجمة بأصل هـذه النسبة ـ نسبة التركمانى ـ التى اشتهر بها بيته وسمع « المزاحين » من أهل البلدة يلقبونه بها وهو لا يفقه معناها ، ولكنه سأل عنها كما نسأل عنها اليوم فقال له والده : « ان نسبنا ينتهى الى جد تركمانى جاء من بلاده فى جماعة من أهله وسكنوا فى الخيام مدة من الزمن » ..

ويلفت النظر فى هذه الرواية أن اللقب كان مما سمعه الطفل الصغير من « المزاحين » فى القرية ولم يسمعه من أبيه ولا أحد من ذوى قرابته ، فليس هو باللقب الذى تتحدث به الأسرة وتدعيه لنفسها مفاخرة به كما كان يفعل بعض المنتسبين الى غير هذا البلد فى عهود الطغيان الأجنبى ، بل لعـله كان مما يقال على سبيل المغايظة والاستثارة للأطفال الصغار ، فاذا جاء اللقب

بغير دعوى فقد يكون له مرجع من التاريخ نهتدى اليه من مراجعة أخبار التركمان فى هذه البلاد ، منذ كانت لهم أخبار مترددة بهذا الاسم فى التاريخ الحديث .

فاذا قدرنا أن بيت التركمانى عرف بهذا الاسم قبل وفود عبد اللطيف البغدادى الى محلة نصر بنحو خمسين سنة ، فقد مضى عليه فى مصر نحو ثمانية قرون ، وهى مدة كافية لاعراقه فى هذا الوطن بالنسبة الى الوافدين اليه من أبناء الأمم التى اختارته لسكناها بعد زوال الدولة الرومانية ، على تفاوت فى الأزمنة من فتح العرب الى أيام المماليك .

ويرد ذكر التركمان كثيرا فى أخبار القرون الأولى من تلك الفترة ، فيقول المقريزى وقد ذكر أنه أدرك عهد الظاهر برقوق : « ان جيوش الدولة التركية كانت بديار مصر على قسمين : منهم من هو بحضرة السلطان ومنهم من هو فى أقطار المملكة وبلادها وسكان بادية كالعرب والتركمان ، وجندها مختلط من أتراك وچركس وروم وأكراد وتركمان ، وغالبهم من المماليك المبتاعين ، وهم طبقات : أكابرهم من له امرة مائة فارس وتقدمة ألف فارس » .

ومن هذا السياق العابر نعلم أن التركمان كانوا بين فرق الجيش ، وانهم لم يكونوا من المماليك المبتاعين لأنهم كانوا سكان خيام ولم تجر العادة بشراء الأسرة بخيامها من أهل البادية ، ويوافق هذا الخبر ما رواه صاحب الترجمة عن أبيه

من سكنى أجدادهم فى الخيام قبل انتقالهم الى البيوت حول مقام الشيخ « عبد الملك » الذى سبقت الاشارة اليه ، ولابد أن يكون هذا قد حدث قبل عهد الظاهر برقوق .

ونحن اذن بين فرضين : أحدهما أن هذا اللقب المتواتر قد لقبت به الأسرة عدة قرون بغير معنى ولغير سبب ، والفرض الآخر أن الاتفاق بين التسمية وبين المذكور من سكناها الخيام ومن نشأتها على الفروسية وحمل السلاح لم يكن بعض عوارض المصادفة أو الاختلاق ، بل كان بقية منقولة بين التذكر والنسيان ، يجوز لنا أن نفهم منها أن جداً قديما للأسرة وفد الى مصر قبل نحو ثمانية قرون واختار المقام فى اقليم البحيرة لموافقته فى ذلك العهد على الخصوص لسكنى البادية ، ويرجح أن مقدم هذا الجد الى مصر كان على أيام صلاح الدين لأنه كان يستكثر من جنود الأكراد وجيرانهم التركمان ، وكان شديد العناية باقليم البحيرة وكل ما جاور ميناء الاسكندرية الى الغرب أو طريق الصحراء الغربية من حيث وفد الفاطميون أسلافه فى حكم مصر ، ولم يزل على حذر من جانب هذا الطريق بعد اسقاط الدولة الفاطمية بعدة سنين ، فلا جرم يختص باقطاعه أقرب الناس اليه وينشر فيه جنده التركمان والأكراد ليقيموا فيه مقام الأهل ويحرسوه حراسة العسكر مع مقامهم فيه .

أما نسب صاحب الترجمة لأمه فجملة ما نعلمه عنه أنها كانت تنسب الى بنى عدى بالصعيد وهم منتسبون الى القبيلة

القرشية قبيلة عمر بن الخطاب كما هو معلوم ، ولكن الأستاذ الامام يقول : « ان ذلك كله روايات متوارثة لا يمكن اقامة الدليل عليها » .

وقد كانت مع أهلها من البيت الذى عرف فى قرية حصة شبشير باسم بيت عثمان الكبير ، وتزوج منها والده أثناء هجرته الى اقليم الغربية ، واسمها « جنينة » بنت عثمان ، ويصفها ولدها الأمين فيقول : « انها كانت ترحم المساكين وتعطف على الضعفاء ، وتعد ذلك مجدا وطاعة لله وحمدا » .. ويقول : ان منزلتها بين نساء القرية لم تكن تقل عن منزلة أبيه بين رجالها .

والذى نراه أن انتساب هذه الأم الى بنى عـدى باقليم أسيوط ، وانتساب بنى عدى الى القبيلة القرشية المعروفة ، أمر لا داعية للشك فيه ، لأن هجرة القبائل القرشية الى اقليمى المنيا وأسيوط خبر من أخبار الفتح العربى المتواترة ، ولزوم هـذا الاسم للقبيلة المعروفة به عند منفلوط لا يتسلسل مع الزمن اختلاقا بغير سند أصيل ، وقد ينتسب رجل أو امرأة الى احدى القبائل دعيا فيها بغير سند ، ولكن انتساب قرية كاملة الى القبيلة أمر نحسب أن تكذيبه أصعب من تصديقه ، ولا موجب لتكذيبه على أية حال بغير دليل .

وانما تحتاج الرواية الى دليـل راجح اذا ارتفعت النسبة الى رجل معلوم ، اذ لا يلزم من صحة النسب الى قبيلة عمر ابن الخطاب أن يكون العدوى المنسوب من ذريته ، ولا يثبت

ذلك الا بسلسلة النسب المحدود ومتابعة أخبار الأبناء والأجداد ما بين الموطن الأول فى الحجاز وموطن فروعه فى هذه الديار .

***

على أن الأخبار المتقدمة جميعا لا تتناقض فى اختلافها ولا تتباعد كثيرا فى جوهـــرها . فكلها تنتهى الى نتيجة واحـــدة لا غرابة فيها ، وهى ان هـــذا المصلح الغيور قد أنبتـــته قرية موصولة بالتاريخ ترشحه لرسالته التاريخية ، وغذته أسرة أبية تورثه ما قد ورث عنها من عزة وعزيمة .

محمد بن عبده بن حسن خير الله

نشأ الطفل « محمـد عبده » فى بيت من بيوت القـرية المتوسطة ، لا يحسب من أفقرها لأن الفقير فى القرية الصغيرة لا يقتنى الخيل ولا يفرغ لرياضة الفروسية وما اليها ، ولا يملك من موارد الكسب ما يعيـنه على فتح بيته للضـيافة وايواء الضيوف من علية الزائرين فى نظر أبناء القرية .

ولا يحسب من أغناها ، لأن القرية كان فيها من هو أغنى من أرباب ذلك البيت ولم تكن من السعة بحيث يتسع زمامها كما يقول أبناء الريف لبيوت كثيرة من أصحاب الثراء ، وعدة سكانها فى أيام نشأة الطفل الصغير لم تزد على ألف نسمة عند نهاية القـرن التاسع عشر ، كما جاء فى احصاء سـنة ١٨٩٧ ميلادية .

والمعلوم من شأن هذا البيت فى تلك الفترة أن أبناءه كانوا يزرعون أرضهم بأيديهم ويستأجرون معها أرضا من ملك غيرهم يتعاونون على زرعها مع جيرانهم ، ويكفل لهم ما عرف عنهم من الجد والاستقامة وصـلابة العود أن يزيدوا موردهم بين عام وآخر فى حدود طاقتهم ، فقد بلغ ما ملكوه من الأرض عند نشوب الثورة العرابية نحو أربعين فدانا فى خبر رواه الدكتور

عثمان أمين عن صحيفة انجليزية ، ولم نطلع على مرجع آخر يحدده بهذا المقدار ، ولكنه لا يجاوز حده المعقول اذا نظرنا الى الأسرة التى كان يعولها والد الطفل الصغير على حالة بعيدة من حالة الفاقة والاضطرار .

ونحن نعــرف أفرادا من تلك الأسرة قليلين ممن وردت أسماؤهم فى تراجم الأستاذ الامام أثناء حياته وبعد مماته .

فمنهم جده حسن خير الله ، وعمه بهنس حسن خير الله ، وابن عمه ابراهيم ، وأخواه من أبيه على ومحروس ، وأختاه شقيقتاه : زمزم ومريم ، وأخوه من أمه مجاهد ، لأن أباه تزوج من أمه وهى أيم تقيم مع أبيها عثمان الكبير بقرية حصة شبشير على مقربة من طنطا ، وهؤلاء غير أفراد أسرته من أخوال أبيه أو أخواله فى غير المحــلة ، وكلهم من رجال الأسرة عملوا فى الزراعة ولم يعرف لهم عمل من أعمال كسب المعيشة فى غيرها .

ويتقاضانا البحث عن كل ما له دلالة خاصة من شأن هذه الأسرة أن نلتفت الى « سبرها » أو عادتها فى التسمية . فانها تختار الأسماء لمعانيها ومناسباتها ، فاذا اختارت اسماً من غير أسماء الأنبياء وأعلام الصحابة لم يكن هذا الاختيار جزافا لغير معنى مقصــود . فمن أسمائهم محمد وابراهيم وعلى وحسن وعثمان وحمودة ، ومنها بهنس ودرويش ومجاهد ومحروس . ومعنى بهنس أنه يمشى مشية الأسد أو مشية الفارس المتبهنس ، وهو اسم ينم على عراقة فى حب الفروسية بين أجيال هــذه الأسرة ، ودرويش لم تكن من الأسماء التى تطلق على المولودين

حيثما اتفق ، لأن صاحبه كان من أهـل التصوف وكانت له رحـلات الى شيوخ الطـريق فى المغرب كرحلات السـياح المتنسكين ، وقد سماه به والد اسـمه « خضر » وهو اسم الامام الذى نعلم من القـرآن الكريم أنه كان يجوب الآفاق ويعلم موسى عليه السلام معرفة أهل الباطن وأسرار الشريعة الخفية .. واسم محروس غير عجيب أن يكون مقصودا بمعناه من حراسة الله فى بيت مرزأ مضطهد ، قد ابتلى العشرات من أبنـائه بالنفى والسجن والمصـادرة ، وقضى منهم من قضى بالطاعون ، ومن بقى بعده لم يزل بين خصومه الألداء عرضة للوشاية والخراب . واسم مجاهد ظاهر الدلالة على حب العمل فى سـبيل الله ، وتظهر العاطفة الدينية فى تسمية البنات باسم زمزم ومريم ، فانها تسمية أناس مشتغلين بأمر الدين . واسم عبده مضافا الى الضمير الذى ينوب عن جميع الأسماء الحسنى معناه أن المتسمى به « عبده » هو سبحانه وتعالى وليس بعبد أحد من خلقه . وقد يطلق هذا الاسم بغير نظر الى هذا المعنى ، ولكنه اذا أطلق على المولود فى زمن يسام فيه أهله الذل والعنت ويرفعون فيه الرأس بالتحدى والمناجزة فليس هو من الأسماء التى تطلق جزافا ولا تراد لمعنى ، وكذلك اسم خـير الله كبير الأسرة : انه خير الخالق وليس بخير أحد سواه ، وأصغر أبناء الأسرة « حمودة » هو اسم محمد للتحبيب ، سمى به لأن له أخا أكبر منه يسمى محمدا وينادى أخوه الأصغر باسم حمودة ، كأنه ينادى باسم محمد الصغير .

ونحن نلتفت الى هذه العـادة فى التسمية ونرجح القصد فيها لأنها مناسبة لحالة الأسرة غير منقطعة عن معانيها كما تنقطع معانى الأسماء فى كثير من الأسر التى تجرى فى اختيار الأسماء لأبنائها وبناتهـا مجرى التقليـد الذى تتساوى فيه ظروفها وظروف غيرها . فاذا صح ما ذهبنا اليه فهو آية أخرى من آيات الاستقلال بالرأى فى هـذا البيت . وعادة من عادات أناس يريدون لأنفسهم ولا يراد لهم فيما يعنيهم من شئون الآباء والأبناء .

واسم صاحب الترجمة « محمد » هو الاسم الذى يقترن باسم أبيه فيساوق لفظ التحية الاسلامية كلما ذكر النبى « محمد عبده » ورسوله .

فمحمد عبده اسم للوليـد وذكرى محبوبة لنبى الاسلام عليه السلام .

وأغلب الظـن أن « محمـداً » نذر من يوم مولده لطلب العلم ، لأنه ولد بجوار مدينة طنطا فى أواخر سنة ١٢٦٥ هجرية أو أوائل السنة التى تليها ، وهو موعد من السنة يحتفل فيه باحياء ليلة جامعة يشهدها المريدون من أنحاء الاقليم وتتلى فيها سور القرآن الكريم يرتلها أشهر القراء بالمسجد الأحمدى ، وهو مشهور منذ بنائه بعلوم القرآن حفظا وتجويدا وتفسيرا ، وله فى كل ليلة من ليالى الأسبوع مقرأة باسم أحد المحسنين من أصحاب الوقوف عليه ، ومن عادة قرائه الكبار أن يجلسوا بعد صلاة الجمعة ، أو بين العشائين ، كل ليلة من ليالى المقارىء

لاستماع سور القرآن من المبتدئين بحفظه وتجويد تلاوته ، وهم الذين يخلفون كبار القراء بعد اتمام الحفظ واحكام التلاوة والالمـام بما يتيسر لهم فى سنهم من تفسـير آيات الفـرائض والعبادات .

فاذا كان الوالد المغترب قد شهد بالمسجد ليلة الختام وشهد معها تسابق الفتية الصغار الى تجويد القراءة والاستعداد لطلب العلم بمعهده الذى كان يسمى بالأزهر الصـغير ، أو الأزهر الثانى ، فليس أقرب الى الذهن من أن يخطر له أن ينذر وليده فى هذا الجوار لمثل هذه الكرامة ، وهو على ما طبع عليه من التدين والتطلع الى عظائم الأمور ، ولم يكن لابن القرية يومئذ من مستقبل أعظم من مستقبل العالم الذى يقود الأمة فى شئون الدين والدنيا ، ويحاسب ولاة الأمر على ظلم أهل القرى ، وهو فى اغترابه لا ينسى ذلك الظلم ولا يتمنى لولده مقاما أكبر من مقام ذلك الحسيب المهيب .

***

لذلك بقى الطفل الصـغير بعد عودة أبيه الى محلة نصر معفى من تكاليف العمل فى الحقـل مع أخويه وذوى قرباه ، وتعلم الكتابة والقـراءة فى منزل والده ، ثم وكل الى حافظ معتقد لتحفيظه القرآن ، ثم أرسل فى سن طلب العلم الى طنطا لتلقى علومه تمهيدا للترقى منه الى الجامعة الأزهرية ، ولم يقبل منه أبوه عذرا للتخلف عن المسجد بعد تزويجه المبكر فى نحو

السادسة عشرة ، ولعله حسب أن احجامه عن متابعة الدرس كان عرضا من أعراض سن المراهقة ، وانه مع ذكائه الذى ظهر منه فى تعلم الكتابة وحفظه للقرآن فى نحو سنتين خليق أن يعدل عن المعاندة فى طلب العلم الذى نذره له منذ ولادته ، وتفصيل ما بعد ذلك من مراحل تعليمه مبسوط فى سيرته التى كتبها بقلمه ، ننقله بنصه ولا نرى لنا مرجعا أولى بالاعتماد عليه وأوفى منه فى بابه ، وهذا ما كتبه بعنوان نشأتى وتربيتى من تلك السيرة التى نشرت بعد وفاته . قال رضوان الله عليه :

« تعلمت القراءة والكتابة فى منزل والدى ، ثم انتقلت الى دار حافظ قرآن قرأت عليه وحدى جميع القرآن أول مرة ، ثم أعدت القراءة حتى أتممت حفظه جميعه فى مدة سنتين ، أدركنى فى ثانيتهما صبيان من أهل القرية جاءوا من مكتب آخر ليقرأوا القرآن عند هذا الحافظ ، ظنا منهما أن نجاحى فى حفظ القرآن كان من أثر اهتمام الحافظ . وبعد ذلك حملنى والدى الى طنطا ، حيث كان أخى لأبى الشيخ مجاهد رحمه الله ، لأجود القرآن فى المسجد الأحمدى لشهرة قرائه بفنون التجويد ، وكان ذلك فى سنة ١٢٧٩ هجرية .

« وفى سنة مائتين واحدى وثمانين هجرية جلست فى دروس العلم وبدأت بتلقى شرح الكفراوى على الأجرومية فى المسجد الأحمدى بطنطا ، وقضيت سنة ونصفا لا أفهم شيئا لرداءة طريقة التعليم ، فان المدرسين كانوا يفاجئوننا باصطلاحات نحوية أو فقهية لا نفهمها ، ولا عناية لهم بتفهيم معانيها لمن لم

يعرفها فأدركني اليأس من النجاح وهربت من الدروس ، واختفيت عند أخوالي مدة ثلاثة أشهر ، ثم عثر علي أخي فأخذني الى المسجد الأحمدي ، وأراد اكراهي على طلب العلم ، ولم يبق علي الا أن أعود الى بلدي وأشتغل بملاحظة الزراعة كما يشتغل الكثير من أقاربي : وانتهى الجدال بتغلبي عليه ، فأخذت ما كان لي من ثياب ومتاع ، ورجعت الى محلة نصر على نية ألا أعود الى طلب العلم ، وتزوجت في سنة ١٢٨٢ على هذه النية .

« فهذا أول أثر وجدت في نفسي من طريقة التعليم في طنطا وهي بعينها طريقته في الأزهر .. وهو الأثر الذي يجده خمسة وتسعون في المائة ممن لا يساعدهم القدر بصحبة من لا يلتزمون هذه السبيل في التعليم .. سبيل القاء المعلم مايعرفه أو مالا يعرفه بدون أن يراعي المتعلم ودرجة استعداده للفهم ، غير أن الأغلب من الطلبة الذين لا يفهمون تغشهم أنفسهم فيظنون أنهم فهموا شيئا فيستمرون على الطلب الى أن يبلغوا سن الرجال ، وهم في أحلام الأطفال ، ثم يبتلى بهم الناس وتصاب بهم العامة ، فتعظم بهم الرزية لأنهم يزيدون الجاهل جهالة ، ويضللون من توجد عنده داعية الاسترشاد ، ويؤذون بدعاويهم من يكون على شيء من العلم ، ويحولون بينه وبين نفع الناس بعمله .

عودة الى طلب العلم

« بعد أن تزوجت بأربعين يوما ، جاءلى والدى صحوة نهار وألزمنى بالذهاب الى طنطا لطلب العلم .. وبعد احتجاج وتمنع واباء ، لم أجد مندوحة عن اطاعة الأمر ، ووجدت فرسا أحضره فركبته ، وأصحبنى والدى بأحد أقاربى .. وكان قوى البنية شديد البأس ، ليشيعنى الى محطة (ايتاى البارود) التى أركب منها قطار السكة الحديدية الى طنطا .

« كان اليوم شديد الحر ، والريح عاصفة ملتهبة ، تخصب الوجه بشبه الرمضاء .. فلم أستطع الاستمرار فى السير فقلت لصاحبى : أما مداومة المسير فلا طاقة لى بها مع هذه الحرارة ، ولا بد من التعريج على قرية أنتظر فيها حتى يخف الحر .. فأبى على ذلك فتركته ، وأجريت الفرس هاربا من مشادته ، وقلت انى ذاهب الى (كنيسة أورين) بلدة غالب سكانها من خئولة أبى . وقد فرح بى شبان القرية لأننى كنت معروفابالفروسية واللعب بالسلاح وأملوا أن أقيم معهم مدة يلهو فيها كل منا بصاحبه .. أدركنى صاحبى وبقى معى الى العصر ، وأرادنى على السفر فقلت له خذ الفرس وارجع وسأذهب صباح الغد وان شئت قلت لوالدى اننى سافرت الى طنطا .. فانصرف وأخبر ما أخبر ، وبقيت فى هذه القرية خمسة عشر يوما تحولت فيها حالتى ، وبدلت فيها رغبة غير رغبتى .

مع الشيخ درويش

« ذلك أن أحد أخوال أبي ، واسمه الشيخ درويش سبقت له أسفار الى صحراء ليبيا .. ووصل فى أسفاره الى طرابلس الغرب ، وجلس الى السيد محمد المدنى والد الشيخ ظافر المشهور الذى كان قد سكن الاستانة وتوفى بها وتعلم عنده شيئا من العلم ، وأخذ عنه الطريقة الشاذلية ، وكان يحفظ « الموطأ » وبعض كتب الحديث ويجيد حفظ القرآن وفهمه ، ثم رجع من أسفاره الى قريته هذه ، واشتغل بما يشتغل به الناس من فلاحة الأرض وكسب الرزق بالزراعة .

« جاءنى هذا الشيخ صبيحة الليلة التى بتها فى الكنيسة ، وبيده كتاب يحتوى على رسالة كتبها السيد محمد المدنى الى بعض مريديه بالأطراف بخط مغربى دقيق ، وسألنى أن أقرأ له فيها شيئا لضعف بصره .. فدفعت طلبه بشدة ولعنت القراءة ومن يشتغل بها ، ونفرت منه أشد النفور ولما وضع الكتاب بين يدى رميته الى بعيد ، ولكن الشيخ تبسم وتجلى فى ألطف مظاهر الحلم ، ولم يزل بى حتى أخذت الكتاب وقرأت منه بضعة أسطر فاندفع يفسر لى معانى ما قرأت بعبارة واضحة تغالب اعراضى فتغلبه وتسبق الى نفسى . وبعد قليل جاء الشبان يدعوننى الى ركوب الخيل واللعب بالسلاح والسباحة فى نهر قريب من القرية ، فرميت الكتاب وانصرفت اليهم .

« بعد العصر جاءنى الشيخ بكتابه ، وألح على فى قراءة شيء

منه ، قرأت ثم تركته الى اللعب ، وفعـل فى اليوم الثانى كما فعل فى الأول . أما اليوم الثالث فقد بقيت أقرأ له فيه ، وهو يشرح لى معانى ما أقرأ نحو ثلاث ساعات لم أمل فيها ، فقال لى انه فى حاجة الى الذهاب الى المزرعة ليعمل فيها فطلبت منه ابقاء الكتاب معى فتركه ، ومضيت أقرأه وكلما مررت بعبارة لم أفهمها وضعت عليها علامة لأسأله عنهـا الى أن جاء وقت الظهر ، وعصيت فى ذلك اليوم كل رغبة فى اللعب ، وكل هوى ينازعنى الى البطالة .. وعصر ذلك اليوم سألته عما لم أفهمه ، فأبان معناه على عادته ، وظهر عليه الفرح بما تجدد عندى من الرغبة فى المطالعة والميل الى الفهم .

مفتاح سعادتى

« كانت هذه الرسائل تحتوى على شىء من معارف الصوفية وكثـير من كلامهم فى آداب النفس وترويضـها على مكارم الأخلاق وتطهيرها من دنس الرذائل وتزهيدها فى الباطل من مظاهر هذه الحياة الدنيا .

« لم يأت على اليوم الخامس الا وقد صار أبغض شىء الى ما كنت أحبه من لعب ولهو ، وفخفخة وزهو ، وعاد أحب شىء الى ما كنت أبغضـه من مطالعة وفهم ، وكرهت صور أولئك الشبان الذين كانوا يدعوننى الى ما كنت أحب ويزهدوننى فى عشرة الشيخ رحمه الله ، فكنت لا أحتمل أن أرى واحدا منهم ، بل أفر من لقائهم جميعا كما يفر السليم من الأجرب .

« وفى اليوم السابع سألت الشيخ : ماهى طريقتكم ؟ فقال : طريقتنا الاسلام ، فقلت : أوليس كل هؤلاء الناس بمسلمين ؟ قال : لو كانوا مسلمين لما رأيتهم يتنازعون على التافه من الأمر ، ولما سمعتهم يحلفون بالله كاذبين بسبب وبغير سبب .

« هذه الكلمات كأنها نار أحرقت جميع ما كان عندى من المتاع القديم .. متاع تلك الدعاوى الباطلة ، والمزاعم الفاسدة ، متاع الغرور بأننا مسلمون ناجون ، وان كنا فى غمرة ساهية .

« سألته : ما وردكم الذى يتلى فى الخلوات أو عقب الصلوات ؟ فقال : لا ورد لنا سوى القرآن ، تقرأ بعد كل صلاة أربعة أرباع مع الفهم والتدبر . قلت : أنى لى أن أفهم القرآن ولم أتعلم شيئا ؟ قال : أقرأ معك ، ويكفيك أن تفهم الجملة وببركتها يفيض الله عليك التفصيل ، واذا خلوت فاذكر الله — على طريقة بينها لى . وأخذت أعمل على ماقال من اليوم الثامن ، فلم تمض على بضعة أيام الا وقد رأيتنى أطير بنفسى فى عالم آخر غير الذى كنت أعهد ، واتسع لى ما كان ضيقا ، وصغر عندى من الدنيا ما كان كبيرا ، وعظم عندى من أمر العرفان والنزوع بالنفس الى جانب القدس ما كان صغيرا ... وتفرقت عنى جميع الهموم ، ولم يبق لى الا هم واحد وهو أن أكون كامل المعرفة كامل أدب النفس ، ولم أجد اماما يرشدنى الى ما وجهت اليه نفسى الا ذلك الشيخ الذى أخرجنى فى بضعة أيام من سجن الجهل الى فضاء المعرفة ، ومن قيود التقليد ، الى اطلاق التوحيد .. هذا هو الأثر الذى وجدته فى نفسى من

صحة أحد أقاربى ، وهو الشيخ درويش خضر من أهل (كنيسة آورين) من مديرية البحيرة . وهو مفتاح سعادتى ان كانت لى سعادة فى هذه الحياة الدنيا ، وهو الذى رد لى ما كان غاب من غريزتى ، وكشف لى ما كان خفى عنى مما أودع فى فطرتى .

« وفى اليوم الخامس عشر ، مر بى أحد سكان بلدتنا (محلة نصر) فأخبرنى أن والدتى ذهبت الى طنطا لترانى ، فعلمت أنها ستقول لوالدى أننى لا أزال فى بلدة الكنيسة ، فأصبحت مبكرا الى طنطا خوف عتاب الوالد واشتداده فى اللوم ، لأننى لو كنت أقمت له ألف دليل على أننى وجدت فى مهربى مطلبه ومطلبى لما اقتنع .

فى ساحة الدرس

« ذهبت الى طنطا ، وكان ذلك قرب آخر السنة الدراسية فى شهر جمادى الآخرة من سنة ١٢٨٢ الهجرية ، فاتفق أن بعض المشايخ كانت ماتت بنته ، فعاقه الحزن عليها من اتمام شرح الزرقانى على العزية ، وآخر عرض له عارض منعه عن اتمام شرح الشيخ خالد على الأجرومية فأدركت كلا منهما فى أوائل الكتاب الذى كان يدرس وجلست فى الدرسين فوجدت نفسى أفهم ما أقرأ وما أسمع والحمد لله . وعرف ذلك منى بعض الطلبة فكانوا يلتفون حولى لأطالع معهم قبل الدرس ما سنتلقاه .

وفى يوم من شهر رجب من تلك السنة ، كنت أطالع بين الطلبة وأقرر لهم معانى شرح الزرقانى ، فرأيت أمامى شخصا يشبه أن يكون من أولئك الذين يسمونهم بالمجاذيب .. فلما رفعت رأسي اليه قال ما معناه : ما أحلى حلوى مصر البيضاء . فقلت له : وأين الحلوى التى معك ؟ فقال : سبحان الله من جد وجد .. ثم انصرف فعددت ذلك القول منه الهاما ساقه الله الى ليحملنى على طلب العلم فى مصر دون طنطا .

« وفى منتصف شوال من تلك السـنة ذهبت الى الأزهر وداومت على طلب العلم على شيوخه مع محافظتى على العزلة والبعد عن الناس حتى كنت أستغفر الله اذا كلمت شخصا كلمة لغير ضرورة .. وفى أواخر كل سنة دراسية ، كنت أذهب الى (محلة نصر) لأقيم بها شهرين من منتصف شعبان الى منتصف شوال وكنت عند وصولى الى البلد أجد خال والدى الشيخ درويشا قد سبقنى اليـه فكان يستمر معى يدارسنى القرآن والعلم الى يوم سفرى وكل سنة كان يسألنى ماذا قرأت ، فأذكر له ما درست فيقول : ما درست المنطق ، ما درست الحساب ، ما درست شيئا من مبادىء الهندسة .. وهكذا كنت أقول له : بعض هذه العلوم غير معروف الدراسة فى الأزهر ، فيقول : طالب العلم لا يعجز عن تحصـيله فى أى مكان .. فكنت اذا رجعت القاهرة ، ألتمس هذه العلوم عند من يعرفها ، فتارة كنت أخطىء فى الطلب ، وأخرى أصيب ، الى أن جاء المرحوم السيد جمال الدين الأفغانى الى مصر أواخر سنة ١٢٨٦ هـ .

« وقد صاحبته من ابتـداء شهر المحرم سنة ١٢٨٧ هـ ، وأخذت أتلقى عنه بعض العلوم الرياضية والحكمية (الفلسفية) والكلامية ، وأدعو الناس الي التلقى عنه كذلك .

« وأخذ مشايخ الأزهر والجمهور من طلبته يتقولون عليه وعلينا الأقاويل ، ويزعمون أن تلقى تلك العلوم قد يفضى الى زعزعة العقائد الصحيحة . وقد يهوى بالنفس فى ضـلالات تحرمها خيرى الدنيـا والآخرة ، فكنت إذا رجعت الى بلدى عرضت ذلك على الشيخ درويش فكان يقول لى : « ان الله هو العليم الحكيم ، ولا علم يفوق علمه وحكمته ، وأن أعدى أعداء العليم هو الجاهل وأعدى أعداء الحكيم هو السفيه ، وما تقرب أحد الى الله بأفضـل من العلم والحكمة ، فلا شيء من العلم بممقوت عند الله ، ولا شيء من الجهل بمحمود لديه الا ما يسميه بعض الناس علما . وليس فى الحقيقة بعلم كالسحر والشعوذة ونحوهما اذا قصد من تحصيلهما الاضرار بالناس » .

محور حياة

صحبنا الفتى الناشئ في مراحل التعليم الى نحو الثانية والعشرين من عمره ، فلو أننا أردنا أن نلتمس لحياته في هذا الدور محورا تدور عليه ، يجتمع لنا في كلمة واحدة ، لما كانت هذه الكلمة أصدق ولا أوفى من كلمة التعليم .

صحبناه الى أول لقاء له بأستاذه العظيم جمال الدين الأفغاني ، وسنصحبه بعد ذلك زدجا من العمر في الصفحات التالية ، ولا نرانا نعرف لحياته المباركة محورا غير ذلك المحور الذي دارت عليه كل أدوار حياته ، على تعدد جوانبها واتساع ميادينها .

بل نحسب أننا لو صحبناه في كل صفحة من الصفحات عنيت بأخباره وآثاره لما ابتعدنا من ذلك المحور المكين ، وان ذهبنا الى غاية الأمد الذي أحاطت به حياته الحافلة بجلائل أعماله ، متعلما ومعلما وعاملا على نشر العلم النافع حيث استطاع ، وقد استطاع ما لم تستطعه العصبة أولو العزم في جيل واحد ، من الثانية والعشرين الى السادسة والخمسين .

اننا نصاحب الطفل محمد عبده كما نصاحب الفتى محمد عبده ، والشيخ محمد عبده ، فلا نراه أبدا الا على مفترق طريقين من طرق التعليم ، أصلحهما هو الذي يختاره له القدر

أو يختاره لنفسه ، منذ تعلم الكتابة فى بيته الى أن فارق دنياه وهو يناضل نضاله الدائم فى سبيل أصلح الثقافتين وألزم التعليمين .

***

كان فى نحو السابعة حين ابتدأ بتعلم الكتابة والقراءة ، فكان فى قريته الصغير أمام طريقتين فى هذه المرحلة الأولى من مراحل التعليم : طريقة السوط والفلقة وصياح العشرات من الصبية بين جدران المكتب العتيق ، وطريقة التعلم فى البيت بين يدى أستاذ واحد من أهله يفهمه ويعنى بتفهيمه ويعز عليه أن يعنّته بالسوط والفلقة وجلبة الصياح فى مكان كالمكان الذى يختار للمكتب فى ذلك الزمن ، فكان من حظه أن يتعلم حروفه الأولى على أفضل الطريقتين .

وارتقى الى المرحلة الثانية من مراحل التعليم فى القرية ، وهى حفظ القرآن ، فلم يتعلمه فى المكتب العتيق مأخوذا بقسوة الضرب والشتم ، مرتاضا على الترديد مع زملاء له يحفظون غير حفظه ويرددون غير ترديده ، ويستعينون بالحركة الآلية على هذا الحفظ الآلى الذى لا يعقله الأستاذ ولا التلاميذ ، بل هو قد حفظ منه ما استطاع أهله أن يعلموه فى البيت ، ثم أسلموه الى الحافظ المعتقد الذى يقرأ الكتاب مع تلميذه الوحيد قراءة بعد قراءة ، قبل أن يأخذه باستظهاره من فاتحته الى ختامه مقروءا أو غير مقروء ، لا فرق بين تعليم الضرير وهو

لا ينظر الى الصفحة وتعليم البصير الذى ينظر الى الكلمات والآيات فيدرك جهده من الادراك معنى الانتقال من آية الى آية ، ويستعيده للفهم جهده قبل أن يستعيده للحفظ والاستظهار ... فكان فى هذه أيضا مجدودا موفقا الى أمثل الطريقتين ، وفضله فى مثل هذه السن أنه وافق هذه الطريقة باستعداده للمضى فيها الى غايتها ، ولم ينفر منها كما نفر من التعليم ــ وهو أكبر من ذلك سنا ــ لأنه تعليم معيب .

***

ثم ألفى نفسه مترددا عند مفترق الطريقين أيضا على فجوة أوسع من كل فجوة مرت به منذ اختبر التعليم فى البيت أو عند حافظ القرآن .

ألفى نفسه على مفترق الطريقين بين دروس المسجد الأحمدى يوم ذاك ودروس قريبه الصوفى الحكيم الشيخ درويش بكنيسة أورين .

ألفى نفسه بين طريقة الأذن والذاكرة ، وطريقة الذهن والوجدان :

فى الطريقة الأولى يبتدىء المعلم بتدريس النحو لجمع من التلاميذ الذين يجهلون كل شىء عنه ، فيلقى عليهم فى أول درس ومن أول صفحة اعراب : بسم الله الرحمن الرحيم ، ويحدثهم عن حرف الجر وعن الاسم المجرور وعن المضاف والمضاف اليه وعن النعت ومطابقة الوصف للموصوف ، كأنهم

قد فرغوا من دروس العربية كلها قبل أن يقرأوا البسملة على بابها الأول .. فمن وعى ما سمع فقد أدركته بركة العلم والمسجد ، ومن لم يع شيئا مما سمع فذلك عندهم مطموس محجوب عن البركة والفائدة .

وهذه هى الطريقة التى سميناها بطريقة الأذن والذاكرة ، لأن أساتذتها يخاطبون فى تلميذهم أذنا تسمع الكلمات وذاكرة تثبتها كما هى وتعيدها كما سمعتها ، ولا يعنيهم منه بعد ذلك أن يكون له ذهن يفهم ويتصرف فيما يفهم ، أو وجدان يستضىء بنور المعرفة المفهومة ويستلذ الشعور بما وعاه منها .

وقد عاف الفتى الناشىء هذه الطريقة ولم يستطع أن يغالط نفسه فى حقيقتها .

وانما يفعل ذلك أحد اثنين من الطلاب : طالب مغلق الذهن عن كل معرفة مفهومة أو غير مفهومة ، فهو عاجز عن الاستماع الى ما يفهم وما لا يفهم مما يلقى على أذنيه ، فلا يلبث بعد معالجة الحفظ والمراجعة زمنا أن يسلم الأمر تسليم اليائس لأنه من أولئك المطموسين الذين « لم يفتح عليهم » وليس لهم من العلم نصيب مقدور .

والطالب الآخر الذى يزهد فى تلك الطريقة ولا يغالط نفسه فى حقيقتها هو صاحب الذهن الذى يتطلب الفهم والوجدان الذى يلمح النور اذا رآه . فان لم يجدهما فى ساحة الدرس لم يبال أن يتركه لما هو أقدر عليه من شواغل حياته ، وبخاصة حين تكون هذه الشواغل رياضة كرياضة الفروسية

تبستريح اليها كل نفس حيـــة وكل طبع سليم ، وعملا كعمل الزراعه يقوى عليه صاحب الجد فى العمل وصاحب البنية التى تحتمل الجهد ولا تعييها المشقة .

ولعمرى ان من بواكير العظمة المستقلة فى هذا الفتى الناشىء أن يركن الى عقله فى الحكم على هذه الطريقة بالعقم ولا يستسهل قبل ذلك أن يتهم عقله وأن يصنع ما صنع الألوف من قبله فى مثل بدايته ، فانهم كانوا يكبرون أن يعيبوا هذا التعليم وهو محفوف بتلك الهالة المرهوبة التى تحف باسم المعهد الأحمدى وأسماء العلماء الذين يجلسون للتعليم فيه ، ومن اسم السيد البدوى تستمد تلك الطريقة هيبتها وهو ثاو فى ضريحه براء منها ، وانه كما قال الشـــيخ مصطفى عبد الرازق فى ترجمته للأستاذ الامام : « أشهر أولياء القطر المصرى ، وصيته وكراماته ذائعة فى أنحاء وادى النيل ، وللناس فيه اعتقاد ، ولزائريه من صور التوسل والزلفى ما لا يخلو من اسراف » .

ولا شك أن الشيخ « عبده حسن خير الله » قد تلقاها خيبة أمل مرة فى وليده المنذور للعلم والرئاسة الدينية الدنيوية ، ولولا رجاء الأب الذى يأبى أن تزعزعه صدمة أو صدمتان لما عاود الكرة على الفتى المتمرد ولا حال بينه وبين البقاء فى القرية كما أراد ، ولكنه لو كشف له حجاب الغيب لعلم أنه يشاهد من فتاه الصغير أنضر بواكير العقل المستقل والعارضـــة القوية التى صار بها الطالب « الخائب » أستاذ الشرق الناهض بعـــد ســـنين .

اما الطريقة الأخرى ، طريقة العقل والوجدان ، فلم يكن بينه وبينها غير اشارة لطيفة من أستاذه الفلاح البسيط درويش خضر ، وغير كتـاب مخطوط يلقى بين يديه ليقرأه ويستقل بفهمه ويسأل عما يغمض عليه من كلماته ، ان شاء .

فلم تكن لهـذه الطريقة مهابة المعهد الكبير أو الأساتذة الكبراء ، ولم يكن لذلك الكتاب اسم يروع بالتواتر والتقليد ، أو شكل يعجب بصنيع الطبع والتجليد ، ولكنه كان بصفحاته المشوشه المبعثرة ، وخطه الساذج الممسوح ، كافيا لاجتذاب الطالب المتمرد على العلم وانصرافه عن لهو الفتوة فى ملاعب الخيـل وحلبات السـباق ، لأنه خاطب منـه الذهن المتفتح والوجدان المتطلع الى النور .

ولسنا نعلم اليوم شيئا عما احتوته تلك الصفحات المخطوطة الا أنها نخبة من حكم الصوفية وجوامع النوادر والأمثال .

ولكننا نستطيع أن نعلم عن تلك « الصوفية » أنها شىء غير الجذب والتواكل وغير الكسل والزهد فى أعمال المعيشة ، لأن أستاذه الذى هداه الى ذلك الكتاب كان فلاحا يعمل فى الزراعة ، وكان يحضه على تعلم الحساب والهندسـة والمنطق وعلوم الحياة ، وينهاه عن العزلة واجتناب الناس ، ولو كانوا على غير ما يرضاه من خلق وسـيرة ، لأنهم بذلك أحوج الى الهدايه ومصاحبة العقلاء .

ولا يخلو مذهب صوفى قط من التفرقة بين الظاهر والباطن وبين شواغل الجسد وشواغل الروح ، ولكن هذه التفرقة قد

تتباعد بالفوارق كما يتباعد النقيضـان ، وقد تتباعد بها كما يتباعد اللباب والقشور . ومثل هذه الصوفية هى التى نعقلها من مزاج رجل كالشيخ محمد عبده له بنية الفلاح السليم ونشاط الرياضى المقدام وثقة العقل المستقل وهمة الكفاح الذى يأبى أن يستكين لمغالبة الأحداث ، أو مغالبة الخصوم .

وفى الأسرة كلها على ما يظهر نفحة من هذه الصوفية العاملة التى تؤمن بحقيقة لهذه الدنيا وراء قشـورها الظاهرة ، فمن أجداد محمد عبده أولئك الفلاحون الذين أقاموا مسـاكنهم حول ضريح « عبد الملك » وقامت المحلة كلها ـ من ثم ـ على أساس ذلك الضريح .

ومن خئولة أبيه الشيخ « خضر » الذى تدل تسميته على هذه النزعة فى أبيه ، ومنهم الشيخ « درويش بن خضر » الذى وضع بين يدى تلميذه ذلك الكتاب وهو لا ينسى أن يحثه على العمل والعلم فى كل لقاء ، ومنهم أبوه «عبده» وأخوه «مجاهد» فيما تخلقا به من خلق وما عرفنا عنهما من غيرة على العلم ، مع اشتغالهما بالفلاحة وكفاح الحياة ، وهـذه الطبائع التى تهديها الفطرة السليمة الى الايمان بشىء وراء القشـور وسر وراء الكلمات ، قد تهديها هذه الفطرة السليمة بعينها الى العصمة من أكاذيب الأدعياء وأباطيل اللصقاء بالصـوفية ، لأن طبيعة العمل والجد فى فطرتهم تأبى عليهم أن ينخدعوا بما ينخدع به الكسالى الذين ينفرون من الجد الصادق بمقدار ارتياحهم الى الأوهام الباطلة ، ويرحبون بما يحبب اليهم التواكل والاستنامة

الى أحلام اليقظة وتعلات الغرور بمقدار اعراضهم عن الواقع الصادع والبرهان الدامغ ، ان كان وراءهما جهد واجتهاد .

وغاية ما تسيغه الفطرة السليمة من استطلاع الأسرار أن تتفاءل بها لتمضى فى عملها ، ولكنها لا تتفاءل أو تتشاءم منها لتعرض عن العمل أو تركن الى الكسل ، وكذلك كانت فطرة هذه الأسرة فى « صوفيتها » البريئة ، فاننا سمعنا عن عقائدهم فى الأولياء وأبناء الطريق ، ولكننا لم نسمع عن واحد منهم ساقه اعتقاده الى اهمال حقله أو القاء فأسه والتخلى عن كفاحه للعيش ، أو كفاحه للخصوم .

***

ومن هذا التفاؤل اصغاء الطالب المتبرم بدروس المعهد الى الكلمة التى لوح بها من قال عنه : « انه يشبه أن يكون من أولئك الذين يسمونهم بالمجاذيب » ... وقد سمعها منه يوم كان يحدث نفسه بالانتقال من طنطا الى القاهرة ، عسى أن يجد فى الأزهر الأول ما لم يجده فى الأزهر الثانى أو الأزهر الصغير .

ولم يلبث أن أقام بالقاهرة أياماً حتى ألفى نفسه فى الأزهر كما ألفى نفسه من قبل مرة بعد مرة على مفترق الطريقين : طريق الأذن والذاكرة ، وطريق الذهن والوجدان ، وقد سميتا يومئذ بين طلاب العلوم الدينية بطريقة التقليد وطريقة التجديد .

وحسبنا من تلخيص واف لصلابة المقلدين على جمودهم أن نعلم أن رئيسهم عليشاً خرج يسعى بخنجره الى مجلس الشيخ السنوسى ليقتله لأنه كتب فى مؤلف له أنه يجتهد بعلمه فى فهم الشريعة من كتاب الله ، غير متقيد بما كتبه الفقهاء من المتأخرين أو المتقدمين ، ولولا سفر الشيخ السنوسى من القاهرة لما برح الشيخ يتعقبه حيث كان ليقضى عليه .

وقد كانت لأنصار التجديد مدرسة مستقلة يقصدها من يريدها وقلما يبحث عنها من كان يطلب العلم على من يفتتحون كتاب النحو باعراب البسملة ، ويختمون الكتب كلها بخاتم الذاكرة . فبحث الطالب الأزهرى الغريب عن أساتذته المختارين من علماء التجديد ، وحضر على عالمين جليلين من أشهرهم وأقدرهم هما الشيخ حسن الطويل والشيخ محمد البسيونى ، وكلاهما من تلاميذ الشيخ حسن رضوان الذى تفرغ لحكمة التصوف بعد أن استوفى حظه من العلوم العقلية والشرعية ، ثم يئس من الدرس والتدريس فى الجامع الكبير فتركه ليلحق بأستاذه الذى كان يلقى دروسه فى غير حلقاته ، ونظم وهو يودع حلقاته أرجوزة يقول فيها عن جماعة المقلدين :

لو كان هذا وصفهم ما شنعوا
بل وقتهم فى « جاء زيد » ضيعوا

ظنوا بأن العلم علم القول لا
والله بل علم القلوب فضلا

وعلم القلوب هذا هو العلم الذى ميزه الطالب الناشىء فى قريته وجاء الى العاصمة الكبرى ينشده فيجده على تلك الحال : امامه العارف بفضله يبحث عن تمامه بعيدا من حلقات الجامع ، وخليفتاه النابغتان بعده يقنعان من درســه وتدريسه بالجانب المأمون من خنجر الشيخ عليش !.

قال صاحب المنار نقلا عن الأستاذ الامام :

« ... كان الشيخ حسن الطويل ممتــازا فى الأزهر بعلم المنطق وحضره عليه ولم يكن يشفى ما فى نفســه ، بل كانت تتشوف دائما الى علم غير موجــود ، فكان يبحث فى خزائن الكتب الأزهرية عن طلبته المجهولة فيظفر ببعض الشىء . ومما ظفر به كتاب القطب على الشمسية ناقصا » .

قال : « وقرأ الشيخ حسن الطويل لهم شيئا من الفلسفة ولكن لم يكن يجزم بأن المعنى كذا ، بل كان الدرس احتمالات أو شبهات الحــذر فيما بينها ، حتى جاء السيد جمال الدين فسكنت اليه نفسه من اضطرابها ووجدت عنده جميع طلبتها وأقصى أمنيتها .. » .

أهو مفترق الطريق مرة أخرى ؟

نعم ، ولكنه فى هذه المرة مفترق طريق فى مدرسة واحدة : مدرسة علم القلوب والعقول . وبديهة التلمــيذ الصادقة هى هاديه الأمين الى أقوم الطريقين وأفضــل الغايتين ، بين تعليم الشيخ حسن الطويل ، وتعليم السيد جمال الدين .

وانما افترق التعليمان هنا بين طريق النظريات وطريق العمليات .

وكلاهما يخاطب الذهن والوجدان ، ولكن النظريات لا تذهب بعيدا وراء الفهم والمناقشة ، ولا تستريح النفوس المطبوعة على الحركة زمنا طويلا الى بحث من بحوث الذهن قصاراه ترجيح نظرية على نظرية وتوضيح شبهة واردة أو تصحيح غلطة خفية ، لأنها تفهم لتعرف كيف تعمل ، وتهتدى لتسلك الى الغاية التى تتحراها ولا تستريح الى السكون دونها .

وغير هذه الطريق : طريق النظريات ، كانت طريق جمال الدين الى «العمليات » التى تعيش مع صاحبها فى معترك الحياة ، وتعقب لها أثرا فى نفسه وفيما يحيط به من أحوال قومه ، وخلاصة الفارق بين الطريقتين هى خلاصة الفارق بين صاحب درس وصاحب رسالة ، وقد يلتقيان ولكنهما لا يتساويان .

***

وبعد ، فاننا فى صفحات هذه السيرة لا نتوخى ترتيبا يقيدنا بترتيب أرقام السنين فى التقويم ، لأننا نتكلم عن نفحة من نفحات الحياة العالية بأوصافها وملامحها ، ولا نتكلم عن نبذة من الزمن بترتيب حوادثه وأرقامه . فمكان الحادث من هذه السيرة هو مكانه فى موضع الدلالة على جوانب تلك الشخصية

الحية ، ولا سيما جوانبها البارزة التى تنتظم من مبدأ العمر الى نهايته ، وأولها وأهمها هذا الجانب الذى نراه على الدوام كأنه يوحد بين مسألة التعليم ومسألة العمر كله فى سيرة هذا المصلح العظيم الذى سمى بحق بالأستاذ الامام .

ولهذا تتناول فى هذا الفصل جملة من الحوادث التى تتابعت بعد لقاء الطالب محمد عبده بأستاذه جمال الدين ، ومنه ما كان الخلاف فيه بين التلميذ والأستاذ بعد ملازمة السنوات الطوال .

***

تولى التحرير فى الصحف فكان مدار مقالاته التى كتبها فيها جميعا على الدعوة الى التعليم ، والتميز بين التعليم النافع والتعليم العقيم الذى أدرك عقمه بالتجـربة بعد التجربة من بواكير صباه .

ولم تمض سنوات بعد أول لقاء له بالسيد جمال الدين حتى جاشت البـلاد بقلاقل الثورة الأولى ، وكان الطالب الذى تخرج يومئذ من معهده للتدريس يلقى دروسه ويكتب مقالاته ويشارك زعماء الثورة فيوافقهم على أمور ويخالفهم على غيرها ، ومن أهم ما خالفهم عليه أن يهتموا بتعليم الأمة لتوكل اليها حقوقها وهى أمينة عليها ، فان ما يمنحه سلطان الحاكم بأمره يسلبه سلطان الحاكم بأمره « وانمـا علينا ــ كما قال للزعيم عرابى ــ أن نهتم الآن بالتربية والتعليم بعض سنين ، وأن نحمل الحكومة على العدل بما نستطيع ، وأن نبدأ بترغيبها فى استشارة

الأهالى فى بعض مجالس خاصة بالمديريات والمحافظات ، ويكون ذلك كله تمهيدا لما يراد من تقييد الحكومة ، وليس من المصلحة أن نفاجىء البلاد بأمر قبل أن نستعد له ، فيكون من قبيل تسليم المال للناشىء قبل بلوغ سن الرشد ، فيفسد المال ويفضى الى الهلكة » .

وانتهت الثورة العرابية بنفيه الى بيروت فكان عمله فيها التعليم بالمدرسة السلطانية ومحاضرة الطلاب والمريدين فى منزله وفى المساجد المشهورة ، وكان الأستاذ الشرتونى صاحب المعجم الكبير المسمى بأقرب الموارد يقول عن دروسه هناك : انه يتكلم فيخرج النور من فيه .

وأذن له بالعودة الى مصر فلم يفارق بيروت الا بعد أن أودع آراءه فى اصلاح الأمة الاسلامية بالتعليم والتربية فى رسالتين أو « لائحتين » أرسل احداهما الى شيخ الاسلام بالآستانة ، وأرسل الثانية الى والى بيروت ليشرح فيها ما اهتدى اليه أثناء مقامه من وسائل اصلاح البلاد من طريق التعليم والتربية .

وقد اتبع أستاذه جمال الدين فى حملات الاصلاح من طريق السياسة وعلى أيدى الأمراء والملوك الذين توسما فيهم صدق الرغبة فى استجابة الدعوة ، فلما بلغا بهذه الحملات المتداركة غاية مطافها ، عاد التلميذ يراجع أستاذه فيما هو أقوم وأجدى ، وقال له كما روى صاحب المنار :

« أرى أن نترك السياسة ونذهب الى مجهل من مجاهل

الأرض لايعرفنا فيه أحد ، لنختار من أهله عشرة غلمان أو أكثر من الأذكياء السليمى الفطـرة ، فنربيهم على منهجنا ، ونوجه وجوههم الى مقصدنا ، فاذا أتيح لكل واحد منهم تربية عشرة آخرين لا تمضى بضع سنين أخرى الا ولدينا مائة قائد من قواد الجهاد فى سبيل الاصلاح ، ومن أمثال هؤلاء يرجى الفلاح » .

قال السيد لتلميذه فى رواية صاحب المنـار : « انما أنت مثبط . نحن قد شرعنا فى العمل ولابد من المضى فيه ، ما دمنا نرى منفذا » .

ولكنه اختلاف الفطرة والاستعداد بين هـذين الامامين العظيمين : أحدهما خلق للتعليم والتهذيب والآخر خلق للدعوة والحركة فى مجال العمل السياسى والثورة « الأممية » . وظل المعلم المهذب على رأيه وعلى فطرته فى انتظار الفرصة الملائمة لأداء رسالته على حسب استعداده .

فلما عاد الى مصر كان فى مرجوه أن يسـند اليه عمل من أعمال التدريس فى معاهده العليا التى لا يعوقه فيها عائق من التقاليد الموروثة عن الانتفاع ببرنامج الثقافة العصرية ، وأقرب هذه المعاهد اليه وأشبهها بعمله وبالرسالة التى أجمع العزم على آدائها هو معهد دار العلوم ، لأنه يجمع بين ثقافة الأزهر وثقافة العصر الحديث .

الا أن ولاة الأمر أوجسوا — على ما يظهر — من اسناد وظيفة التدريس فى دار العـلوم الى رجل مثله فى ايمانه بقوة التعليم واقتداره على بث هـذه القوة فى نفوس الناشئة من

معلمى المستقبل ، ومنهم مئات يتولون تعليم أبناء القطر كله بعد سنوات وينشرون فى أنحائه بذور نهضة متشعبة الأطراف ، هى أخطر على ولاة الأمر من الثورة العرابية التى أخمدوها وخيل اليهم أنهم استراحوا منها .

فأبعدوه عن وظائف التعليم واختاروا له وظيفة القضاء ، وهى وظيفة لوحظ فيها علمه بالشريعة ونزاهته فى الحكم ، وكفايته لتوجيه المحاكم الجديدة الى وجهتها الصالحة فى أوائل نشأتها ، ولكن لم تلاحظ فيها رغبته ولا كفايته للاصلاح من طريق التربية والتعليم ، وكان خليقا أن يقبلها لو أنه نظر الى مستقبله ولم ينظر الى مستقبل رسالته فى الاصلاح ، لأن درجات الارتقاء فيها ممهدة الى أرفعها وأعلاها فى مناصب الدولة ، ولم يكن للمعلم فى ذلك الحين مستقبل أرفع من مستقبل النظارة على مدرسة من المدارس الصغيرة ، لأن نظارة المدارس الثانوية والمدارس العليا كانت موقوفة يومئذ على الانجليز والأجانب ، ولم يكن ناظر المدرسة الابتدائية يرتقى الى درجته الا وهو على باب الاحالة الى المعاش . فلما حيل بينه وبين معاهد التعليم أسف لذلك وأوشك أن يستعفى ولاة الأمر من وظيفته القضائية ، لأنه ــ كما قال ــ جرب عمله فى التعليم وعلم أنه خلق له ولم يخلق « ليقول حكمت على هذا وحكمت لذاك ... » .

***

ان الذى خلق للتعليم يعلم حيث شاء ، ويتعلم ما استطاع .
وقد كان القاضى « محمد عبده » معلما فى أحكامه كما روى عنه الذين شهدوا جلساته ، وسمعوا كلماته التى كان يلقيها على المتهمين وعلى الحاضرين فى الجلسة قبل النطق بحكم الادانة ، وكانت له لازمة اشتهرت عنه بين زوار المحاكم قبل تلاوة الحكم ، زعم بعضهم يومئذ أنها كانت خاصة بالأحكام المشددة ، ونرى فيما نظن أنها من لوازم التأمل ومراجعة الفكر عند كثير من المعممين أو المطربشين ، وهى زحزحة العمامة أو الطربوش الى الأمام بحركة لدنية تنم على الاستغراق فى التفكير ، وكانت تلازم القاضى محمد عبده ، ثم ظلت ملازمة له بعد الانتقال من وظائف القضاء كما سمعت من أصحابه وعشرائه ، ولا نظنها كانت خاصة بالأحكام المشددة دون غيرها ، الا أن يكون تشديد الحكم مستدعيا للأناة والتأمل قبل النطق به مراجعة للفكر وابراء للذمة ، ولا نخالها على أية حال — الا علامة من علامات التفكير واعادة النظر فيما يلقيه من النصائح ويمليه من الأحكام .

وقد نظر فيما يتعلمه لوظيفته فعلم أنه بحاجة الى التوسع فى مبادىء القانون الجنائى الذى تعمل به المحاكم ، لأن القانون المدنى يجرى على أحكام الشريعة فى مسائل المواريث وحقوق المال والمعاملة ، وعلم أن المراجع العربية لهذه القوانين لا تعطيه كفايته من الاحاطة الواجبة بتلك المبادىء فى أصولها المأثورة عند فلاسفة التشريع الغربيين ، فشرع فى تعلم اللغة الفرنسية

وثابر على تعلمها بعد انتقاله من وظائف القضاء ، ولم يسبق له درس هذه اللغة فى غير كتب الهجاء التى ألم بها وهو فى الرابعة والأربعين من عمره ثم شغلته عنها شواغل الثورة العرابية ، فلما عاد الى تعلمها لم يقنع بما وعاه منها للقراءة والفهم ولم تقعده صعوبة الكلام بلفظها الصحيح عن متابعة الدرس فى القاهرة وفى رحلاته الى البلاد الأوربية فحرص على حضـــور دروس العطلة الصيفية بجامعة جنيف أثناء رحلته الى سويسرة ، وكان يعنى على الخصوص باستماع محاضرات العلمـــاء فى الآداب الأوربية وفلسفة التاريخ ، ولم يزل يقرأ ويستمع حتى جاوز فى اللغة مرتبة الفهم والمطالعة الى مرتبة الافهام والكتابة .

قال الدكتور عثمان آمين فى كتابه عن الأستاذ الامام من سلسلة أعلام الاسلام : « لقد أجمع أصحاب الأستاذ الامام وخاصته على أنه أتقن اللغة الفرنساوية تحدثا وقراءة وفهماً على الرغم من قرب عهده بتعلمها . وهذا ما شهد به أخيرا الأستاذ لطفى السيد (باشا) حين ذكر أن الشيخ محمد عبده هو الذى كان يجلو لاخوانه المصريين ما غمض من عبارات الفيلسوف الفرنساوى تين ، فى كتابه المشهور عن الذهن ، ونحن نعلم من جهة أخرى أن الأستاذ الامام قد أملى فى مرض موته فصلا بالفرنساوية نشره المسيو دى جرفيل فى كتابه عن مصر الحديثة بعنوان : وصية سياسية للمرحوم المفتى الشيخ محمد عبده ، كما نعلم أن الشيخ قد ترجم عن الفرنساوية كتاب التربيـــة

للفيلسوف الانجليزى « هربرت سبنسر » ترجمة تدل على تمكنه من تلك اللغة ... » .

***

وتأبى ملكة التعليم اذا تمكنت من صاحبها أن تتوارى ولها مندوحة للبروز فى حركة من حركات ذهنه أو شاغل من شواغل حياته . فقد كان القاضى التلميذ يتلقى دروسه الأولى فى اللغة الفرنسية وكأنه يُعلّم أستاذه فيها كيف يعلمه تلك الدروس وكيف يختار له أوجزها وأنفعها لمثله ، وهداه الهام البديهة الى منهج فى تعليم اللغات للكبار على الخصوص لم يكن معلوما فى ذلك الحين ولم ينتشر قط فى البلاد الغربية أو الشرقية قبل وفاته ، ونعنى به منهج التعليم الذى أطلقوا عليه بعد ذلك اسم المنهج الكلى أو منهج الابتداء بالكلام المجمل والانتهاء الى التفاصيل المتفرعة عليه ، ويؤثر المعلمون على هذا المنهج أن يبدأ قارىء اللغة بقراءة الجملة ثم يتعلم تفسيرها بفهم مفرداتها على حدة ، ثم يلم بقواعدها الضرورية ، أو بأجروميتها ونحوها وصرفها وبلاغتها ، من توضيح موقع الكلمة بالنسبة الى الكلمات الأخرى والى التراكيب التى تحتويها .

جاء المعلم وفى يده كتاب من كتب الأجرومية الأولية ، فقال للمعلم : لا وقت عندى للابتداء من البداية فلنبدأ من حيث ننتهى ، وتناول قصة من قصص «اسكندر دوماس» ليقرأ عبارتها ويستمع تصحيح المعلم لنطقه وتفسيره لمعانيها ... قال :

أما ماعدا ذلك فهو عملى ، والنحو يأتى فى أثناء العمل ، وعلى هــذا المنهج أتم الكتاب وأتبعه بكتابين آخرين ، وتعود بعد الدرس أن يطالع ما قرأه على المعلم منفردا بصــوت مرتفع ، ليسمع نطقه ويتذكر مواضع خطئه وتصحيح معلمه ، واختبر فى نفسه نجاح هذا المنهج فأوصى به من كان يعرفهم من طلاب اللغة الفرنسية ، ومنه استفاد الشاعر « حافظ ابراهيم » فوائد حسنة فى هذا الباب ، كما سمعت منه وهو يحدثنا عن محاولته الأولى لترجمة كتاب « البؤساء » .

***

ومثل هذا التمكن فى ملكة التعليم خليق أن يزيدنا بصرا بطبيعة هذه الملكة حيثما برزت لنا فى أعمال ذوى الاستعداد الفطرى لتعليم الناس أفرادا كانوا أو جماعات ، فضلا عن نفعها لنا فى التبصير بترجمة الأســتاذ الامام ، أو بما سميناه محور حياته وأردنا به ذلك المرجع النفسانى الذى نرجع اليه لنهتدى به الى بواعث نفسه ومقاصد سعيه واجتهاده . ويبدو من بروز هذه الملكة والحاحها على خواطر المستعدين لها وبوادر نفوسهم وأذهانهم أنها عبقرية خاصة من تلك العبقريات الروحية التى تخلق فى الانسان ومعها حافز لا يستريح من حوافز الغيرة على انجاز عملها والحماسة لتحقيق مقاصدها ، وشأنها فى ذلك شأن كل عبقرية موهوبة تطبع على أداء رسالتها فى عالم العقيــدة والايمان أو فى عالم الفن والجمال . فلا يهــدأ صاحب هذه

العبقرية أو يبلغ رسالته ولو صدت الأسماع عنه أو حالت الحوائل القاسرة بينه وبين من يستمع اليه . ومن كان مطبوعا على عبقرية التعليم فليس قصاراه من الافضاء بعلمه أن ينقل طائفة من المعلومات المحفوظة من رأسه الى رءوس غيره : تلك رسالة لا نفحة فيها من الروح ولا مدد لها من السليقة ، وهى أشبه بنقل الصفحات من نسخة الى نسخة تمر بالسمع أو تمر بالفكر — على الأكثر — ولا تسرى منه الى سرائر النفس ولا تتخطاه الى بواعث الحياة ، وهو عمل كعمل المأجور المسخر لارادة غيره ولا ارادة له ولا غيرة عنده ولا اخلاص فى تفهيم ما يلقيه فى آذان مستمعيه ، وسواء عنده عملوا بما يعلمون أو لم يكن لهم عمل قط بعد فراغه من القاء تلك المعلومات وتقاضيه الأجر الذى سخروه له ، كأنه مجبر عليه .

وعلى غير هذا من النقيض الى النقيض يعمل صاحب العبقرية المطبوعة على التعليم ، فانه يعلم ليدفع المتعلمين الى عمل ويستثيرهم الى غاية ، ويبث فى نفوسهم من الحماسة مثل ما انطوى عليه فى أعماق ضميره من الحماسة لعمله وغايته ، ولا مطمع له فى أجر يناله منهم أو من سواهم بل هو يعطى الأجر ويجزله لو استطاع ، وليس بالسائغ فى طبعه أن يتمحل العلل لاعفاء نفسه من عناء عمله اذا توانى المتعلمون على يديه ولم يستجيبوا لدعوته بمثل حميته واخلاصه ، لأنه يحسب استجابتهم غاية له تعنيه قبل أن تعنيهم ، وان كان فيها غاية النفع لأولئك المتعلمين عليه .

***

وأكثر ما يكون هذا الباعث الوجدانى فى نفوس المعلمين المطبوعة خصلة من خصال النخوة الانسانية فى كل ما تمثلت فيه من غوث الضيعف والرثاء للذليل وكراهة الجهل المذل للمبتلين به من ضحايا الغفلة والغباء وصرعى الظلم والخديعة ، ولا يثير هذه النخوة شيء كما تثيرها عزة الظالم الخادع واستكانة الجاهل الغافل ، ولكنها نخوة ترتفع مع ارتفاع الهمم وتقوى مع قوة الطباع ، فلا تقنع بمحاربة الجهل فى واحد وآحاد وهى قادرة على محاربته فى جماعات وأقوام ، ولا تقصر الغوث على الدرس وهى قادرة على غوث للضعيف المفتقر اليه كيفما كان .

وأعمق ما تكون النخوة اذا كانت سجية موروثة تنتقل من الأجداد الى الآباء والأبناء ، كما رأيناها فى أسرة أستاذنا الامام منذ عرفت لهم أعمال ورويت عنهم أخبار .

فهم فى قريتهم الصغيرة كرام يجودون بما عندهم ، ويأبون الضيم لأنفسهم ولمن يلوذ بهم من جيرتهم ، وقد كان أكبر ذنوبهم عند الأقوياء أنهم يأوون اليهم طرداءهم المطلوبين ويشدون أزرهم بمعونة رجالهم وبقوة السلاح اذا وجدوا السلاح الذى ينفعهم فى مقاومتهم ، ومن لم يستطع منهم أن يقاوم القوة بالقوة لم يصبر على الضيم فى بلده ، وآثر أن ينجو منه بكرامته وان ضيع بعده كل تراثه من آبائه ، غير هذا التراث المضنون به على الضياع .

***

قيل ان العبقرى يستنزف من أسرته صــفوة اللباب من خلائقها الحيوية أو ملكاتها الذهنية ، وقيل انه من أجل ذلك قلما ينجب الذرية من العباقرة أمثاله ، وان ذريته لا تزال عرضة لنقص العمر أو نقص التكوين ، وكل ما قيل من هذا القبيل فهو تشبيه على المجاز لا يخلو من المبالغة التى تعــرض لكل تشبيه ، ولكنه كذلك لايخلو من الصحة التى تؤيدها مشاهدات الواقع . ومن هده المشاهدات آن طابع الأسرة المأثور عنها كثيرا ما يتجلى فى عبقــريها مكبرا مهيمنا منبعثا على جادته فى غير هوادة ، وانه فى انبعاثه عصى على الكبح والتوقف دون قبلته التى ينساق اليها ، وكأنما هو غريزة من الغرائز النوعية يخلق للفرد ارادة نوع كامل ، يوشك آلا يملك معه ارادته الفردية فى سبيل بقاء النوع وارتقائه .

وأحرى الخصال أن يورث فى أسرة صاحب الترجمة هو تلك النخوة الانسانية فى كل ما تمثلت فيه ــ كما أسلفنا ــ من غوث الضعيف والرثاء للذليل وكراهة الجهل المذل للمبتذلين به من ضحايا الغفلة والغباء : ورثها نخوة انسان وأصبحت فيه نخوة معلم مطبوع على التعليم ، لأنه لم يملك ســلاحا للنخوة أقوى من تعليم المغلوبين المستضعفين ، ولكنه لم يكن بالبداهة معطل النخوة فيما يملكه من أسبابها غير هذا السلاح الذى كان أنفذ سلاح فى يديه ، لأن أعماله فى اغاثة الملهوفين وانصاف المظلومين كادت أن تكون وحــدها وظيفة حياة عامرة بالمآثر حافلة بالحسنات ، وســيأتى من بيان هذه المــآثر والحسنات

ما يتسع له موضعه من هذا الكتاب ، ولكننا نوجزه اذا قلنا انه لم تسمع فى حياته دعوة الى الغوث والاحسان تنفيسا عن المكروبين فى فواجع هذا البلد أو اعانة للمعوزين من ضعفائه الا كان هو صاحب الدعوة أو كان فى مقدمة الملبين لها والعاملين على نجاحها ودوام أثرها .

وكاتب هذه السطور قد سمع بمحمد عبده نصير المظلوم قبل أن يسمع بمحمد عبده المصلح العظيم .

سمعت فى بلدتى بأقصى الصعيد ، وفى باكورة صباى ، بمأثرة من مآثر هذا القلب الكبير ، لم تكن الا مثلا واحدا من مئات المآثر التى سمعنا بها بعد ذلك حيث نزلنا من أقاليم هذا البلد ، ولا يزال الكثير منه معروفا مرويا فى اقليمه ، وان لم يصل نبأه الى غير أهله .

شغلت بلدتى — أسوان — قضية كبيرة تقلبت بين محاكم الصعيد والعاصمة أكثر من عشر سنوات ، وأوشك الخصم القوى فيها أن يظفر بالحكم الأخير وأن يجرد خصمه الضعيف من حقه ، مستعزا عليه بقوة المال والجاه وسعة الحول والحيلة ، وقد شاعت الاشاعات التى تحققت بعد ذلك عن الرشوة المبذولة ، بألوف الجنيهات ، ثمناً لذلك الحكم الأخير الذى ينقضى به الأمر ولا يقبل المراجعة والاستئناف .

وقبل صدور الحكم بأيام يلتقى الخصم الضعيف بنائب بلدته فى مجلس الشورى ، فيستمع منه لاشاعة الرشوة ويرجحها له بما علمه من توكيد أنصار الخصم القوى ومن قسم مغلظ

أقسمه أمامه أقربهم اليه : ليصدرن الحكم كما أملاه صاحبهم علي ــ فلان باشا ــ وليسمعن نبأه بعد أيام !

وكان نائب البلدة فى مجلس الشورى يعرف الأستاذ الامام من زمالته له فى المجلس ، فاصطحب المسكين الى عين شمس ، وترك صاحب القضية يبسطها للأستاذ الامام بسذاجته التى تنم على الصدق الأليم والحسرة البالغة ، فلم يكد هذا الرجل المثقل بشواغل وطنه الكبار يستمع الى كلمة المظلمة والرشوة حتى اعتذر لضيوفه جميعا وأفرغ من وقته زهاء ساعتين للاصغاء الى قصة هذه القضية منذ نشأت قبل عشرة أعوام ، وترك الرجل يقول ويعيد كما يشاء على ديدن المظلوم الملهوف فى سذاجته وابتهاله واضطراب نفسه بين خوفه وأمله ، فلم يتعجله ولم يقتضب عليه لجاجة شرحه وتكراره ، ولم يدعه تلك الليلة الا على وعد بأن يلقاه عند باب وزارة العدل فى موعد افتتاح الدواوين .

وفى اليوم التالى لم يذهب المفتى الى دار الافتاء ، بل توجه تواً الى دار وزارة العدل وكلف الرئيس المسئول أن يبعث فى طلب « ملف القضية » من المحكمة ، فقضى اليوم يراجع أوراق الملف مراجعة القاضى الخبير بأصالة الأسانيد وأساليب المراوغة وعلامات الغرض والتمحل فى التأجيل والتعجيل ، وأيقن بصدق الدعوى وخطر الحكم المنتظر فيها ، فصنع ما لا يقوى على صنعه غيره ، واستصدر الأمر باسناد رئاسة الدائرة الى قاض آخر لا ترتقى الشبهة الى ذمته وعلمه ، وصدر الحكم

الأخير بالحق الذى يعرفه أهـل البلدة جميعا ، فظل أبناؤها يتحدثون بهذه القضية كما يتحدث المؤمنون بكرامة القديسين ، وكان يوم وفاته رحمه الله مأتماً فى البلدة تبادل فيه الناس العزاء فى المساجد ، ونودى بنعيه على المآذن ، وتقرب فيه المحسنون بالذبائح والصدقات على جوانب الطرقات .

كتب قاسم أمين عن مروءة الأستاذ الامام بأسلوب القاضى الذى تعود أن يزن كلامه كما يزن أحكامه ، فقال فى رثائه يوم الأربعين :

« بلغت فيه طيبة النفس الى درجة تكاد تكون غير محدودة . كان يجذبه الخير كما يجذب المغناطيس الحديد ، فيندفع اليه ويسعى الى كل نفع للغـير عام أو خاص . كان ملجأ الفقراء واليتامى والمظلومين ، والمرفوتين والمصابين بأى مصيبة كانت ، واهل الأزهر الذين هم أكثر الناس احتياجا الى المساعدة لأنهم فى وسط المدنية الحاضرة المتأخرون العاجزون عن الدفاع عن أنفسهم فى ميدان حياتنا الجديدة ، يبذل اليهم ماله ويسعى لهم عند ولاة الأمور بهمة لا تعرف الملل ، كأنما كان يسعى لأعز انسان لديه : يسعى مرة ومرتين وثلاثا الى أن يقضى حاجتهم وهم جميعهم فى نظـره مستحقون ، سـواء كانوا كذلك فى الحقيقة أم لا . بل كان يسعى الى صاحب الحاجة وهو يعلم أنه أساء اليه وقدح فيه وتحالف مع خصـومه فى ترويج عبارات القذف والنميمة التى لم تنقطع عنه يوما مدة حياته . ولا يصل الانسان الى هذا الخلق العظيم الا اذا ربى نفسه على أن تتغلب

على الغرائز القبيحة الملازمة للطبيعة البشرية وصار حاكما عليها يحاسبها على كل عمل أو نزعة أو فكرة أو خاطر مما يرد عليها . كان الأستاذ يرى أن الشر لا فائدة له مطلقا وأن التسامح والعفو عن كل شيء وعن كل شخص هما أحسن ما يعالج به السوء ويفيد فى اصلاح فاعله .. » .

وفى هذا التأبين يقول قاسم : « من يرى أن الحياة لهو وزين له أن يعيش ليأكل ويشرب ويسافر وينتقد أفكار الباحثين وعمل العاملين : أولئك لا يعلمون أن امام مصر كان محركا بقوة فوق الاعتيادية وأن عقله كان ملآنا بالفكر الى حد أنه كان لا يسعه كله ، الى حد أنه كان يفيض منه بالرغم ، وأن قلبه كان ملتهبا بحب وطنه فلايستريح الا وهو مشغول به وبسعادته وبمستقبله وانه كان مثل جميع نوابغ الرجال لا يبالى بالألم الذى يأتيه بسبب أمنيته التى كان يعزها ، بل كان يجد الألم فيها لذيذا كما يلتذ العاشق بما يقاسيه من العذاب فى هوى من يحبه ، وكم من مرة سمعته يؤكد بأنه صمم على أن لا يتدخل فى شيء من هذا القبيل ثم رأيته فى الغد منغمسا فيه أكثر مما كان . ذلك لأنه كان بعكس ما يراه عموم المصريين فى أنفسهم عنده أمل لا يزعزعه شيء فى اصلاح أمته .. » .

يقول قاسم هذا وربما كان هو ــ رحمه الله ــ أحد أصدقائه المشفقين الذين كانوا يكفكفونه أحيانا عن ارهاق نفسه بالجهد والمجاهدة كلما شعروا بحاجته الى الراحة والدعة وأوجسوا خيفة على صحته ، بل على حياته ، من عنت خصومه ومصاعب

الاصلاح فى بيئته ، مع فساد الزمن وغلبة الجهل والهوى على نفوس الغافلين المتهاونين ، فضلا عن المغرضين المتعمدين للاحباط والايذاء ، وهم فى ذلك الزمن وفى تلك البيئة كثيرون .

وسمعت من زعيمين عاصراه وعاشراه كلاما كالذى قاله قاسم فى تأبينه وذكر فيه وعده بالكف عن الجهد فيما يحاول من السعى العقيم والكفاح المعقد المقيم ثم عودته بعد قليل الى مثل ما كان فيه ، بل أشد مما كان فيه ... وأحد الزعيمين كانت له عليه جرأة الصديق الند وهو الزعيم سعد زغلول ، والآخر كان منه بمثابة الأخ الصغير فى بيت يحبه ويرعى له قدره وفضله ، وهو الزعيم محمد محمود ، وكلاهما اشترك معه فى بعض أعمال الاصلاح وأعمال الخير والاحسان ، وكان أولهما يصرفه صرفا عن بعض محاولاته التى كانت ديدنه الشاغل له فى أخريات عمله بوظيفة الافتاء ، فقال له من حوار مطول لا نثبته هنا بتفصيلاته : « أخشى أن يفسدك هؤلاء القوم قبل أن تصلحهم» .... وكان الآخر ــ محمد محمود رحمه الله ــ يعيد عليه قوله مشيرا الى الخديو عباس الثانى : « ان هذا القولى » يريد أن يقتلك ، فلا تمكنه من بغيته ، ويريد بالقولى نسبة الخديو عباس الى قولة موطن جده محمد على الكبير .

وموضع النظر فى كلام قاسم وصاحبيه أن الاصلاح لم يكن فى حياة هذا المصلح الغيور عملا من أعمال الارادة يدبره لنفسه كتدبير المرء لما ينفعه ويريحه أو يعفيه من التعب والمشقة ، ولكنه كان باعثا نفسانيا مستحكما فى ذلك القلب الكبير يغلبه

على ارادته ويخلق له ارادة نوع كامل فى بنية انسان واحد ، وان يكن من أعظم بنى الانسان ... وذلك ما عناه قاسم بشغف العاشق بما يؤلمه ويضنيه وعنيناه بالعبقرية المطبوعة التى تلخصها كلمة « النخوة » وتدل سيرته وسيرة أهله على أنها خليقة موروثة فيه ، وأنها أقوى بواعثه الى رسالة حياته ، وهى رسالة التعليم .

ولنا أن نقول ان النخوة الانسانية فى نطاقها الواسع هى محور هذه الحياة فى نواحيها الكثيرة ، وان رسالة التعليم عنده انما كانت فى صميمها رسالة خلقية قبل أن تتجه الى وجهتها الفكرية ، فلم يكن يعنيه أن يعلم لينقل الى الناس « معلومات » يجهلونها وكفى ، ولكنه كان يتعلّم ليحفز الناس إلى عمل يتوانون عنه ، ويحملهم على خلق يحبب اليهم ذلك العمل ويسعدهم عليه .

***

ولعلنا لم نخطىء اذ بدأنا السيرة كلها بهذا التمهيد عن هذه العبقرية من ناحيتها الخلقية والفكرية ، فانها بمثابة الأساس الذى تقوم عليه حوادث الترجمة منذ بدأ الأستاذ الامام حياته العاملة فى نحو العشرين الى أن فارق الحياة فى نحو السادسة والخمسين ، فأيما حادث تردد فيه رأى المؤرخ وحكم الناقد فانما تقوم أصالته فى هذه الحياة بمقدار ثبوته على ذلك الأساس .

مع جمال الدين

كان لقاء السيد جمال الدين الأفغانى أهم حادث فى تربية الفتى الناشىء محمد عبده ، لأنه رده الى سجيته وأقامه على جادة العلم والعمل التى استقام عليها بعد ذلك طول حياته ، واستقل بها حسب استعداده وفطرته حتى استقل بها آخر الأمر عن طريق أستاذه ، بعد أن فرقتهما الحوادث اضطرارا ووجب أن يعمل كل منهما على جادته ومنهاجه .

كان الفتى الناشىء (محمد عبده) قبل لقاء جمال الدين أشبه شىء بالطائر المغمى عليه قبل امتحان المدربين له فى ضوء النهار للتثبت من سلوك مطاره الى غايته القصوى .

ويقال إن هذا الطائر لا يزال بعد خروجه من الظلام يتلمس طريقه ارتفاعا وانحدارا ويستقبل الوجهة ثم ينحرف عنها حتى ينطلق من حيرته على ثقة ، فيعتدل الى الغاية التى ينويها ، فلا حيرة بعد ذلك ولا احجام عن تلك الغاية الى أقصاها .

وكذلك كان محمد عبده بين الحيرة والاحجام قبل التقائه بجمال الدين :

صدمته الحياة العامة كما يصطدم بها كل شاب يخرج من معيشته فى الأسرة على المودة والعطف الى معيشة الكفاح بين الناس على سننها من الرياء والأثرة وتنازع البقاء ، وكان

يشكو هذه الحال الى شيخه القروى من أخوال أبيه كما قال فى ترجمته : « فذكرت له اشمئزازى من الناس وزهادتى فى معاشرتهم وثقلهم على نفسى اذا لقيتهم ، وبعدهم عن الحق ونفرتهم منه اذا عرض عليهم ، فقال لى : هذا من أقوى الدواعى الى ما حثثتك عليه ، فلو كانوا جميعا هداة مهديين لما كانوا فى حاجة اليك ، ثم أخذ يستصحبنى فى مجالس العامة ويفتح الكلام فى الشئون المختلفة ويوجه الىّ الخطاب لأتكلم فيتكلم الحاضرون فأجيبهم ، وأنطلق فى القول على وجل فى أول الأمر ، وما زال بى حتى وجد عندى شيء من الألفة مع الناس والاستئناس بمكالمتهم ، وفى شوال من تلك السنة ودعنى وبكى بكاء شديدا ومات فى السنة التالية » .

وفى هذه السنة ــ سنة ١٨٧١ ــ وفد السيد جمال الدين الى القاهرة قادما من الآستانة ، فوجد الفتى الناشيء حيث تركه شيخه القروى بين طريق العزلة وطريق العمل مع الناس ، ولكنه حين مضى فى هذا الطريق يخطو خطواته الأولى فقد شيخه الصوفى ولم يجد لعقله هاديا يعمل أمامه ويتجه ببصره المتطلع الى غاية مداه ، لأنه كان يدرس علوم العقل على أساتذة يحسنون شرح النظريات ويبسطون القول فى الشكوك والموانع ثم لا ينتهون منها الى قبلة يستقيم عليها السالك على قدر جهده فى طريقه المرسوم .

وكان جمال الدين قد مر بمثل هذا الدور فى مثل سنه : كان قد زهد فى صحبة الناس فاعتزلهم وخرج من طريق العزلة الى

طريق العمل ، وكان يفهم أن الفناء فى الله اعتزال للعـالم فعاد يفهم أن الفناء فى الله انما هو فناء فى خلقه ، أو كما كان يقول لتلاميذه فى رواية الشيخ عبد القـادر المغربى : « أنا لا أفهم معنى لقولهم الفناء فى الله ... وانما الفناء يكون فى خلق الله : تعليمهم وتنبيههم الى وسائل سعادتهم وما فيه خيرهم » .

وقد كتب عنه تلميذه المسيحى أديب اسحاق وهو فى هذا الدور بين العزلة والعمل فقال : « انه تبحر فى المنقول والمعقول وغلبت عليه مذاهب قدماء الحكماء فداخله من ذلك بداءة بدء شيء من التصوف فانقطع حينا بمنزله يطلب الخلوة لكشـف الطريقة وادراك الحقيقة حتى صار له فى القوم كثير من الأتباع والمريدين ، كل ذلك وهو دون العشرين » .

ولم يكن لجمـال الدين أستاذ يجتذبه من حيـاة الخلوة والعزلة الى حياة العمل والجهاد ، ولكن الحوادث كانت لهـا صيحة فى مسمعه أقوى من صيحة الامام المرشـد ، فاقتحم معركة الحيـاة لينصر فريقـا على فريق من أوليـاء الأمر فى وطنه ، وانتصر جمال الدين للأمير محمد أعظم خان : « فشهد الحروب وحضر الوقائع فازداد جرأة واستخفافا بالموت وأقام فى ذلك تسعة أعوام لا يرى الراحـة ولا يسـتقر بمكان حتى دارت الدائرة على محمد أعظم خان فانصرف الأوليـاء عنه الا جمال الدين .. » .

***

حضر التلميذ على أستاذه دروسا نافعة فى كتب المنطق والحكمة والتصوف وأصول الدين ، ولكن الدروس الروحية التى كانت تسرى من أحاديث هـذا المصلح العظيم كانت أعظم وقعا وأعمق أثرا من دروس الأوراق والأسفار ، ولم تكن شروحه للكتب التى كان يقرأها على تلاميذه معانى « فكرية » تستخرج من ألفاظها « القاموسية » على عادة الشراح الذين يقفون بالعبارات عند ألفاظها ومعانيها ، ولكنه ــ كما سمعنا من مريديه الذين عرفناهم ــ كان يشرح العبارة ليستخرج منها قوة حية تسرى الى النفس فتحركها الى العمل ، وكأنما الكلمات المشروحة على لسانه تلك المفاتيح الصغيرة التى تدار فتنبعث منها قوى من الكهرباء لا يستقر عليها قرار .

وخير الأساتذة ، على ما نعلم ، هو الأستاذ الذى ينبه فى التلميذ ملكات ذهنه وضميره ويستجيش فى قرارة طبعه غاية وسعه من الاجتهاد والهمة على حسب فطرته واستعداده ، فليس بخير الأساتذة من يجعل تلاميذه نسخا منه تحكيه ولا تزيد من عندها شيئا غير الاقتداء به والعمل على غراره ، فهذه هى تربية التقليد والمحاكاة تصلح للذين خلقوا للاتباع ولا تصلح للذين خلقوا على نصيب من قدرة الاستقلال والاجتهاد .

وهكذا كانت تربية جمال الدين لمحمد عبده وهو يخطو خطواته الأولى على طريق العمل والاصلاح : انه لم يخلق فيه ملكة كانت معدومة فيه ، ولكنه رده الى طبيعته العملية وعزز

فيه تلك الثقة التى لا غنى عنها لمن يتولى عظائم الأمور وينهض الى الغاية العصية والمطلب البعيد .

ولم تكن الطبيعة العملية طارئا جديدا على سليقة الفتى الذى شب عن الطوق وهو يركب الخيل ويحمل السلاح ويتمرس برياضة الفروسية .

ولم تكن الثقة بالنفس طارئا جديدا على سليقة الطالب الناشىء الذى استقل برأيه فى الحكم على تعليم زمنه بالعقم والجمود ، ومن حوله ألوف المتعلمين والعلماء يتهمون أنفسهم ولا تهجس فى قلوبهم هاجسة من الشك فى صلاح ذلك التعليم ووجوب الصبر على مصاعبه وألغازه .

وقد لمح الأستاذ البصير ملامح تلك الثقة المكينة فى نفس ذلك الطالب الصغير ، وكان يعجب لتلك الثقة المطبوعة التى لا تكلف فيها فيسأله مغتبطا راضيا : قل لى بالله : أى أبناء الملوك أنت ؟

ولكن تربية جمال الدين وزنت تلك الثقة بمقدار رسالتها الكبرى التى تهيأت لها بنزعاتها وآمالها واقتدرت عليها بطموحها واستعدادها ، فلم تتهيبها ولم تنكص عنها حين علمت مداها ، وعلمت أنه المدى الذى لا سبيل الى الوفاء فيه قبل بلوغه ، وهو نهضة العالم الاسلامى بين مشارق الأرض ومغاربها : نهضة العالم الاسلامى فى وجه الدول العظمى ، بل فى وجه ملوكه وأمرائه المتألبين عليه ، بل فى وجه أبنائه الكارهين للاصلاح كراهة الطفل المريض لمذاق الدواء .

وكانت خطة جمال الدين للاصلاح أن يبدأ بتأسيس دولة واحدة على الأقل صالحة لقيادة العالم الإسلامى كله فى معترك السياسة الدولية وفى تنفيذ برامج النهضة والهداية العملية .

وكانت هذه الخطة تتمة معقولة للفاتحة التى افتتح بها جمال الدين حياته وهو فى نحو العشرين ، لأنه افتتحها بالجهاد فى سبيل امارة يقيمها للأمير الذى آمن بصلاحه وحسن الرجاء فى ولايته ، فاذا خطر له أنه قادر على أعباء هذه الخطة حيث كان فى وطنه أو غير وطنه فهو خاطر ليس بالغريب على الرجل الذى بدأ بتلك الفاتحة فى مطلع شبابه .

ولكن الفتى الفلاح لم يستهول الغاية التى طمح اليها ربيب بيت الوزارة ، كيفما كانت الخطة التى تنتهى اليها .

ونرجع هنا الى سليقة التصوف عند الرجلين لنعرف منها سر هذا الاقدام فى أمور الممالك والعروش ، فان التصوف فى نبابه كفء — بل أكبر من كفء — لمواجهة سلطان الممالكين وآرباب التيجان المتحكمين :

هما طرفان من ملك ونسك ينيلان الفتى الشرف الرفيعا
فان لم تملك الدنيا جميعا كما تهواه فاتركها جميعا

وألزم خلائق الصوفى المطبوع أنه يستخف بعظمة الدنيا وأن تهون عليه رهبتها ورغبتها فلا يهابها ولا يتهالك عليها ، وأزهد من الصوفى الذى لا يملك الدنيا ذلك الصوفى الذى لا تملكه الدنيا ولا يداخله الوجل ممن يملكونها .

وقد ثبت هـذا الخلق من هذين الرجلين ثبـات السليقة المتأصلة فيهما فلم يكن من عمل عادة متبوعة ولا من عمل تربية مكسوبة ، وكان جمال الدين يعبث بحبات سبحته فى حضرة السلطان عبد الحميد وينبهه رئيس الديوان الى قواعد التشريفة ، فيجيبه ساخرا : « مه يا هذا ... ان السلطان يلعب بحياة ثلاثين مليونا من بنى آدم ، أفلا يلعب جمـال الدين بثلاثين حبة من حبات الكهرباء » .

وكان الخديو عباس الثانى يشكو من مسلك محمد عبده فى حضرته ويقول : انه يدخل علىّ كأنه فرعون ! .. ويستمع محمد عبده الى هذه الشكوى فلا يزيد على أن يقول : وأينا فرعون ؟

وقد نزل جمال الدين بمصر وهى على حال كتلك الحال التى أخرجته من عزلته لينصر أحد الأميرين على أخيـه : اذ كان الغيورون على البـلد يخشـون العواقب عليه اذا طال فيـه حكم اسماعيـل ويفكرون فى خلعـه باغراء الدول أو اغراء السلطان واسناد العرش الى خليفته محمد توفيق ، ولم يلبث جمال الدين أن تقدم الدعاة الى هذا الانقلاب فجمع الأنصار من مريديه والمعجبين به لمخـاطبة وكلاء الدول باسم الأمة ، وصارحهم بذلك فاتخذوا من موافقته على خلع اسماعيل حجة عنـد حكوماتهم على موافقة الحزب المسـتنير فى مصر لهذه السياسة التى كانت تتردد فيها بين الوعيد والتنفيذ .

أما محمد عبده فقد كان عمله فى هذه الحركة أوفق لسنه وأقرب الى مزاجه الرياضى فى شبابه : كان على عزيمة صادقة

آن يزيل اسماعيل بيده ، ان لم ينزل عن العرش باختياره أو يصدر الأمر من السلطان بعزله .

وكانت خديعـــه الخديو توفيق ـــ مع ضـــعفه عن انجاز وعوده ـــ أول خيبة منى بها جمال الدين فى خطته مع الأمراء والملوك ، فانه ظل يتودد الى جمال الدين وأنصاره بعد ارتقائه العرش ويؤكد له كلما لقيه أنه يعتمد عليه وانه « كل أمله فى مصر » لتحقيق برامج الاصلاح ، ولكنه ضـــعف عن مقاومة الدول ، وبلغ من مطاوعته لهم انه كان يطلعهم على مطالب زعماء البلد منهم قبل النظر فيها .... « ومن كلام اخصائه الانجليز ـــ وبينهم المؤرخ المشهور الفريد بتلر ـــ انه كان يحتفل بمجاملتهم بين كبار موظفيه ، فيقضى الساعات يتكلم معهم باللغة الانجليزية التى لا يعرفهـــا اولئك الموظفون ويذكر الاســـاء بالحروف الهجائية فى سياق أحاديثه ليخفى موضوع الكلام عن سامعيه الذين يعرفون أصحاب تلك الأسماء ، ويفضى فى هذه الأحاديث بأخبار من المعلومات الخاصة والأوراق المحفوظة تتعلق بالأسرة وعظماء البلاد » .

واذا ساء فعل المرء ساءت ظنونه كما يقول أبو الطيب ، فلا جرم يساوره الشك من جانب جمال الدين ويتوقع منه أن يأتمر به كما ائتمر بأبيه ، ويغتنم الفرصة من حذر وكلاء الدول من دعوة جمال الدين الى اعلان الحقوق الوطنية ورفع الرقابة الأجنبية ، فيتفق معهم على اقصائه والاعراض عن حزبه ، ويمالئه على ذلك رجال الحاشية الخديوية على سنة الحواشى فى كل بلاط

يكره النصحاء ويحب الاستنثار بسمع الأمير وهواه ، وينتهى الامر بنفيه والتشهير به ــ تسويغا لتلك الفعلة ــ فى منشور بذىء لم يصب جمال الدين بمسبة ، ولكنه ارتد على توفيق وحاشيته بالمسبة التى لا تمحى ، وغير عليهم قلوب المخلصين من طلاب الاصلاح فداخلهم الشك الشديد فى امكان الاصلاح على عهده بغير الثورة عليه .

وهذا بعض ما جاء فى ذلك المنشور البذىء « انه لما كان الأمن والأمان والراحة والاطمئنان يتوقف عليها تمام العمران فى جميع الممالك والبلدان ، ومن أنجح الأبواب وأصلح الأسباب التى بها نجاح الممالك ، وسلوكها فى أقوم المسالك ، قطع دابر المفسدين الساعين فيما يضر بالدنيا والدين ، ويكون ذريعة للطائشين المتظاهرين بين الناس ، بمظهر الحرية بدون أساس » .

ويتلو هذا كلام عن جماعة جمال الدين السرية يقولون فيه انها جماعة « رئيسها شخص يدعى جمال الدين الأفغانى مطرود من بلاده ثم من الآستانة العلية لما ارتكبه من أمثال هذه المفسدة فى ديارنا المصرية ، وهذا من أكبر ما يغير الأفكار ، ويجب أن يعامل مرتكبه بالتشديد والانكار ، فالتزمت هذه الحكومة الحازمة أن تتخذ الطريق اللازمة ، وتستعمل السداد فى قطع عرق هذا الفساد ، فأبعدت ذلك الشخص المفسد من الديار المصرية بأمر ديوان الداخلية ، ووجهته من طريق السويس الى الأقطار الحجازية » .

ولم يذع خبر هذا المنشور الا بعد سفر جمال الدين على غير علم من آكثر أصحابه ومريديه ، وانما علموا به بعد اعلانه فى الوقائع المصرية (عدد الحادى والثلاثين من شهر أغسطس سنة ١٨٧٩) .

وكان السيد جمال الدين قد مكث بمصر فى هـذه الزيارة الثانية نحو ثمانى سنوات ، غرس فيها بذور نهضـة مثمرة لم نشهد من ثمراتها الجنيـة ثمرة أنضج وأبقى من عزيمة تلميذه وخليفته « محمد عبده » ففارق هـذه الديار وهو يقول لمن يسألونه عن وصيته عليها : « حسبكم محمد عبده : حسبكم محمـد عبده من وصى أمين » وطفق يذكره فى رحلاته بعـد ذلك فيكتفى من الدلالة عليه بوصف الأخ الصـديق ، فيعلم المستمعون اليه من يعنيه .

ولم يتصل السيد بأحد من أصدقائه وأصحابه بمصر الى ما بعد انتهاء الثورة العرابيـة ، ومنهم خادمه الأمين العارف أبو تراب الذى كان يلازم السيد فى حله وترحاله ملازمة ظله ، لأن السيد قضى تلك الفترة فى رقابة الحكومة الهندية تارة ، وفى التنقل على غير قرار تارة أخرى . فلما رفعت عنه الرقابة شخص الى أوربة فى شهر سبتمبر سنة ١٨٨٢ وكتب من بورت سعيد الى الشيخ محمد عبده خطابا يشكر له فيه رعايته لخادمه ويحمده « على البر والمعروف » ويطلب اليه ابلاغ سـلامه وشكره لتلميذيه ابراهيم اللقانى وسـعد زغلول ، ويذكر له عنـوانه بالعاصمة الانجليزية فى ادارة جريدة الشرق والغرب ، أو عند

الشاعر المستشرق مستر « بلنت » صديق العرابيين .

وكان الشيخ محمد عبده يومئذ قد نفى الى بيروت فبادر بالجواب على السيد وكتب اليــه كتابا نستغربه ، كما استغربه تلميذ الأستاذ الامام السيد محمد رشيد رضا صاحب المنار ، لأنه لهج فيه بالتعظيم والتقديس لهجا لم نعهده فى أسلوبه منذ صباه الى ختام حياته ، وغلا فى اتضاعه والارتفاع بأستاذه غلوا يخالف المعهود من عرفانه لنفسه مع عرفانه لأعظم الناس قدرا عليه ، وفيه كما قال السيد رشــيد « من الاغراق والغلو فى السيد ما يستغرب صدوره عنه وان كان من قبيل الشعريات ، ويصف نفسه بالتبع لأستاذه من الدعوى التى لم تعهد منه البتة » .

الا آن الأسلوب هنا هو الأســلوب الذى لم يتكرر فى خطاب أو مقال للأستاذ الامام ، لأنه أسلوب الساعة التى لم تتكرر فى حياته . وليست هى مما يتكرر فى حياة أحد ، اذ كان كل ما يستوحيه فى تلك الساعة شعورا مشبوبا يتوقد بحماسة الشباب وحماسة الثقة التى بقيت له فى منفاه بعد ضياع الثقة بأقرب الأقربين وأولى الاخصاء بالصدق والوفاء ، ويذكيها من وجدانه الحى ذلك الشوق المتجدد الى أستاذه بعد انقطاع العهد وجلاء الغمة فى أعقاب الثورة عن ذلك المصير الذى له ما بعده ، وقد يكون ما بعده جهادا آخر يرجى له من الفلاح ما لم يكتب للأستاذ ولا لتلميذه فى جهادهما الأول . فان تكن فى الأسلوب غرابة تلحظ فى سائر الأحوال فقد كان الأغرب أن يجرى به القلم فى تلك الحال مجرى المتكرر المألوف .

ومن عبارات الخطاب التى لم تتكرر ولم تؤلف فى سواه قوله عن نفسه وأستاذه : « ... كنت أظن آن قدرتى غير محدودة ، ومكنتى لا مبتوتة ولا مقدودة ، فاذا أنا من الأيام كل يوم فى شأن جديد : تناولت القلم لأقدم اليك من روحى ما أنت به أعلم فلم أجد من نفسى سوى الأفكل [1] والقلب الأشل ، واليد المرتعشة والفرائص المرتعدة ، والفكر الذاهب والعقل الغائب ، كأنك يا مولاى منحتنى نوع القدرة للدلالة على قوة سلطانك فاستثنيت منه ما يتعلق بالخطاب معك والتقدم الى مقامك الجليل » .

***

وفى هذا الخطاب تحدث التلميذ الى أستاذه عن مصير الجماعة التى تركها بمصر واستخلفه عليها فى غيابه ، وأفاض فى بيان ما يعنيه من أمر أصحابه ومريديه ولم يتحدث عن أمر نفسه لأنه اكتفى فيه بما كتبه زميله ابراهيم اللقانى الى السيد كما علم منه . قال « انى يا مولاى لا أحدثك عن شىء مما أصابنا بعد فراقك . فقد تكفل ببيانه أخى العزيز ابراهيم افندى اللقانى سوى ما تركه فى كتابه من انقلاب بعض القلوب من خاصتك وتحول أحوالهم بعد نزول ما نزل بك ، فقد تغلب أعوان الشر وأنصار السوء بقوة جاههم وشدة بأسهم ، فأرغموا العقول على اعتقاد بالمحال ، وألجأوها الى التصديق

---

(1) الأفكل : الرعدة — يقال أخذه أفكل ، اذا ارتعد من خوف .

بما لا يقال ، حتى انهم غيروا قلب دولتلو رياض باشا عليك وعلى
تلامذتك الصادقين أياما معـــدودة ركن فيها للعمل بالشـــدة
والأخذ ببادرة الحدة ، لكن لم يلبث أن وصلنا اليه وجلوت
الأمر عليك ، وكشفت له ما أغمض من الحقيقة حتى زال ما لبّس
المبطلون .... وهكذا ضممت الىّ كل من كان ينتسب اليك
صادقا فى الانتساب أو كاذبا ، حتى أنى لم أتأخر عن مساعدة
أولئك الأشقياء الأدنياء .... وأمثالهم من اللئام ، تحسينا للظن
وايثارا لجانب العفو ، فأصـــلحت لهم القلوب ، وفسحت لهم
من الصدور ، وفتحت لهم أبواب التقـــدم الى المنافع الغزيرة
لكنهم لم يرعوا وداً ولم يحفظوا عهدا ، ولا حاجة الآن الى
ايضاح ما صدر عنهم خيانة ولؤما ، وألّفت لحبك ممن حَرم
التشرف بلقائك قبيلا ليس بالقليل ، يُجِلّون قدرك ويعرفون
لك فضلك ، وكنا واخواننا كما شرح لك ابراهيم افندى اللقانى
.... ولسيرنا فى تلك الحوادث نبأ طويل اذا أردت يا مولاى
أن أقدم اليك به تاريخا ربما يكون مفيدا فأنا رهين الاشارة ،
ونحن الآن فى مدينة بيروت نقضى بها مدة ثلاث ســنوات ،
لا لذنب جنيناه ولا جرم اقترفناه .... فها نحن سالكون فى
سنتك وعلى سنتك ولا نزال الى انقضاء الآجال ، ولولا أطفال
لنا رضع ، ونساء لنا طوع ، أبينا لهم الذل ، وأنفنا لهم الضيم ،
فأتينا بهم هنا الى حيث أقمنا . لكنت أول من تلقاك فى مدينة
باريس لأسعد بالاقامة فى خدمتك ... ولا أتكدر مما أشرت
اليه فى كتابك الى أبى تراب حيث طعنت فى ثقتــك بالناس

أجمعين وبالغت حتى سحبت الطعن الىّ والى ابراهيم افندى ... أما اختلال ثقتك بالدواهى والبلايا فقد صادف محلا لمن نقضوا عهدك وحالفوا عـدوك ، فاستبقوه للوجود وأنت موجود ... » .

***

ولا نزيد فى الاقتباس من هذا الخطاب على ما أوردناه من هذه الفقرات الضرورية لجلاء الموقف كله وجـلاء الموقف — خاصة — بين هذين الرجلين فى أعقاب الثورة العرابية ، فجملة ما يقال فى هذا الموقف انه موقف فتنة عمياء تلتبس خفاياها على المقيم بين ظهرانيها فضـلا عن المغترب البعيـد عن ظواهرها وبواطنها ، محجوبا بحجاب الرقابة الكثيف عن المباح والمحظور من أخبارها ، ولولا ذلك لما التبست الحقائق على قلب ذلك المصلح العظيم ، فأوشك أن ييـأس من الناس كافة على غير المعهود من شيمته وشيم الدعاة المصلحين أجمعين .

ونحن لا نعرف الآن بيانا وافيا عن أسماء أولئك الأصحاب والأنصار الذين تركهم جمال الدين بعده فى الديار المصرية ، فانه كان — أثناء مقامه بها — قد برىء من طائفة منهم دخلوا معه فى المحفل الماسونى الذى انضوى اليه السيد على أمل فى مناصرة أعضـائه الشرقيين والأوربيين على دعـوته العامة ، تصديقا لمـا شاع عن مزاعم المـاسون أنهم ينتصرون للحرية الانسانية ، ولا ينقادون لدولهم وحكوماتهم فى سياستها الشرقية ،

فلما تبين بطلان هذه المزاعم نفض يديه من المحافل عامة وممن بقى على الولاء لها فى ذلك المحفل وفى غيره ، ولم يزل يحتفظ بأسماء زملائه الباقين على ولائه ، وهم الذين سماهم ولاة الأمر بجماعته السرية فى منشور نفيه ، ونحسبه لم يكتم أسماءهم الا حمـاية لهم من كيد وكلاء الدول وجواسيس الحكومة ، وتمكينا لهم من العمل مع اخوانهم بمأمن من أعين الرقابة وحبائل الاغراء والدسيسة . وقد بقيت من هؤلاء الأولياء المخلصين بقية لم تعلن أسماؤهم لذلك السبب ، ولكنهم على الأرجح هم الفئة التى تألف منها فرع جماعة « العروة الوثقى » بالديار المصرية ، وهى الجماعة التى أصدرت صحيفتها فى باريس بعد انتقال الشيخ محمد عبده اليها .

فان الشيخ قد عول على اللحاق بأستاذه فى باريس بعد أن أقام بمدينة بيروت عاما أو أكثر من عام ، ولحق بأستاذه لاصدار صحيفة سياسية تشن الحملة على الاسـتعمار ، وتعمل لاثارة الشعوب المغلوبة عليه ، وكانت مجازفة من الشيخ لم يكترث لعواقبها الوبيلة عليه وعلى ذويه ، ومنها فراق اطفاله الصغار واطالة أجل النفى عن بلاده من ثلاث سنوات كادت تنقضى الى غير نهاية موقوته ، مع المعيشة المهددة بغوائل الفاقة والمكيدة فى ديار الغربة التى تجمعها عصبية المنفعة على كل من يكافح الاستعمار ولو فى بلاد غير بلاده .

ويتلخص برنامج العروة الوثقى فى مبدأ عام ينطوى على مبادىء كثيرة : وهو حرب الاستعمار بكل وسيلة مستطاعة ،

ومن تلك الوسائل تحريض المحكومين على حكوماتهم الأجنبية ، وازالة أسباب الخلاف بين الدول الاسلامية لسد الثغرات التى يتسلل منها المستعمر بين تلك الدول لتاليب بعضها على بعض وتسخيرها جميعا لخدمته كما حدث غير مرة فى طريق الهند على علم من جمال الدين بدخائل هذه السياسة التقليدية ، ومنها ضم الصفوف الوطنية حيث يعيش المسلمون مع غير المسلمين ، وهو مبدا تأسست عليه دعوة جمال الدين قبل نفيه ، ومن أجله آنشأ المحفل الماسونى الذى آنشأه بمصر للاشتراك بين أتباع الديانات جميعا فى قضية الحرية ، ولم يزل لسان حاله فى الصحافة قبل النفى وبعده أديبا مسيحيا كاثوليكى المذهب هو « أديب اسحق » الذى ثبت على هذا المبدأ الى يوم وفاته .

وقد كانت صحيفة « العروة الوثقى » احدى وسائل الجماعة ولم تكن هى وسيلتها الوحيدة ولا وسيلتها الكبرى ، لأن الحكيمين لم ينقطعا أثناء مقامهما بباريس عن الاتصال سرا وجهرا بأنحاء العالم الاسلامى ولا بمراجع السياسة الفعالة فى عواصمها المشهورة . ومن ذلك أن الجماعة أوفدت الشيخ محمد عبده الى لندن لاثارة المسألة المصرية بحذافيرها أثناء قيام « المهدى » بثورته فى السودان ، وكان زبانية الاستعمار — كعادتهم — يخيفون المصريين من مقاصد المهدى ويشيعون عن « مخابراتهم السرية » أنه ينوى غزو وادى النيل كله ، وأن الحكومة المصرية لا تقوى على صده بغير المعونة البريطانية ، فلما سئل الشيخ محمد عبده فى حديث جرى بينه وبين مندوب

صحيفة « البال مال غازيت » عن هـذا الخطر المزعوم قال : « لا خطر على مصر من حركة المهدى : انما الخطر على مصر من وجودكم أنتم فيها ، وانكم اذا غادرتم مصر فالمهدى لن يرغب فى الهجوم عليها ، ولن يكون فى هجومه أدنى خطر ، وهو الآن محبوب من الشعب ، لأنهم يرون فيه المخلص لهم من الاعتداء الأوربى ، وسينضمون اليه عند قدومه » .

وقد نجحت دعاية الشيخ فى العاصمة الانجليزية ورجحت هناك جانب الحزب الذى كان يدعو الى اخلاء السودان ، وتقرر هـذا الاخلاء ، بل أعدت المعاهدة التى يتفق عليها الطرفان لتسوية هذه القضية ، وأوشكت أن تبرم وتوضع موضع التنفيذ لولا ورود الأنباء بموت المهدى ، واستعداد خلفائه للهجوم على الحدود المصرية .

ولقد جرى هذا الحديث فى خريف سنة ١٨٨٤ ولم يبق من المدة الموقوتة لنفيه غير شهور ، ولكنه سئل عن الخديو توفيق فى مطلع الحديث ، فلم يبال أن ينحى عليه وأن يصرح برأى الوطنيين فيه ، وقال فى غير مواربة : « ان توفيق باشا أساء الينا أبلغ اساءة ، لأنه مهد لدخولكم بلادنا ، ورجل مثله انضم الى أعدائنا فى قتالنا لا نشعر ازاءه بأقل احترام . لكنه اذا ندم على ما فرط منه وعمل على الخلاص منكم فربما غفرنا له سيئاته ... اننا لا نريد خونة وجوههم مصرية ، وقلوبهم انجليزية » .

وتبدو من هذا التصريح القاطع نية البقاء حيث كان خارج القطر لمواصلة الجهاد مع أستاذه ، لأنه قطع بيده كل أمل له عند

صاحب السلطة الشرعية وهو الخديو ، وأصحاب السلطة الفعلية وهم المحتلون .

***

على أن الحكيمين قد بقيا معاً فى القارة الأوربية زمنا يسيرا يعملان بين باريس ولندن فى مراقبة المسائل الشرقية عند نظرها فى دوائر العاصمتين أو الكتابة عنها فى الصحف السياسية ، وكانا قد اضطرا الى تعطيل صحيفة العروة الوثقى ، ولما ينقض على صدورها أكثر من ثمانية شهور خلال سنة (١٣٠١ هجرية و ١٨٨٤ ميلادية) ظهر فى أثنائها ثمانية عشر عددا ، ثم احتجبت على كره من الأستاذين لأنها صودرت فى جميع البلاد الاسلامية واتفقت على مصادرتها حكومات الدول الأجنبية وحكومات الملوك والأمراء الشرقيين لأنها كانت تحارب الحكم الأجنبى بجميع مساوئه كما كانت تحارب استبداد الحاكم الوطنى وفساد أعوانه ورجاله ، وكانت تبدىء القول وتعيده فى الانحاء على رؤساء الأمم المستعبدة من أبنائها لأن استعباد هذه الأمم انما يكون بقوة رؤسائها ، وربما كان من أسباب تعطيل الصحيفة أنها كانت تتخذ فى البلاد التى تصل اليها دليلا على أعضاء الجمعية الذين يتلقون أعدادها ويتولون توزيعها ، فحيثما وصلت الأعداد مجموعة الى جهة من الجهات فهناك الشبهة فيمن تصل اليه ، ومن وراء الشبهة مصادرة الدولة ومتابعة التضييق والارهاق حيث

لا عاصم من القانون ولا حماية من سلطان الرأى العام المكبوت ، ان لم يكن محجوبا عن الأخبار العامة بالكتمان والسكوت .

ولبث جمال الدين قليلا يحاول فى عواصم الغرب محاولاته السياسية على خطته المعهودة بغير كبير جدوى ، ثم بدا له أن يجرب هذه المحاولات من غير هذه الناحية ، فأزمع الرحلة الى عاصمة القياصرة وهو ينوى أن يستخدم مقامه فيها لأغراض ثلاثة : اولها رفع الظلم عن الرعايا المسلمين وتمكينهم من حريتهم الدينية على قدر المستطاع ، والغرض الثانى أن يكف من عداوة الدولة الروســية التقليدية لدولة الخلافة ويرجو ألا يقع منها عدوان جديد فى أثناء مقــامه بعاصمتها ، والغرض الثالث هو الانتفاع بالمنافسة القديمة بين الروس والانجليز فى تحريك المسائل الشرقيه بجملتها ، ولا سيما مسائل الأمم التى على طريق الهند من مصر الى فارس الى بلاده الأفغانية .

أما الشيخ محمد عبده فقد عاد الى بيروت وهو يزداد ايمانا بعقم المحاولات السياسية ، وضعف الأمل فى الملوك والأمراء ، ووجوب التعــويل بعد هذه المحاولات العقيمــة على الأمم دون غيرها ، وحصر الأمل كله فى اعــداد هذه الأمم للنهضة والمقاومة بعدة العلم الصحيح والتربية الاجتماعية الصالحة ، وقد أبرأ ذمته وأعطى ســياسة أســتاذه كل حقها من الرعاية والاخلاص ، ولكنه اتخذ من الأرزاء التى ابتلى بها أستاذه على أيدى الأمراء والملوك حجة جديدة على ضعف الأمل فيهم ، ووجوب التحول بالجهود الى أممهم ، فقد شهر به خديو مصر

ونفاه ، وعذبه شاه ايران وأهانه وطرده من بلاده على شر حال ، وخيب راجوات الهنـــد رجاءه وأعرضـــوا عنه مجاملة للسادة المستعمرين ، واعتقله السلطان العثمانى فى قفص من الذهب ، كما قال عنه بعض المعجبين به من المستشرقين ، ولم يبق أمامهما أحد غير هؤلاء ينوطان به الرجاء ويشدان اليه الرحال ، فمن صيانة الجهد عن الضياع أن يتوقف هذا الجهد من هذا الجانب وينصرف الى ما هو أصلح وأجدى .

وظل الشيخ محمد عبده على هذا الرأى يزداد ايمانا به يوما بعد يوم ، ويضيف اليه من تجاربه مع الأمراء والرؤساء كل يوم ما يعززه تعزيزاً لا سبيل فيه الى الشك عنده . وقد كان يقول لتلاميذه الفقهاء والأدباء من أمثال العالم الدينى السيد «رشيد رضا» والشاعر الوطنى «حافظ ابراهيم» ان السياسة ضيعت علينا أضعاف ما أفادتنا و «ان السيد جمال الدين كان صاحب اقتدار عجيب لو صرفه ووجهه للتعليم والتربية لأفاد الاسلام أكبر فائدة . وقد عـرضت عليه حين كنا فى باريس أن نترك السياسة ونذهب الى مكان بعيد عن مراقبة الحكومات ، ونعلم ونربى من نختار من التلاميذ على مشربنا ، فلا تمضى عشر سنين الا ويكون عندنا عدد من التلاميذ الذين يتبعوننا فى ترك أوطانهم والسير فى الأرض لنشر الاصـلاح المطلوب ، فينتشر أحسن الانتشار ، فقال : انما أنت مثبط [1] » .

***

---

(١) صفحة ٨٩٤ من تاريخ الأستاذ الامام الجزء الأول لصاحب المنار .

وأراد التلميذ الوفى بعد عودته الى القـاهرة واستقرار أسـتاذه بالآستانة أن يعاود الكرة ، ويتلطف فى الاشارة الى السيد بما تقضى به الحيطة فى مقره المضطرب بين دسائس الحاشية المتربصين ، ومكائد الحساد المنافسين ، وغـدرات الوزراء والسلاطين .. فجاءه الرد عنيفا غاية العنف من السيد يقول فيه : انك « تكتب لى ولا تمضى وتعقد الألغاز .. من أعدائى ؟ وما الكلاب كثرت أو قلت ؟ ... فكن فيلسوفا يرى العالم ألعوبة ، ولا تكن صبيا هلوعا » .

ثم يقول عن رسالة أخرى : « ان الرسالة ما وصلت ولا بينت لنا موضعها وجلا منك ، قوى الله قلبك » .

وقد أمسك الشيخ محمد عبده بعد ذلك عن الكتابة الى السيد فى الآستانة ، لأن الرسائل لا تصل أحيانا ، وما يصل منها فى القليل من الأحايين تراقبه الشرطة وترفع خبره الى المراجع العليا ، ولا حيلة فى صراحة القول مع ضررها المحقق بالمرسل اليه دون المرسل ، ولا حيلة كذلك فى التورية لأن السيد على عادته من الجرأة البالغة يحسبها هلعا صبيانيا ، ويؤنب الكاتب عليها ذلك التأنيب الحكيم .

ونرى من وفاء البحث أن نتم هذا الفصل بالنظر فى موضع التساؤل من هذه الفترة فى علاقة الأستاذين الحكيمين على رأى بعض المؤرخين المعاصرين ، كالأستاذ عبد الرحمن الرافعى فيما تناول به سيرة الأستاذ الامام من تاريخ الثورة العرابية ... فقد كتب الينا أديب علم أننا نكتب سيرة الأستاذ الامام فاستحلفنا

ألا ننسى هذه المسألة فى موضعها من السيرة وقال : « ومما أرجوه أن تناقشوا ما جاء فى كتاب « الثورة العرابية » تأليف الأستاذ عبد الرحمن الرافعى ، بالصفحتين ٥٤٢ و ٥٤٣ وهو :

« ونقطة الضعف فى شخصيته ـ أى شخصية الأستاذ الامام ـ هى تخلفه عن الكفاح السياسى واختلافه فى هذه الناحية مع أستاذه جمال الدين الأفغانى ، وقد بدأ انقطاعه عنه منذ عودته الى مصر سنة ١٨٨٩ ، فترك أستاذه يعانى متاعب الكفاح السياسى وآلامه ومرارته ، وكان من قبل عضده وساعده الأيمن . وانك لتلمح تراخى الصلات بينهما ، حتى الصلات الشخصية منذ أن عاد الى مصر حتى وفاة السيد جمال الدين من قراءة منتخبات الأستاذ الامام . فانك لا تجد فيها رسالة واحدة كتبها الى السيد فى محنته ومنفاه . بل ان جمال الدين توفى سنة ١٨٩٧ فلا تجد للأستاذ الامام كلمة فى رثاء أستاذه الروحى والفلسفى ، وزميل جهاده فى العروة الوثقى . وهذه الناحية هى أثر من آثار الاحتلال فى أخلاق الأمة ونفسيتها » .

ولا حاجة الى القول ـ بعد البيان المتقدم ـ بأن هذا النقد أثر من آثار الاسراع فى المؤاخذة لغير سبب يوجبها ولا حجة تسندها ، فما كان فى الأمر من شىء يوصف بالضعف على معنى من معانيه ، لأن الضعف انما يكون حذرا من ضياع منفعة أو خوفا من وقوع ضرر ، ولم يكن فى الكتابة الى السيد محذور على الكاتب يتقيه ، وانما المحذور كله على السيد أن يصيبه من القوم ما هو فى غنى عن احتماله ، ويأبى هو أن يسميه خطرا

يتوقاه . ولا نظن المؤرخ الفاضل كان يريد من الأستاذ الامام أن يتلقى بعد كل مراسلة تقريعا كذلك التقريع يرمى فيه بالوجل والهلع وينهى فيه عن تصوير الخطر ولو بالتلميح اليه . وقد كان جمال الدين رضوان الله عليه فى دار خلوده يأبى أن يحسب نفسه سجينا مرغما على البقاء حيث كان بضيافة السلطان فانه بقى هنالك بعد أن سُدت فى وجهه مسالك البلاد ، وسد هو أمام نفسه ما كان مفتوحا بين يديه ، ولو أنه شاء الترحل عن الآستانة لما تعذر عليه ذلك ، بل حدث مرة أنه همّ بالترحل منها وانتقل الى مكان تحميه السيطرة الأجنبية ، ثم لم يلبث أن غادره وعاد الى داره تلبية لرجاء السلطان ، وأنفة له أن يذل أمام أعدائه فى عاصمة ملكه .

ويستطيع المؤرخ الفاضل أن يعلم لو شاء ان الأستاذ الامام قد أفاض فى ترجمة السيد جمال الدين فى تصديره لترجمة الرد على الدهريين ، ولكن الأستاذ الامام شغل عن كتابة سيرته هو — أى سيرة محمد عبده بقلمه — مع الحاجة اليها لدفع مفتريات الخصوم عليه . وما أكثر تلك المفتريات عليه فى حياته وبعد مماته ! وان فى بعض ما كتبه منها لتنويها — أشرف التنويه — بفضل جمال الدين عليه ، ولا يطلب من تلميذ بلغ أوجه من المكانة فى العالم أن يعترف لأستاذ له اعترافا أكرم وأرفع من قول محمد عبده عن جمال الدين : ان ميراثه منه أقدس من ميراثه الأبوى ، لأنه ميراث فى الروح يجمعه بصفوة الرسل والقديسين.

***

وبعد هذا الاستطراد العارض فى موضعه نعود فنقول انه لم يقاطع جمال الدين يوم كانت صحبته له تنفيه نفى الأبد عن أهله ووطنه ، وقد عاد الى بيروت وهو فى حكم المنفى عن مصر مدى الحياة ، ولكنه خرج منها بأعجوبة من أعاجيب السياسة تصدق عندنا تجارب الشيخ الحكيم للفصـــل السياسى الذى يحسن فيه صاحبه وهو ينوى أن يسىء . فقـــد توسط له فى العودة الى مصر اثنان هما : الغازى أحمد مختار باشا وكيل السلطان بالقاهرة ، والأميرة نازلى فاضل وريثة البيت المنافس لبيت اسماعيل من فروع الأسرة الخديوية ، ومركزه الاستانة .

ذلك فضل باطنه الذى لا خفـــاء به أن الرجل أقصى من بيروت بطلب خفى من السلطان العثمانى ، ليأمن عاقبة دعوته الى الاصلاح والحرية فى احدى عواصم الدولة العثمانية والبلاد العربية ، ولولا ذلك ما جاءت الوساطة ــ من كلا طرفيها ــ من هذا الطريق .

مع الثورة العرابية

كان الشيخ محمد عبده ثائرا ولكنه لم يكن عرابيا ، لأنه كان على خلاف مع الزعيم أحمد عرابى فى برنامجه العملى ، ولم يجمع العزم على تأييد العرابيين الا لتوحيد الصفوف فى وجه الاحتلال الأجنبى ، بعد التجاء الخديو توفيق الى الدولة البريطانية .

كان يؤيد الثورة فى أمرين : « أولهما » تنبيه الرأى العام وجمع كلمته للمطالبة برفع المظالم واصلاح نظام الحكم واسناد المناصب الكبرى ووظائف الحكومة عامة الى الوطنيين ، « وثانيهما » وهو أحوج الى الوقت والأناة هو التعويل على انهاض الأمة واقامة نهضتها على أسس التربية والتعليم ، واعدادها للحكم النيابى المستقل برغبتها الصادقة وقدرتها على صيانته من عبث الولاة والمتسلطين ، لأنه — كما تقدم — كان سيىء الظن بالنظم التى تأتى من جانب الملوك والأمراء بعد تجربة هذه النظم فى سائر البلاد الشرقية ، ولا فرق عنده بين المجالس النيابية وبين دواوين الحكومة اذا لم تكن للأمة قدرة على حماية مجالسها .

الا أنه كان يخالف زعماء الثورة فى اتباع الخطة التى تؤدى

الى الشطط وتفتح الباب للتدخل العسكرى من جانب الدول الأجنبية .

وكان يؤيد الخديو فى سعيه الى الاستقلال عن رقابة الدولتين — انجلترا وفرنسا — ولكنه كان ينكر عليه نفاقه فى اتباع هذه السياسة واستخدامها لتعزيز سلطته ، والرجوع بسياسة القصر الى مثل ما كانت عليه فى عهد أبيه اسماعيل وعهود أسلافه من قبله .

وكان يؤيد وزارة رياض باشا فى برنامج الاصلاح ولا سيما رفع السخرة وتحريم الجلد « أو الكرباج » والتشديد فى محاسبة المديرين على سوء المعاملة ، ويؤيده أكبر التأييد فى توسيع نطاق التعليم وتشجيع العاملين على نشر الثقافة من علماء هذا البلد أو العلماء الوافدين اليه من الأقطار الشرقية .

ولكنه كان يأخذ عليه أن شهوة الحكم غلبته على مشيئته فلم يعتزل الوزارة حين وجب اعتزالها .

وكان يؤيد الشكوى العامة ويشترك فيها بقلمه ولسانه . ولكنه كان يعيب على بعض الشاكين أنهم يمزجون بين الشكوى العامة وبين شكاواهم الصغيرة من قبيل فوات الوظائف والعلاوات ورفض المطالب والشفاعات . وقد كان بعض هؤلاء ينقم على الوزارة خير أعمالها وأجدره بالمؤازرة والثناء : وهو رفع السخرة وتحريم الكرباج .. لأن مصالحهم فى زراعة أرضهم والانتفاع بموارد الرى فى جوارهم كانت تقوم على تسخير الفلاحين وتخويفهم بالضرب وسوء المعاملة بموافقة المديرين

وأعوانهم ، وقد جلبت الوزارة عليها سخط العلية من أصحاب الأموال بتقرير الضريبة التى تحصل للانفاق على تحسين الصحة العامة وتدبير وسائل العلاج على الأصول الطبية ، ولم تكن أمثال هذه الشكاوى بالقليلة بين أصوات الشكوى التى ترتفع باسم الاصلاح ، ومن ورائها أشباه هذه الأغراض واللبانات .

ولهذه الشوائب التى امتزجت بالحركات العامة فى ذلك الحين ، كما تمتزج بها فى كل زمن ، لم يتيسر لذلك العقل الناقد أن يختار له حزبا بين الأحزاب يؤيده كل التأييد ويخذل ما عداه كل الخذلان ، ولم يكن متحيزا فى ثورته الى فريق دون فريق ، الا حين بدرت بوادر الاحتلال الأجنبى بمشايعة الخديو وحاشيته ووجب أن تتفق الأمة فريقا واحدا على مقاومته . فأقدم على مواجهة الخطر الأكبر ولم يحجم لحظة عن مناصرة ذلك الفريق .

أما الوجهة التى استقبلها بكل قلبه ومنحها كل وقته ووقف جهوده كلها على العمل لها واقناع غيره بفضلها ، فتلك هى الوجهة التى خلق لها بالفطرة ورجحتها عنده التجربة بعد التجربة ، وهى ايقاظ حمية الرأى العام للمطالبة برفع المظالم واصلاح أداة الحكم ، وانهاض الأمة على أساس قويم من التربية الاجتماعية ونشر التعليم .

وكان قبل استفحال الخطب يلقى زعماء الثورة وأصحاب الرأى فيها ليقنعهم بفضل هذه الخطة ويحذرهم من عواقب الشطط بالدعوة الوطنية الى ما وراء الغاية المأمونة ، وصرح لهم فى بعض هذه الأحاديث بما يخشاه من سوء العاقبة كما قال

فى بيت طلبة عصمت باشا قائد الاسكندرية : « ان هذا الشعب قد يجر الى البلاد احتلا أجنبيا يستدعى تسجيل اللعنة بسببه الى يوم القيامة » .

وانصرفوا فى ذلك اليوم والزعيم أحمد عرابى يقول مبتسما : « أبذل جهدى فى ألا أكون مورد هذه اللعنة » .

وقد بسط الأستاذ الامام آراء الزعماء وآراءه يومئذ فى تاريخه للثورة العربية ، وسمعنا كثيرا من تفصيلاتها على ألسنة شهودها الثقات ، ويوافقه تمام الموافقة ما سمعه صديقنا الأستاذ المـازنى ونقله عن والده حيث قال من كتابه عن قصة حياته :

« ... ثم قامت الحـركة العرابية وسارت بأسرع مما كان ينتظر ، وكان غرضها تحرير المصريين والتخلص من عناصر الترك والشراكسة المتحكمين المسـتولين على المنـاصب فى الادارة والجيش ، ومضت الى غايتها فى جـو من الدسائس الأجنبية والأطماع الدولية ، فخشى الشيخ محمد عبده العاقبة ، وكان بعيد النظر سديد الرأى فتوقع اذا لج العرابيون فيما هم فيه ، ولم يتحرزوا أو يتوخوا الاعتـدال أن ينتهى الأمر باحتـلال الانجليز لمصر ، فكان لهذا يقاوم العرابيين مقاومة شديدة وينعى عليهم قصر نظرهم وقلة تبصرهم ، ويبسط فيهم لسـانه حتى ضجوا وهـددوه بالقتل اذا ظل يعترض طـريقهم ويناوئهم ، وأراد بعض العـرابيين من أصدقاء الامام أن يصـلح ما بينه وبينهم ، وأنا أعرف هذه القصة لأن الذى حاول اصلاح ذات البين من أقربائى ، ولأن بيت جدى كان هو مكان الاجتماع .

« وتكلم العرابيون ، وتكلم دعاة التوفيق ، ثم تكلم الشيخ محمد عبده ، فأصر على رأيه أن العرابيين باندفاعهم سيجرون على البلاد الاحتلال الأجنبى ، فأخفقت المساعى للصلح والتوفيق .

« وكان أبى من رجال الأزهر وزملاء الشيخ محمد عبده فى الدراسة وتلاميذ السيد جمال الدين ، وان كان لم ينبغ كما نبغوا ، فسأل الشيخ محمد عبده : أكنت تلج هذه اللجاجة فى عنادك مع العرابيين لو كان السيد جمال الدين فى مصر ؟ فكان جواب الشيخ محمد عبده هذه الكلمة المترعة : يا محمد !.. لو كان السيد جمال الدين هنا لما قامت الحركة العرابية ولا احتاج أحد اليها ، لأن السيد كان يغنى بشخصه عن كل ذلك ، وتمثل ببيت من رثاء المتنبى :

كان من نفسه الكبيرة فى جيـ

شٍ وان خِيل انه انسان

« ولما استفحلت الحركة العرابية وضرب الأسطول الانجليزى الاسكندرية ، انضم الشيخ محمد عبده الى العرابيين ، ووضع يده فى أيديهم ، لأن الواقعة قد وقعت وكان ما خاف أن يكون ، فلم يسعه الا أن يكون مع قومه ــ ولو كانوا مخطئين ــ على الغريب . وكان يتمثل ببيتى الحماسة :

بذلت لهم نصحى بمنعرج اللوى

فلم يستبينوا الرشد الا ضحى الغد

وهل أنا الا من « غزية » ان غوت

غويت ، وان ترشد غزية أرشد

« والواقع أن السيد جمال الدين كان كما وصفه تلميذه الأكبر الشيخ محمد : « من نفسه الكبيرة فى جيش » . وهو الذى يرجع اليه الفضل الأول فى قيام الحركة الدستورية فى تركيا ومصر وايران ، وهو الذى أثار نفوس الهنود المسلمين على الاستعمار الانجليزى ، وقد خشيه سلطان تركيا وشاه ايران وخديو مصر والامبراطورية البريطانية » .

***

ويشتمل تاريخ الأستاذ الامام فى الثورة العرابية على أمثلة شتى من أمثلة العظمة بالرأى الأصيل والنظر البعيد والغيرة الصادقة والخلق النبيل ، ولكنه لم يشتمل على موقف من المواقف التى يضرب بها المثل فى سير العظماء على تقديسهم للواجب أنبل من موقفه الأخير منها ، وهى تواجه خطر الاحتلال الأجنبى وتنساق الى المأزق الوبيل الذى يفض عنها الأنصار ويبعد عنها ذوى المآرب والمخاوف ، وانه لأحصف عقلا وأبعد نظرا من أن تخفى عليه العاقبة ولو على سبيل الترجيح ، اذا حال الأمل الطيب دون العلم بها فى ذلك المأزق علم اليقين .

وأى عاقبة ؟ عاقبة الوقوع فى قبضة الاحتلال الأجنبى نفسه ، وأخطر منه وقوع أعداء الاحتلال فى قبضة الخديو المنتصر المنتقم ، ومعه رؤساء جميع الوزارات الذين عاداهم

العرابيون ، وفى طليعتهم أحمد رياض أقربهم الى الأستاذ الامام وأستاذه جمال الدين .

وأنبل من ذلك أنه ثبت على رأيه فى محاربة الاحتلال الأجنبى وخيانة توفيق لوطنه فى مذكرته التى كتبها أثناء محاكمته وقال فيها :

« هل يقدر أحد أن يشك فى كون جهادنا وطنيا صرفا بعد أن آزره رجال من جميع الأجناس والأديان ، فكان يتألب المسلمون والأقباط والاسرائيليون لنجدته بحماس غريب وبكل ما أوتوه من حول وقوة لاعتقادهم أنها حرب بين المصريين والانكليز » .

ثم قال عن مؤامرة الخديو لحرق القاهرة انه « شاع فى القاهرة أن الخديو سيسعى بواسطة بعض أتباعه ليحدث شغبا فى نفس القاهرة ، الى حد أن الوزارة احتاطت لمنع الفتنة وبالغت فى ذلك طول مدة قيامها بالأمر ، واستدعى الخديو ابراهيم بك توفيق مدير البحيرة وطلب اليه أن يجمع مشايخ قبائل البدو ويحضرهم اليه ، ففعل وبالغ الخديو فى حسن استقبالهم وأكثر لهم من المواعيد ، ثم أوعز الى المدير أن يأمرهم بحشد ثلاثة آلاف بدوى واحضارهم الى القاهرة بطريق الجيزة ليحدثوا فتنة فى البلد لعدم وجود النظام بينهم ، ولكنه تعذر على المشايخ حشد العدد المطلوب من البدو فحذف هؤلاء من العسكر . ولما فشل مسعاه هذا أرسل تلغرافا رمزيا الى محافظ اسكندرية هذا نصه : قد ضمن عرابى أمر الأمن العام ونشر

ذلك فى الصحف وجعل نفسه مسئولا لدى القناصل ، واذا نجح فى ضمانه هذا وثقت به الدول وصغر شأننا . أما الآن وأساطيل الدول فى ميــاه الاسكندرية وعقول النــاس متهيجة فوقوع الخلاف بين الأوربيين وغيرهم أمر محتمل ، فاختر لنفسك اما خدمة عرابى فى ضمانه أو خدمتنا » .

الى أن قال : « وفى يوم هذا الحادث توجهت الى السراى فرأيت موظفيها فى جذل عظيم مما حدث وكانوا يبــالغون فى رواية الأخبار ويضحكون من عهد عرابى بالمحافظة على الأمن العام . ومن المعلوم أن موظفى السراى لا يقولون الا ما يسر الخديو ، فاذا كانت الأخبــار سارة تكلموا وضــحكوا والا تظاهروا بالحزن والكآبة جهدهم » .

***

وهكذا جمع الشــيخ الســجين فى تقرير واحد بين اتهام السلطتين ، ولم يخطر له أن يدارى احداهما ليأمن شرها ويحتمى بها من الأخرى ، كما فعل كثير من الذين قدموا الى المحكمة العسكرية ، وهم يعلمون أنها خاضعة للسلطة الانجليزية وأن أحكامها تعرض على القصر الخديوى ومجلس النظار لاقرارها .

وقد تلقى هــذا التقرير محــامى العرابيين برودلى صاحب التاريخ المستفيض عن محاكمات الثورة ، وكان الشيخ محمد عبده يعرض عنه لأنه لم يقبل فى بادىء الأمر أن يدافع عنه محام انجليزى ، مع علمه بنظام المحاكم الخاصة وصعوبة الدفاع وفاقا

لهذا النظام على غير المختصين من الانجليز ، ثم علم أن شاعر الأحرار (بلنت) صديق القضية الايرلندية والقضية المصرية هو صاحب الرأى فى اختياره فقبل آن يفاتحه بأوجه دفاعه ، وقال المحامى فى ذلك ان الشيخ محمد عبده « لم يتخلص من تأثير الصدمة الناشئة عن توقيفه الا فى أواخر أيامه فى السجن ، وحينئذ أخذ يعاملنا بتلك الثقة التى سعينا لاستحقاقها » .

وان هذه الصدمة ــ كما سماها برودلى ــ لهى خير مثال لذلك التفاهم العسير بين عقول الشرقيين والغربيين فى الدوافع النفسية التى تخامرهم ابان الفتن الاجتماعية ، ولعلها سبب من أسباب ارتياب الشيخ محمد عبده فى نية محاميه آه ودرته . فان الشيخ قد سئل كما سئل غيره ــ وكان عمله فى الثورة غير عملهم ودواعيه الى المشاركة فيها غير دواعيهم ــ فنفى بطبيعه الحال أكاذيب الشهود الملفقين وتهم الأذناب المسخرين من قبل القصر والحاشية ، ولم يعترف من التهم بغير الواقع الذى وقع منه رأيا وعملا ، وكله ــ كما رأينا ــ أخطر من أن يعد الاعتراف به نكوصا عن التبعة وتنصلا من الجريرة ، فخيل الى برودلى أن موقف الشيخ السجين ــ بين ما نفاه عن نفسه وأنكره من شهادة غيره ــ انما كان ضعفا تبتلى به النفوس الشرقية فى أمثال هذه الشدائد . وليس أسهل عند هؤلاء الغربيين من مداراة سوء الفهم عندهم بالخلاف المزعوم بين طبائع الشرقيين وطبائع الغربيين .

على أن هذا المحامى نفسه لم يستطع أن يحجب عن عقله

عظمه الرجل فى غير ما توهمه من أثر « الصدمة » ... وأشاد بمواهبه الخارقه فى غير موضع من كتابه فقال : « انه ربما كان أعظم الناس موهبة بين الرجال الوطنيين المصريين .... ولا شك أنه ساعد من قبل كثيرا على جعل الرأى العام عاملا حقيقيا فى الترقى المصرى ولم يكن متهوسا فى الدين ، بل هو من المسلمين القائلين بالتوسع الشديد ، وكانت أفكاره السياسية تنطبق على الرأى الجمهورى الحر .... ووطنيته التى لا شائبة للأنانية فيها هى التى حالت دون استياء رفقائه المتحمسين من خطته الدينية علانية . حتى ان عرابى باشا صديقه قال عنه مرة : ان رأى الشيخ عبده أصلح للقبعة منه للعمامة » .

ثم كتب بعد توديعه : « فى مساء اليوم الأول من شهر يونية سنة ١٨٨١ ودعت فى الظلام محمد عبده الذى ذهب أخيرا منفيا عن القطر المصرى مدة ثلاث سنوات .... واذا جاز لمصر أن تسير منفردة أو يكون لها بداءة خير يوما من الأيام فانها لا يسهل عليها الاستغناء عن مثل الشيخ محمد عبده العالم المحرر ... » .

ولو أن المحامى كاتب هذه النبوءة أتيح له أن يمد بصره وراء السنوات الثلاث لعلم أن البلاد لم تستغن حقا عن الشيخ محمد عبده ، وعلم قبل ذلك أن أمانة الصدق التى عهدها فى « موكله » هى التى حملته على أن ينفى ما نفى ويثبت ما أثبت ولم يحمله على ذلك خوف العقاب . فانه لم ينقطع عن حملته على الاحتلال وعلى الخديو صنيعته فى قلب العاصمة البريطانية ،

وهو يعلم أنه ـ بذلك ـ يطيل منفاه أبدا ، وقد طال منفاه فعلا فعاد الى مصر بعد انقضاء موعد النفى بخمس سنوات .

***

ولسنا فى هذا الفصل بصدد البحث عن ظروف الثورة العرابية وتبعات زعمائها ودعاتها وجرائم خصومها وأشياعها المندسين عليها ، ولكننا نستغنى عن ذلك فى هذا المقام بوزن هذه الثورة بميزان الثورات عامة ، ونعود الى طبائع الثورات جميعا فى الشرق والغرب ، فنرى أن الثورة العرابية لم تكن بدعا بينها ، لأنه ما من ثورة حدثت قط الا اشترك فيها الأنصار والخصوم على اختلاف الأفكار واختلاف الأمزجة واختلاف النيات واختلاف المظاهر والألوان ، ولا يختلط هؤلاء فى هذا الطوفان المريج الا اختلطت الأعمال والتبعات وأفلت الزمام من الأيدى واختفى الزمام حينا عن الأبصار والبصائر فلا يدرى من هو القابض عليه ومن هو المتخلى عنه ، ولا يعرف أين كان مبدؤه ومنتهاه بين أيدى الأنصار وأيدى الخصوم .

ومن طبائع الثورات أن يخطىء الانسان خطأ لا حيلة له فيه وأن يكون خصمه هو المسئول عن خطئه ... ومن طبائعها أن تكون الثورة كالمطية الجموح تسوق من يركبها ولا يسوقها الى غير مجراها ، بل من طبائعها أن تنقسم الصواب والخطأ فلا يكون الصواب كله يوما فى جانب ولا يكون الخطأ كله فى جانب ، وهكذا كانت الثورة العرابية بعد اندفاعها ان لم تكن

كذلك عند بداءتها وقبل استفحالها ، وربما كان من خطأ الشيخ محمد عبده ــ بمذهبه السوى فى الاصلاح ــ انه كان كالمهندس الذى حاول أن يسوس مجرى السيل كما يسوس مجرى النيل ... ولكن الفارق بينه وبين الأكثرين من مخالفيه أن خطأه لم ينجم عنه ضرر ، وانه أدرك الأضرار التى تنجم عن أخطائهم وهم غافلون عنها ، وانه لم تكن له يد فيها ولكنه اضطلع معهم بجميع تبعاتها ولم يتركهم وحدهم ــ حين جد الجد ــ لاحتمال جريرتها .

القضية القومية

انتظم محمد عبده فى سلك الحزب الوطنى منذ نشأة هذا الحزب قبيل عزل الخديو اسماعيل .

وقد تؤدى تسمية تلك الهيئة السياسية بالحزب الى لبس كثير فى أذهـــان المعاصرين الذين ألفوا نشــوء الأحزاب على وضعها الحديث .

فان الحزب الوطنى الذى انتسب اليه معظم المشتركين فى الثورة العرابية لم يكن حزبا يقابل أحزابا آخرى من أبناء البلاد تتعارض فى المبادىء والبرامج على النحو الذى نعهده اليوم فى الأحزاب السياسية ، ولكنه كان فى حقيقته هيئة واحدة شاملة للحركة الوطنية فى جملتها . وانما سمى بالحزب ليقابل جماعة الشراكســة والترك والألبانيين والأرمن الذين كانوا يتبعون الدولة العثمانية وينفردون بولاية الحكم فى الوظائف الكبيرة وأكثر الوظائف الصغيرة .

فالحزب الوطنى على هذا الاعتبار كان هو حزب المصريين الفلاحين أو حزب الأمة المصرية ، ومن أجل هذا كان شــعاره « مصر للمصريين » جامعا لمبادئه المتعددة فى كلمتين اثنتين ، أو هو فى الواقع كان مبدأ واحدا يجرى تطبيقه على مختلف المسائل التى كانت تدخل فى نطاق القضية القومية بجميع جوانبها .

كان رفع المظالم عن أبناء البلاد ومحاربه الفساد والاسراف فى دواوين الحكومه هو مبدأ المبادىء فى سياسه الحزب الوطنى منذ تأليفه قبل نهاية حكم الخديو اسماعيل . وينطوى فى هذا المبدأ أن يصير حكم البلاد الى أيدى أبنائها الذين أصابهم الظلم من حكم « العثمانيين » غير المصريين ، وينطوى فى هذا المبدأ أيضا منع التدخل الأجنبى الذى جرت اليه سياسة الاسراف والبذخ أو سياسة الديون فى عهد اسماعيل على الخصوص . وينطوى فيه تنظيم أداة الحكم والتوفيق بين مقاصد الحكام ومقاصد الرعية .

وكان محمد عبده فلاحا بمولده وتربيته ينتمى الى قرية نشأت فى ظل عهد الاقطاع ، وكان مصابه ومصاب أهله من ظلم الطبقة الحاكمة أشد وقعا فى نفوسهم من مصاب اخوانهم أبناء القرية ، لأنهم كانوا بمنزلتهم الاجتماعية هدفا لأنظار الحاكم المتسلط ، وحائلا فى كثير من الأحيان بينه وبين أغراضه من عامة الرعية ، فكان مصابهم بالظلم مضاعفا لأنه مصاب فى الرزق ومصاب فى الكرامة . وكانت ثورته على « الراعى » الجائر ثورة من يشعر فى قرارة نفسه بأنه أهل للمنازعة مع ذلك الراعى الجائر ، وليس قصاراه أنه أهل للخضوع أو للسخط فى صمت واستسلام ، واستفادت هذه الثورة من التعليم والرياضة الروحية أنها أصبحت عقيدة من عقائد الضمير ولم ترتهن بحدود القرية أو الطبقة ولا بحدود المصلحة الاجتماعية أو السياسية .

وكانت حماسة النخوة سليقة فى الرجل كما أسلفنا ، وهى

شيء غير اندفاع التطرف الذى يساور بعض ذوى الآراء ، وان التبس أمرهما أحيانا على من يحكم عليهما بالمظاهر والأشكال .

فان تطرف الاندفاع قد يأتى من الخفــة والعجلة ، ولكن حماسة النخــوة تأتى على الأكثر من شــعور عميق وعقيدة متأصلة ، وربما كانت حماسة النخوة عونا لصاحبها على الصبر الطويل ، ولكن خفة التطرف قد يســتثيرها الغرض العــاجل أو تموت .

كذلك ينبغى أن نفرق بين الاندفاع والاقدام ، لأنهما قد يتلاقيان أحيانا وقد يكون الافتراق بينهما أكثر من اللقاء ، فربما اندفع المندفع الى الفرار كما يندفع الى الاقدام ، ولكن المقدم فى غير اندفاع هو فى الحقيقة ثابت حيث كان ، وان خيــل الى أناس أنه مدفوع الى غير ما أراد .

وتاريخ محمد عبده فى خدمة القضــية القومية هو تاريخ الاقدام الى أقصى حدوده ، ولكنه لم يكن قط تاريخ الاندفاع مع الخفة والعجلة ، لأن نظرته الى الغرض القريب لم تعجله قط عن النظر الطويل الى الغرض البعيد ، وهو الغرض الدائم وراء جميع الأغراض .

وقد أقدم يوما على الترصد للخديو اسماعيل عند قصر النيل للقضاء عليه ــ أولى من الانتظار به الى أزمة بينه وبين الدول تزيله عن عرشه ــ ولولا أنه أخطأه فى هذه المرة وسنحت الفرصة للتفاهم مع ولى عهده على تعديل سياسة أبيه بعد عزله ، لزال اسماعيل عن العرش مقتولا فى أغلب الظن ولم يزل معزولا

كما أراد جمال الدين وحزبه فى الساعة الأخيرة ، وقد كان التآمر على العزل خطراً لا يقل عن خطر الأقدام على القتل ، وليس لاندفاع التطرف مذهب وراء مذهب الاقدام على هذين الخطرين .

***

ولما نشبت الثورة العرابية كان حذره من السيطرة الأجنبية أشد من حذر العرابيين وحذر الخديو توفيق ، لأنه لم يخالف العرابيين فى أدوار الثورة الأولى الا خشية الاحتلال الأجنبى الذى يجر على جالبه لعنة الأبد كما قال ، ولم يؤيد الثورة كل التأييد فى مرحلتها الأخيرة الا لأن الخديو توفيق جنح الى الدولة المحتلة وحارب جنوده بجنودها .

وفى كل أولئك كان محمد عبده أشد اقداما على الخطر من الجميع : كان أشد منهم اقداما فى معارضة الثورة حين عارضها ، وأشد منهم اقداما فى تأييدها حين أيدها ، وكان أبعد منهم نظرا وأصدق منهم غيرة فى كلتا الحالتين .

ولما وقع المحظور ودخل الانجليز مصر محتلين ، وبارحها محمد عبده منفيا عن وطنه ، كان هذا المنفىُّ أسبق أبناء الوطن الى عاصمة الدولة الانجليزية ليعلن الحرب على الاحتلال فى عقر داره ، وقال لهم فى صحافتهم : « اننا نرى أن انتصاركم للحرية انما هو انتصار لما فيه مصلحتكم ، وان عطفكم علينا

كعطف الذئب على الحمل ، ولقد قضيتم على عناصر الخير فينا لكى تكون لكم من ذلك حجة للبقاء فى بلادنا » .

وبلغ فى الصراحة معهم ما لم يبلغه قائل من بعده حيث يقول لصحيفة البال مال :

« لم لا تغادرون بلادنا فى الحال ؟ لقد علمنا الانجليز شيئا واحدا هو التضامن فى مطالبتكم بالجلاء .... شكونا من الأتراك لأنهم أجانب عن وطننا ، وأردنا لبلادنا اصلاحا وتقدما كتقدم الأوربيين فى طريق الحرية . لكننا الآن نعلم أن هنالك ما هو شر من استبداد الحكام ، وشر من ظلم الأتراك ، وليس فى مصر من بلغ به الظلم حدا يرجو معه مساعدتكم . ان لنا اليكم رجاء واحدا ، وهو أن تغادروا بلادنا حالا الى غير رجعة » .

ولما سأله محرر الصحيفة عن الخديو توفيق كانت مشايعتهم هى الجريمة الكبرى التى نعاها عليه فى وجوههم اذ قال : « ان توفيقا أساء الينا أبلغ السوء لأنه مهد لدخولكم بلادنا ، وانضم أيام الحرب الى أعدائنا ... ولا يمكننا أن نشعر ازاءه بأقل احترام » .

قال هذا وهو لا يبالى أن يظل منفيا عن بلاده أبدا . لأنه لن يعود على غير رضى الخديو صاحب السلطة الشرعية ورضى المحتلين أصحاب السلطة الفعلية ، وقد بقى فعلا غير مأذون له بالعودة بعد انقضاء الموعد المحدود لنفيه ، وهو ثلاث سنوات .

وانقضت فترة من هذه السنين فى الحملة السياسية على الاحتلال بين لندن وباريس ، وكان محمد عبده فى صحبة جمال

الذين قد اختارا هذه المدينة مركزا لنشاطهما السياسى ، لأنها عاصمة الدولة الفرنسية التى كانت تنافس الدولة البريطانية وتساومها على مشاكل القضية المصرية . فكان من أملهما أثناء الحملة على الاحتلال البريطانى أن تثار القضية كلها فى ميدان السياسة الدولية لمطالبة الانجليز بالجلاء عن مصر ، وأن يكون مثار الحملة من باريس بعد مضى السنوات الأولى على دخول الجنود الانجليزية الى قلاع القاهرة والاسكندرية ، وبعد صدور الوعود الأولى من وزراء لندن باقتراب موعد الجلاء .
ثم انقضت السنوات فى التجارب التى ابتلى بها الحكيمان من معاملة الساسة الغربيين والساسة الشرقيين ، وكان أثرها جميعا شعورا عميقا بخيبة الأمل وضياع الجهد فى هذا السبيل . فأما ساسة الغرب فقد كانت قضايا الأمم عندهم صفقات للمساومة وتبادل الغنائم والاتفاق على توزيع المستعمرات الجديدة بعد المستعمرات التى يثيرون قضاياها ... وأما ساسة الشرق فقد كانت مخاوفهم من تحرير شعوبهم كمخاوف الأجنبى من تحرير مستعمراته المغلوبة ، وكان الأجنبى يستعين بهم على توطيد حكمه بين التهديد بالخلع والترغيب فى فضلات السلطة من يديه . فخلفت خيبة الأمل فيهم جميعا مرارتها التى تعصف بالأمل لولا قوة اليقين وانصراف العزيمة الى العمل فى غير هذه السبيل . وقد ندرك قسوة أذاها فى نفس الأستاذ الامام من كلماته عن السياسة وسوء أثرها فى نهضات التقدم بعد أكثر من عشر سنوات قضاها فى تجارب شتى لما أصابه منها ، فقال

فى كتابه عن الاسـلام والنصرانية : « ان شئت أن تقول ان السياسـة تضطهد الفكر أو العـلم أو الدين فأنا معـك من الشاهدين . أعوذ بالله من السياسة ومن لفظ السياسة .... ومن ساس ويسوس وسائس ومسوس ! . » .

***

لقد كان للعزيمة الصادقة عملها أمام هذه الخيبة القاسية .

وكانت هى العزيمـة التى لا يشـغلها الغرض القريب عن الغرض البعيد ، ولا ييئسها الأمل الضائع أن تصمد للأمل الذى لا يضيع .

ونفس أخرى كانت هذه الخيبة خليقـة أن تضربها بضربة الوهن والقنوط فتهجر السياسة وتهجر القضية معها .

ولكنها كانت عزيمة تصـدق نفسها اذا كذبتها السياسة الخادعة ... فاستحالت بكل ما فيهـا من قوة اصرارا على ترك السياسة والاقبال على العمل فى الطريق الذى لا عوج فيه الى الغاية التى لا ريب فيها ، وقضت على السياسة عنـدها بهذا الاصرار قبل أن تقضى السياسة عليها .

لا تعويل بعد اليوم على السياسة ولا على الساسة ، وانما التعويل كله على الأمم . ولا معول للأمم فى جهادها أنفع لها وأصدق فى المضى بها الى غايتها من العلم الحى والتربية القويمة .

ولقد كان يقول للمقربين اليه من مريديه : لو كان فى هذه الأمة مائة رجل لما استطاع الانجليز أن يحكموها ، ولما أدركوا

منها أربا فى حكمهم اياها ، وانما الرجل عنـــده صاحب الفكر البصير والخلق المكين : صاحب الكفاءة الذى ان وجد فى الأمة قادها لا محالة ولم يتمكن أجنبى ذو سطوة أو ثروة أن ينازعه على قيادها .

***

بهـــذه العزيمة عاد من منفـــاه وهو ينيف على الأربعين ، ولا بديل له من استكانة اليأس الا أن يقبل بكل ما أوتى من الثبات والأمل على العمـــل الذى آمن بأنه رســـالته الباقية فى الحياة ، ووثق من جدوى الاعتماد عليـــه طوال الزمن ، اذ لا جدوى للاعتماد على السياسة والساسة غير خداع السراب .

ولو أننا ألقينا على لسانه كلاما يقوله فى هداية التعـــليم كالذى قاله فى ضلال السياسة لخلناه قائما قاعدا يقول : « بارك الله فى العلم والتعليم ، وفى علم وتعلم ، وفى عالم وعليم ومعلوم ، وفى كل حرف من حروف العين واللام والميم ! » .

تقرب من الخديو فلم يكن تقربه اليـــه ليخدم سياسته ، ولكنه أراد أن يقود الخديو الى احياء النهضة العلمية فى أقدم الجامعات الشرقية ، وأن يجرى على يديه تطهير الدواوين حيث يتصل الديوان بأعمال الخير والاحسان ، أو يتصل بتربية البيت وصيانة الأسرة وحسن الوصاية على الأزواج والأبناء .

وبعد بضع عشرة ســـنة لمع فى أفق السياسة آخر بروقها الخلابة فى فضاء القضية القومية ، وعرضت الدولة الفرنســـية

سرابها الأخير على الذين استنجدوا بها لانقاذ مصر من مهاوى الاستعمار ، ثم أسفرت مساعى الخفاء عن العلن المكشوف فاذ هو اتفاق بين الدولتين ـ بريطانيا وفرنسا ـ على تبادل التصرف المطلق فى مصر ومراكش ، تفعل كل منهما ما تشاء بالبلد الذى استولت عليه وتتفقان معا ذلك الاتفاق الذى سموه بالودى لاقناع الدول الأخرى بمثل هذا التفاهم على صفقات الاستعمار .

واطمأنت بريطانيا العظمى الى مكانها بوادى النيل ، وبدا لها أنها اذا نزلت للمصريين عن سلطانها على الحكومة لم يتأولوا ذلك بالاضطرار اليه خوفا من اثارة قضية مصر فى محيط السياسة الدولية ، ولكنهم يتقبلون منه ما يرضيهم باختيارهم ويرضى الدولة المحتلة باختيارها . فأرسلت صديق العرابيين القديم ـ سكوين بلنت ـ يسأل مفتى الديار رأيه فى أسس الدستور التى يقام عليها بناء الحكومة ونظام الادارة ، فكانت خلاصة جوابه على ما يفهم من بين سطور الصحف التى حرفت هذا الجواب : أن يكون الدستور مقيدا لسلطة الاحتلال وسلطة الخديو ، وأن يكون اعلانه ضمانا من السلطتين باحترامه ومنع المساس بحقوقه ، وأن يكون للرئيس المصرى حق جدى فى ديوانه فلا يكون عمله فيه عالة على الرؤساء الانجليز ، وأن يكون نظام التعليم اجبارا فى جميع أنحاء البلاد ، وأن تكون للمجلس النيابى حقوق الاشراف على السلطة التنفيذية أو سلطة الوزارة ، فاذا اختلف مجلس النواب

ومجلس الوزراء عرض الخلاف على هيئة مشتركة من النواب وقضاة محكمة الاستئناف ، وتلتزم الوزارة بحكم هذه الهيئة فلا يكون لولى الأمر من سلطان على هذا الحكم ، الا ما يتقبله الوزراء ويحتملون تبعته فى حدود الدستور والقانون .

كان هذا قبيل وفاة المفتى بسنة واحدة (١٩٠٤) وكان للاحتلال أجل فى علم الغيب لم ينته قبل نيف وخمسين سنة ، ولم يكن له فى علم الانسان آجل محدود ، ولكنه لم يكن أمل الغد القريب بعد بضع سنوات على كل حال ، ولو آنه كان — مع التفاؤل الطامح — أمل سنوات عشر أو عشرين لما كان فى الوسع أن تدار الحكومة خلال هذه المدة بالدعوة الى الاضراب وترك الحكم كله بين أيدى المحتلين ، ولو بدأت الدعوة الى الاضراب فى تلك السنة لما نفذت ولا تم الاتفاق عليها قبل انقضاء تلك السنين . فليس تقدير وقوع الجلاء فعلا فى تلك السنة الا تسجيلا بعبارة أخرى لانفراد المحتلين بالولاية على الدولة بمعزل عن أبناء البلاد فى جميع الدواوين .

وقد كان المفتى موظفا يتولى عمله فى خدمة بلاده مع مئات من خيرة أبناء الوطن فى مناصب الوزارة والقضاء والتعليم والبناء والتعمير ، فاذا كان العاملون فى السياسة قادرين على تبليغ أماناتهم بالكتابة فى الصحف والخطابة على المنابر ، فأمانة الموظف الذى يخدم بلاده لا تؤدى فى غير الديوان ، ولا يزال لقاء المستشار والمفتش والعميد عملا من أعماله المتكررة ان لم تكن من أعماله اليومية ، وبخاصة مستشار وزارة المال ووزارة

التشريع ، ولا تؤدى وظيفة واحـــدة بغير الرجــوع الى هاتين الوزارتين .

ولا موجب هنا للموازنة بين من يعدون الأمم للاستقلال بالدعوة السياسية ومن يعدونها للاستقلال بالتربية والتعليم . فان الأمم تستطيع على الدوام أن تعتمد على كلتا الخطتين وأن ترشح لكل منهما من هو أصلح لها وأقدر عليها وأرغب فيها ، وليس ثمة من ضرورة توجب عليها أن تختار هـــذه وحدها أو تلك وحدها ، منفصلتين غير مجتمعتين .

وانما المسألة هى مسألة هذا المصلح القدير على الاصلاح . أى الخطتين يختار ، وأيتهما ترجى منه منفعتها ، ويؤمن فيها على وقته وجهده من الضياع والفوات .

ان هذا المصلح الذى تمت له عدة الاصلاح وقيادة الأمة فى طريق التقدم والحرية ، قد جرب السياســـة فلم تثمر له ثمرة يرضاها .

انه آمن بأن عمل السنين فى السياسة والاعتماد على الساسة قد يضـــيع ولا يبقى من أثره ما ينفع ، بل قد يبقى من أثره ما يضير ولا تمحو ضيره الأيام والسنون ، ولكن عمل السنين فى تربية الأمة وتعليمها لن يضيع ولن يذهب سدى ، ولن يندم عليه العامل ولا الأمة التى يعمل لها ، قصرت بها الطريق أو طالت الى غايتها من التقدم والحرية .

انه ابتلى من السياسة والساسة بتلك الخيبة التى بغضتها اليه وأورثته تلك المرارة « النفسية » التى جعلت كل عمل فيها

عصة لا تطاق وأذى لا يحتمل ، ونفرته منها ذلك النفور الذى يصد العزيمة عنها ويدحض الرجاء فيها ، وليس من طبيعة الغيرة الصادقة أن تمضى الى وجهة تصد عنها أو تخدع النفس عن السعى الذى لا رجاء فيه . فليس له ولا لأحد أن يصرفه عن العمل الذى يرجو جدواه ، ليكرهه على العمل الذى لا يجدى عنده ، وان أجدى كثيرا أو قليلا عند غيره .

وأياً كان راى التاريخ فى جدوى الخطتين على قضية مصر فلا خلاف فى رجحان كفته على كفة خصـــومه بميزان الصدق والاخلاص والمروءة الجديرة بأمثاله من دعاة الاصـــلاح . لأنه آمن بخطته ولم يعطل على أحـــد خطة يؤثرها ويطمـــئن الى عقباها . ولكن خصومه قد سوغوا أسوأ ظنونه فى السياسة يوم صدوه عن طريقه ونصروا عليه أعداءه وأعــداء رسالته الباقية ، وكان أسوأ ما صنعوه أن يحسبوا عليه حماية القانون لمنصبه اخــلالا بالوطنية وهم يحمدون لولى الأمر أن يطأطىء رأسه لراية الاحتلال كى يغنم من المحتلين اغضاءهم عن عبثه بوظائف الحكومة ، وهو لا يرمى بذلك العبث الى شىء غير محاربة العلم واتهام الدين بما هو برىء منه ، اذ يجعله حائلا بين المسلم وبين علوم الحضارة فى القرن العشرين .

فى الأزهر

وقفنا بتاريخ الأزهر الحديث عند أوائل النصف الأخير من القرن التاسع عشر ، وهو يومئذ حومة صراع خفى بين طلاب الاصلاح المجددين وبين شيعة الجمود والتقليد من المحافظين على القديم : اذا تولاه شيخ عصرى ، أو شيخ فتى بالقياس الى شيوخه المعمرين سعى سعيه البطىء الى تنظيم الادارة وترتيب أوقات العمل ، ومواعيد الامتحانات وشروطها دون مساس بجوهر التعليم من موضوعات الدروس وكتب التدريس وأشخاص المدرسين ، واذا أحس ولاة الأمر بادرة السخط على هذا النصيب المقتصد من الاصلاح البطىء أعادوا اليه شيخا من المشهورين بالتعصب للقديم ، وأعادوا الأزهر فى الحقيقة الى ذلك الشيخ ليتولى عنهم ستر نياتهم نحو الاصلاح ويدفع عنهم بجموده وتقليده شبهات العدوان على حرمات هذا المعهد العتيق ، بل شبهات العدوان على حرمات الدين ، اذ كان كل تغيير فى المألوف بينهم لا يقل عن سبة الخروج من الدين .

وكانت الحكومة — كما تقدم — تخشى أن تتعرض لهذه الشبهات فى زمن تكاثرت فيه الشبهات عليها من سياستها الأجنبية ، وأوشكت هذه السياسة أن تجعلها رهينة بالسلطان الأجنبى فى أمور القضاء والتشريع وفى أمور « الامتيازات

الأجنبية » على التعميم ، فلم تكن لها بقية من السمعة الحسنة في هذا الباب تجازف بتعريضها للثورة عليها من رجال الدين ، في أكبر معاهد الاسلام . فاتبعت مع الأزهر خطة الانتظار وآثرت أن تتلقى طلب الاصلاح من أهله فتلبيه ؛ وظلت على هذه الخطة لا تجرؤ على تبديلها الى ما بعد الاحتلال البريطاني واستيلاء المحتلين علانية على دواوين الحكم بدعوى الاصلاح والتنظيم .

عندئذ تحول الموقف كله من جانب السلطة الشرعية أو سلطة الخديو بمعزل عن وزرائه وموظفيه ، فان استئثار المحتلين بدعوى الاصلاح والتنظيم في دواوين الحكومة جميعا لم يدع له مكانا يعمل فيه منطلق اليدين غير الجامع الأزهر وديوان الأوقاف والمحاكم الشرعية ، وهي الجهات الدينية التي أمسك المحتلون عن التعرض لها الا فيما يتعلق منها بميزانية الدولة كوظائف القضاة الشرعيين وموظفي المحاكم الشرعية ، فأصبح من همّ الخديو أن يدفع عنه تهمة العجز عن الاصلاح والتنظيم فيما بين يديه من الدواوين والمعاهد . فان هذا العجز حجة عليه وعلى الحكم الوطني برمته في أيدي السلطة الأجنبية ، وبرهان محسوس يرتكن اليه المحتلون — أمام العالم — كلما التمسوا ذلك البرهان المحسوس للحجر عليه وعلى أداة الحكم التي ترتبط بها « المصالح الأجنبية » ودعوى الامتيازات .

ومع هذه الضرورة الملحة على ولي الأمر لم يجرؤ على « اقتحام العقبة » بغير تمهيد يعفيه من تهمة التهجم على حرمة

المسجد وتقاليد الدين ، فدبر مع المخلصين من طلاب الاصلاح « حيلة شرعية » للبدء بالاصلاح المطلوب ، واتفقوا على استفتاء شيخ الجامع الأزهر ومفتى الديار المصرية فى مسألة العلوم التى يجوز تدريسها بالجامع ولا تعتبر العناية بها فى أماكن العبادة مخالفة للتقاليد الاسلامية ، وكلفوا عالما تونسيا فاضلا — هو الأستاذ محمد بيرم ، أشهر علماء جامع الزيتونة فى عصره — أن يتوجه بهذا الاستفتاء الى الشيخ محمد الانبابى شيخ الجامع يومذاك (١٣٠٥ هـ ١٨٨٧ م) فكتب اليه بعد تمهيد وجيز :

« ... ما قولكم رضى الله عنكم : هل يجوز تعلم المسلمين للعلوم الرياضية مثل الهندسة والحساب والهيئة والطبيعيات وتركيب الأجزاء المعبر عنها بالكيمياء وغيرها من سائر المعارف ، لا سيما ما ينبنى عليه منها من زيادة القوة فى الأمة بما تجارى به الأمم المعاصرين لها فى كل ما يشمله الأمر بالاستعداد ؟ بل هل يجب بعض تلك العلوم على طائفة من الأمة بمعنى أن يكون واجبا وجوبا كفائيا على نحو التفصيل الذى ذكره فيها الامام حجة الاسلام الغزالى فى احياء العلوم ونقله علماء الحنفية أيضا وأقروه ، واذا كان الحكم فيها كذلك فهل يجوز قراءتها مثل ما تجوز قراءة العلوم الآلية من نحو وغيره الرائجة الآن بالجامع الأزهر وجامع الزيتونة والقرويين ... أفيدوا الجواب لا زلتم مقصدا لأولى الألباب » .

وقد كان الأستاذ الانبابى يعلم مصدر الاستفتاء فلم يهمله كما أشار عليه بعض أعوانه ، وكتب فى جوابه ما يلى :

« ... يجوز تعلم العلوم الرياضية مثل الحساب والهندسة والجغرافية ، لأنه لا تعرض فيها لشيء من الأمور الدينية ، بل يجب منها ما تتوقف عليه مصلحة دينية أو دنيوية وجوبا كفائيا ، كما يجب علم الطب لذلك ـ كما أفاده الغزالى فى مواضع من الاحياء ـ وأن ما زاد عن الواجب من تلك العلوم مما يحصل به زيادة فى القدر الواجب فتعلمه فضيلة ، ولا يدخل فى علم الهيئة البـاحث عن أشكال الأفلاك والكواكب وسيرها علم التنجيم المسمى بعلم أحكام النجوم وهو الباحث عن الاستدلال بالتشكلات الفلكية على الحوادث السفلية ، فانه حرام كما قال الغزالى وعلل ذلك بما محصـله أنه يخشى من ممارسـته نسبة التأثير للكواكب والتعرض للأخبار بالمغيبات ، مع كون الناظر قد يخطىء لخفـاء بعض الشروط . وأما الطبيعيـات ـ وهى الباحثة عن صفات الأجسام وخواصها وكيفية استحالتها وتغيرها كما فى الاحياء فى الباب الثانى من كتاب العلم ، فان كان ذلك البحث عن طريق أهل الشرع فلا منع منها كما أفاده العـلامة شهاب الدين أحمد بن حجـر الهيتمى فى جزء الفتاوى الجامع للمسائل المنتشرة ، بل لها حينئذ أهمية بحسب أهمية ثمرتها ، كالوقوف على خواص المعدن والنبات المحصل للتمكن فى علم الطب ، وكمعرفة عمل الآلات النافعة فى مصلحة العباد ، وان كان على طريقة الفلاسفة فالاشتغال بها حرام لأنه يؤدى للوقوع فى العقائد المخالفة للشرع كما أفاده العلامة المذكور . نعم يظهر تجويزه لكامل القريحة الممارس للكتاب والسنة للأمن عليه مما

ذكرنا قياسا على المنطق المختلط بالفلسفة على ما هو المعتمد فيه من أقوال ثلاثة ثانيها الجواز مطلقا ونسبه الملوى فى شرح السلم للجمهور ، وثالثها المنع مطلقا ونسبه صاحب السلم لابن الصلاح والنووى . قال الملوى : ووافقهما على ذلك كثير من العلماء ، ولما كان الامام النووى ممن يقول فى المنطق بالمنع مطلقا مشى على نظير ذلك فى الطبيعة ، فعد فى كتاب السير من الروضة من العلوم المحرمة علوم الطبيعيات بدون أن يفصل . لكن حيث يعتمد التفصيل هناك فلنعتمده هنا . اذ لا فرق فى ذلك ، فان مظنة الضرر والنفع موجودة فى كل منهما ... » الى آخر الجواب مما يدل عليه أوله المتقدم .

وبعد أسبوعين من صدور هـذه الفتوى من قبل شيخ الأزهر ـ الشافعى ـ صدرت الموافقة عليها من مفتى الديار المصرية ، وهو حنفى المذهب ، فقال ان « ما أفاده حضرة الأستاذ شيخ الاسلام موافق لمذهبنا وما استظهروه من أن الخلاف الجارى فى علم المنطق يجرى فى علم الطبيعة أيضا وجيه ، والله سبحانه وتعالى أعلم » .

❋❋❋

ويستطيع الناظر فى تضاعيف هذه الفتوى أن يلمح منها أنها تفتح الباب فيما أباحته للتفرقة بين طريقة وطريقة وغاية وغاية . ولا سيما فى المنطق والطبيعيات ، فلا يشق على المعارض فى تدريس علم منها أن يؤجل تدريسه على الأقل الى أن يثبت

خلوص الكتاب المقرر من الشوائب الممنوعة ، وابتعاد المدرس له عن مذهب الفلاسفة أو مذهب المنجمين ، ولا يصعب على المعترض أن يحسب الأنباء عن مواعيد الكسوف والخسوف والقرانات الفلكية المحققة افتياتا على الغيب لجواز الخطا فيها على الناظر كما جاء فى الفتوى .

وتلك كانت النية منذ صدرت الفتوى اضطرارا بهذا التحفظ والتقييد ، فان الشيخ قد أصدرها وهو ينوى تعطيل برنامج الاصلاح بأمثال هذه الحجج التى لا تعيى أحدا يريدها بعد السير فى خطوات التنفيذ العملية . وقد عاد الشيخ محمد عبده من المنفى واقترح على الشيخ الانبابى هذا تدريس مقدمة ابن خلدون فلم يجبه الى مقترحه وقال : « ان العادة لم تجر بذلك ... » ثم سكت حين أراد الشيخ محمد عبده أن يبين له وجهة المشابهة بين المقدمة ، وما يدرس من كتب المتأخرين على عهده ، ولم يرد أن يدخل فى الحديث .

***

لا جرم يكون صدور هذه الفتوى العقيمة هو كل ما تم من « مشروعات » هذا الاصلاح ، فلم تزل حبرا على ورق الى العهد الذى أنشىء فيه للأزهر مجلس خاص لوضع الفتوى فى موضع التنفيذ ، وكان الشيخ محمد عبده عضوا فيه ، وقد عين للأزهر وكيل ذو كفاية وخلق له « شخصية قوية » لا يسهل اهمالها ، وهو الشيخ حسونة النواوى من أصدقاء الشيخ محمد

عبده وأركان المدرسة الجديدة من بين العلماء المجددين ، وقد اتفقت الآراء على اختياره ليحول دون تعطيل « المشروعات » عند تطبيقها ، اذا صدرت بها القوانين والمراسيم .

مضى بين اتصال الشيخ محمد عبده بالأزهر وصدور تلك الفتوى نيف وعشرون سنة ، حضر فيها مراحل هذه الحركة من بداءتها الأولى وهو طالب ومدرس ومشرف على الادارة والتدريس .

وصل الى الأزهر طالبا حوالى سنة ١٨٦٦ ميلادية فاجتهد لنفسه فى البحث عن أساتذته ودروسه ، ثم أغناه حضور جمال الدين الى مصر عن المعلمين فيما يحتاج الى المعلم وأغناه ذكاؤه وصبره عن الكتب المقروءة فى حلقات التدريس ، اذ كان يبحث عن الكتاب المفيد حيث أصابه ، فيقرأه لنفسه ويجنى منه خير ما يجنى من الفائدة فى زمن وجيز ، يريحه من حضور دروسه على المعلمين « التقليديين » ، وكثيرا ما يكون الكتاب من غير الكتب المقررة لدراسة الحلقات .

وقد مر بنا كيف كان الناشىء محمد عبده يبتلى بالنقيضين على مفترق الطريق فى معاهد تعليمه منذ صباه ، ولكن مفترق الطريق هذا كان فى عهده الأول بالأزهر على أبعد ما تكون الشقة بين النقيضين . فقد كان من طرف الجمود يترامى الى زاوية الجمود السحيقة فى كهف الشيخ محمد عليش ، وكان من طرف التجديد يترامى الى غاية مرماه ، حيث تنطامن العقبات والسدود ، فى ساحة جمال الدين ، بل فى ميدان جمال الدين .

وقد كان الشيخ محمد عليش رجلا صالحا عفيفا عن المطامع الدنيوية التى كانت تستهوى طلاب المظاهر من علماء عصره ، وكان مخلصا صادق النية فى كراهة البدع التى يخشى منها على الدين ، ولكنه اخلاص قاده الى التطرف الشديد وأوشك أن يبغض اليه كل تفكير يستقل به طالب العلم ، ولو كان من تفكير حكماء الاسلام .

وأبلغه ابنه يوما أن طالبا بالأزهر يحضر على جمال الدين ويقرأ كتب المعتزلة والمتكلمين ، فحمل عكازه وذهب مع ابنه وأصحابه الشبان الى حيث يجلس ذلك الطالب الجرىء ، ودارت بين العالم الكبير والطالب الناشىء مشادة ، أحرى أن تسمى مشاجرة ، لأنها انتهت الى التماسك بالأيدى واعتصام العالم الكبير بعكازه ، وألجأت الطالب الناشىء الى اصطحاب عصاه كلما ذهب الى حلقته . ردا لعادية الزملاء المستأنسين بحماية شيخهم ، ان لم يكن ردا لعادية الشيخ الوقور .

وتقدم الى امتحان شهادة العالمية وهو بهذه السمعة فى دوائر الجامدين ودوائر المجددين ، فدخل أعضاء اللجنة وهم متعاهدون على اسقاطه كيفما كانت اجابته على أسئلتهم التى قدروا أن تكون معجزة لمثله ، فلم يستطيعوا أن يحرموه بعد العنت والمكابرة ، بل لم يستطيعوا أن يكتفوا بمنحه الدرجة الصغرى وهى شهادة العالمية من الدرجة الثالثة ، حتى أنقذه منهم بعض الانقاذ رئيس اللجنة ورئيس الجامع فى ذلك الحين الشيخ « المهدى العباسى » أحد كبار العلماء المناصرين لحركة

التجديد وان لم يكن من المحبين لجمال الدين ، وأقسم الرجل انه لو عرف درجة فوق الأولى لما استكثرها عليه ، وكادت اللجنة أن تنفض على غير اتفاق ، لولا خشية العاقبة من مجابهة شيخ الجامع بالتحدى والاجحاف ، فاقترح بعض الأعضاء التوسط بين الدرجتين واتفقوا أخيرا على منحه الدرجة الثانية ، ثم رفعت هذه الدرجة الى الأولى بعد سنوات ، وكانت سنه فى نحو الثامنة والعشرين حين دخوله الامتحان (١٨٨٧) .

وبعد التدريس فى الأزهر نحو سنتين عين أستاذا بدار العلوم (١٨٧٩) وفصل منها بعد أشهر معدودات لغير سبب مذكور فى قرار فصله ، ولكنه كان مفهوما بين المطلعين على سياسة القصر قبيل الثورة العرابية ، فانه كان قد عرف بالدعوة فى دروسه الى المبادىء الخطرة التى أشارت اليها الحكومة فى قرار نفيها للسيد جمال الدين ، وكان أكثر من ذلك تلميذ جمال الدين الأول ، فكان خطر جمال الدين أهون عليهم من خطر هذا التلميذ ، وهم يكلون اليه تعليم المعلمين !

***

أى مكان أسلم — أسلم للحكومة الخديوية — تضع فيه المدرس المعزول من وظيفة التدريس للمعلمين ؟

ان السؤال عن المكان المأمون الذى يشغله هذا الفتى الريفى قد أصبح فى تلك الآونة شغلا للدولة تعنى به مع عنايتها بكل مكان تتوقع منه الخطر على وجودها ، ولم يمض على هذا

الفتى الريفى فى الثلاثين من عمره سنتان ، أو سنوات ثلاث ، فى الحياة العـامة حتى أصبح فى رأى الدولة واحدا من آحاد معدودين يحسب لهم حسابهم عند كل حركة من حركاتهم ، بل كل نية تحسها الدولة من نياتهم !

نعم . انه فى حالته وبيئته و « مؤهلاته » التقليدية واحد من عدة آلاف لا يعـرف لهم اسم ولا يحسب لهم حساب ، ولكنه فى نفسه ، أو فى هموم نفسه وآمالها ، واحد لا ثانى له من غراره ، وان يكن فى توقع الخطر منه واحدا من بضعة آحاد معدودين ، خارج الوظائف والدواوين .

ولقد عزل من وظيفة التدريس بدار العلوم وهو عالم من علماء الأزهر ، فاذا كان تعليمه هو الخطر المحذور فهو عائد الى التعليم فى مدرســة أكبر باتساعها وأخطر بقــدوتها من دار العلوم ، وهى الجامعة الأزهرية مالم تشغله عنها وظيفة يرضاها . وقد أخذ فى ذلك الحين ينشر مقالاته فى الصحف ويجمع حوله طائفة من قــراء أدبه والمعجبين بآرائه ، فاذا خلّى بينه وبين الصحافة فمن ذا يعلم العاقبة المنتظرة بعد قليل ؟ وماذا يمنع أن تتيح له الظروف لسانا من ألسنة الصحافة السيارة يستقل به ويملى منه دروسه التى حيل دون املائها بين الجدران فى دار العلوم ؟

ان التحرير عمل يناسبه ، فليكن اذن محــررا فى صحيفة الحكومة بين سمعها وبصرها ، وليؤخذ عليه سبيل التدريس فى الأزهر والكتابة فى الصحافة السيارة ، بعمل يعجبه فى ظاهره

ويحد من نشاطه المحذور فى باطنه ، وهو تحرير الوقائع المصرية : تحرير الصحيفة التى يدل اسمها عليها ، وهو نشر الوقائع الرسمية .

لو قال قائل ان هذا الانسان خلقة مجبولة للتعليم ، وان رمق الحياة ورمق التعليم فيها شىء واحد ، لما وصل الى حدود الاغراق الذى تبيحه المبالغة للمبالغ فى مثل هذا المقام .

فانه عزل من مدرسة التعليم للمعلمين ليلحق بمكان يقال فيه بحق انه آخر مكان ينتظر منه القاء الدروس ، وانه المكان الذى لا يقع فى الظن أن الدروس تلقى منه على الأمة وعلى الحكومة ، وهما على أبواب ثورة قلما تجمعهما على وفاق .

ولكن صحيفة الوقائع الرسمية تحولت على يد هذا المحرر « الرسمى » الى منبر لنشر الدعوة واعلان الشكوى ، واسماع الحكومة ما تريد أن تسمعه وما لا تريد أن يسمع بحال ، وقال الشيخ محمد عبده على صفحاتها كل ما كان قائله لو تكلم فى حلقات الأزهر أو على منصة التدريس بدار العلوم .

ولا تتسع هذه المناسبة لأكثر من الاشارة الى عناوين بعض المقالات التى نشرها للناس باسم الوقائع الرسمية ، ومنها مقال فى انتقاد التعليم بوزارة المعارف ، ومقال عن التربية فى المدارس والمكاتب الأميرية ، ومقال فى الحملة على الرشوة ، ومقال فى الانحاء على البدع التى تصدر من نظارة الأوقاف ، ومقال عن تأثير التعليم فى العقيدة ، ومقال عن الشورى وآخر عن اختلاف القوانين باختلاف الأمم ، وآخر عن الملكات والعادات ، وآخر

عن تعدد الزوجات ، وآخر عن اسراف الفلاح وضرر الديون ، وغيرها وغيرها قرابة أربعين مقالا ، أو أربعين درسا ، فى أمثال هذه الشئون القومية التى يتجه فيها الخطاب الى الأمة والحكومة ، وتلام فيها كلتاهما بمقدار حقها من الملام .

***

ولم يهمل شأن الأزهر وهو يتكلم عن اصلاح التعليم ويتصل برئيس الوزارة بحكم وظيفته فى الصحيفة الرسمية ، فكل ما عملته الوزارة الرياضية من أعمال الاصلاح وتنظيم الادارة بالأزهر فانما كان على علم منه بمشورته وبفضل وساطته بين الحكومة وعلمائه . ولكن الثورة العرابية شغلت علماء الأزهر يومئذ عن مسائل التعليم والادارة وضمت الكثيرين منهم الى جانب الثائرين فى وجه الخديو بعد انضمامه الى السلطة الأجنبية ، وكان الشيخ محمد عبده أحد العلماء الذين كانوا يأخذون العهد والقسم من الثائرين على الاخلاص والأمانة ، وجوزى على ذلك بالنفى الى خارج الديار ثلاث سنوات امتدت الى سبع سنوات ، ولم ينقذه من حكم الموت الا تلك الصلة القديمة التى سبقت له مع الوزارة الرياضية .

***

وعاد الى الاتصال بالأزهر على أثر عودته من منفاه ، ولكنه حيل بينه وبين الانقطاع للتدريس فيه باسناد الوظائف المختلفة اليه ، وكانت أول مشاركة له فى وظائفه تعيينه عضوا بمجلس

ادارته (سنة ١٨٩٤) ثم تعززت مكانته الرسميه بولايته منصب الافتاء بعد ذلك بخمس سنوات ، وكان وجــود مثله عضوا بمجلس الادارة كافيا لاخراج الفتوى القديمة ـ فتوى الشيخ الانبابى ـ من حيز القول المهمل الى حيز العمل الفعال ، ولكن قيامه على منصب الافتاء رجع بالفتــوى الى صاحبها وأغنى العاملين على الاصلاح داخل الأزهر وخارجه عن مهمة التوفيق بين الوعد والانجاز ، وبين النية والتنفيذ .

***

وقد كان فى وسع الشيخ محمد عبده وأعوانه الثقات أن ينجزوا فى ثلاث سنوات ، أو أربع سنوات ، ما استغرق انجازه منهم أكثر من عشر سنين ، وهى المدة التى أشرف فيها الشيخ محمد عبده بشخصه على ادارة الأزهــر ، منذ تعيينه عضوا بمجلس الادارة الى استقالته من منصب الافتاء فى سنة ١٩٠٥ ، ولكنه آثر أن يتمهل اختيارا لتسويغ الانتقال من القديم الى الجديد فى نفوس أنصار القــديم المتشبثين ببقائه بين الموافقة باللسان والمراوغة فى التنفيذ ، واضطر فى كثير من الأحيان الى التمهل اضــطرارا لتراجع ولى الأمر ــ الخــديو عباس الثانى وحاشيته ــ فى وعودهم وعدولهم عن العمل على التغيير الصريح الى مراوغة كمراوغة الشيوخ الجامدين بين الموافقة اللسانية والتعويق فى التنفيذ ، ولكن دعاة الاصلاح تمكنوا ــ مع هذه التعويقات ــ من اقامة الأسس التى يصعب على المعارضين أن

يهدموها بعد اقامتها ، وكان عملهم مدى السنين العشر أعظم مما يتسع له هذا الأمد القصير بالقياس الى القرون المتوالية التى تم تبديلها فى خلالها ، بعد الشروع فيه والعدول عنه واستمرار الدعوة اليه أعواما اثر أعوام .

ويطول بنا بيان التشريعات والاجراءات الادارية التى تقضى المراسم الضرورية باستصدارها قبل كل خطوة تخطو فى تغيير شيء من القديم واعتماد شيء من الجديد ، ولكن المقارنة السريعة بين ما كان عليه الازهر فى السنوات الأخيرة من القرن التاسع عشر وما صار اليه فى مطلع هذا القرن العشرين هى الأثر العملى المحسوس لجميع تلك التشريعات والاجراءات فى حيز التقرير والتنفيذ .

كانت سيئات الادارة لا تحصى ، وكانت حسناتها القليلة تجرى — اذا جرت — عفوا على غير نظام .

كان مشايخ الأزهر يوزعون المرتبات والجرايات على غير قاعدة مرعية ، حسبما يتجمع عندهم من محاصيل الأوقاف المحبوسة على أتباع المذاهب أو على أبناء الأقاليم ، فربما هبطت مكافأة العالم فى الشهر الى ما دون العشرين قرشا أو ارتفعت الى بضعة جنيهات ، ولا ضمان لعودتها فى السنة التالية اذا تغير الشيوخ واختلف حساب الأوقاف واختلف معه حساب توزيعها بين الشيوخ والمقدمين على الأروقة والأقسام .

وكان شأن كساوى التشريفة كشأن المرتبات والجرايات ، يختص بها الشيخ الأكبر من يشاء من أبناء مذهبه أو اقليمه أو

خاصة أشياعه ومريديه ، ولا وجه لمراجعته أو الاحتجاج عليه عند هيئة مسموعة الكلمة فى الجامع أو عنـد ولاة الأمور من الولاة والوزراء .

ولا ينتظر فى مثل هـذه الحالة أن يجرى عمـل المدرسين والطلاب على وتيرة مطردة أو تجرى رقابة التدريس كله على مبدأ معروف . فمن شاء من الأساتذة أو التلاميذ حضر حلقات الدرس ومن شاء منهم غاب عنهـا ولم يسأل عن حضوره أو غيابه ، وليس للعمل أو للاجازة أو الامتحان موعد مقـرر فى سنة من السنين ، فاذا قيد الطالب اسمه بين مستحقى الجراية أو السكن بأروقة الجامع فقد يحسب من طلابه الى أن يجاوز الستين ولا تنقطع جرايته ما دام من المرضى عنهم بين شـيعة صاحب الرواق .

وكانت العلوم الحديثـة محرمة لا تدرس ولا يرضى عن طلابها فى غير الحلقات الأزهرية ، وكانت علوم السـلف التى تنسب الى الفلاسفة أو المعتزلة قرينة بتهمة الكفر والزندقة ، ومن اشتغل بها معلما أو متعلما فسبيله أن يعتزل الجماعة خفية .. ولا سلامة له باعتزالهم جهرة على سنة الأقدمين ممن اشتهروا بالاعتزال .

وكانت تدبيرات الصـحة مهملة ، بل كادت أن تـكون ممنوعة ، لقلة اطمئنان العلماء الجامدين الى المواد التى تستخدم للتعقيم والتطعيم ، بل قلة اطمئنانهم الى أقوال الأطباء فى عدوى الجراثيم ، ولولا أن النظافة أدب من آداب الاسـلام لما تقبل

القائمون على ادارة الجامع عمــلا من أعمال الوقاية فى أزمنة الوباء ، غير الأمر باغلاق الجامع ووقف الشعائر والدروس فى أروقته ، وهو الأمر الذى يتحرج منه المسئولون ويحتالون له بمختلف الحيل كلما استطاعوا أن يتجنبوه بالاعلان الصريح .

وتبدل ذلك كله فى سنوات قلائل ، وأول ما تبدل منه أمر العناية بالتدبيرات الصــحية ، فأنشئت للجامع صيدلية خاصة وعين له طبيب منقطع لعلاج طلابه والكشف عليهم بالمجان .

ولم يكن باليسير تنظيم أعمال التدريس بغير تنظيم أوقات العمل والمرتبات ، اذ لم يكن للأزهر مورد محصور عند المراجع الرسمية ، يصرف منه على المرتبات الكافية لمدرسيه المعتمدين ، فسعى الشــيخ محمد عبده عند الوزارة لتخصيص مبــلغ من ميزانية الدولة تنفق منه على الدراسة فى الأزهر ، وكانت حجة الشــيخ على المستشار المالى ــ الانجلــيزى ــ الذى كانت له الرقابة على الميزانيــة أن الأزهر يخــرج الموظفين لدواوين الحكومة من القضاة الشرعيين ، فالانفاق عليه واجب حكومى كالانفاق على مدارس الحقوق والشرطة والمعلمين ، وواصــل الشيخ سعيه عند ديوان الأوقاف حتى أرصــدت فى ميزانيته مبالغ ســنوية للجامعة الأزهرية ، وكان من فتواه للديوان أن هذا المصرف جائز ، بل مفــروض على الديوان ، فى مقــدمة مصارفه الخيرية : وأولها الصرف على تعــليم الدين واعداد الوعاظ والأئمة للمساجد التى تقام فيها الصــلوات الجامعة فتوافر للأزهر مدد من ميزانية الحكومة وميزانية الأوقاف يكفى

لتنظيم وظائف التدريس ورفع المرتبات الى مستواه اللائق بطبقة العلماء ، وأقله فى مبدأ الأمر لا يقل عن اثنى عشر جنيها مشاهرة ، عدا الاعانات المرصدة من بعض الأوقاف الخاصة ، ومنها أوقاف السكن والجراية .

وتقرر تدريس العلوم الحديثة مع الترغيب فيها بالمكافأة الحسنة ، والترشيح لوظائف القضاء والتعليم .

ان المصاعب التى وجب تذليلها لوضع هذا التغيير موضع التنفيذ أطول شرحا من وجوه الاصلاح بكل ما اقتضاه بحثها وترتيبها والمضى فى تنفيذ قوانينها واجراءاتها ، ولكن القارىء الذى لم يشهد ذلك العهد قد يتمثلها أمامه كلما تذكر الموانع التى كانت تعترض هذا التغيير ، وتذكر القوى الظاهرة والخفية التى كانت تدعم تلك الموانع وما تستطيع أن تثيره من زوابع القلق والسخط فى أنحاء العالم الاسلامى بما رحب ، فضلا عن جوانب الأزهر وجوانب المدينة المصرية ، والقرية المصرية ، التى عرفنا علاقتها المتأصلة بذلك المسجد العتيق .

من تلك الموانع منافع الشيوخ الذين رفعت أيديهم عن موارد الأوقاف ، وامتنع عليهم جاه التصرف بكساوى التشريف ومنازل العلماء فى المجتمع وعند ولاة الأمور .

ومن تلك الموانع لبانات المقدمين على الأروقة وأهواؤهم التى انقضى زمانها بانقضاء زمان التحكم فى الجرايات والمساكن والطلاب والعلماء .

ومنها جاه العلم الذى ضاع على زمرة « السلفيين »

الجامدين بعد أن حفظوه لأنفسهم دون « الدخلاء » عليهم من رجال العلوم الدينية والعلوم « الدنيوية » على السواء .

ومنها جيوش الطـلاب والمتطلعين الى الطلب ممن أحسوا وعورة الطـريق بعـد اقترابهم من نهايتهـا الميسرة لهم على « النظام » القديم ، وقد يزيد عليهم فى العدد طلاب « الجراية » والمسكن بغير أمل فى نهاية قط على نظام قديم أو جديد .

ومنها قوة الجهل المطبق والظن السيىء فى عقول الدهماء الذين سمعوا من « الأئمة » المصدقين أن القول بدوران الأرض كفر براح ، وأن معلم الجغرافية مسخر من أعداء الدين ليعلم أبناء المسلمين أنها كرة مستديرة دوارة فى الفضاء ، وأكفر منه من يعلمهم الطبيعيات ... لأن القول بالطبيعة انكار لوجود الله واثبات لوجود المخلوقات بطبيعتها دون وجود الخلاق .

ومنها ، ولعله يجمعها بحذافيرها ، سلطان ولى الأمر اذا أدرك بعد حين أن الاصلاح قد فوت عليه سلطانه وفوت عليه الغنيمة التى كان يجنيها لنفسه ويغدق منها الأجور على خدامه وحواشيه .

***

ونقول ان مناوأة الأمير لحركة الاصـلاح الأزهرية تجمع تلك الموانع والعراقيل بحذافيرها اعتبارا بما عهدناه من أساليب الأمراء والملوك فى اضطهـاد المصلحين من رعاياهم كلما وقع الصدام بين أرباب التيجان ودعاة الاصلاح منذ أقدم العصور ،

فان الملوك والأمراء الذين يضيقون ذرعا بدعوات الاصلاح قد جرت عادتهم قديمـا باستفزاز رعاياهم واستثارة الجهـلاء والمغرضين على قادة الرأى فيهم ، لمـداراة سلطتهم واخفـاء مكيدتهم وتمويه سياستهم على الناس ، كى يتقبلوها منهم كأنها استجابة لرجائهم وتلبية لمطالبهم وغيرة على عقائدهم وشعائرهم ، فيحمدهم الناس على شرورهم وهم أحرى أن يضـاعفوا لهم المقت بما أصابوا من افهامهم وعقائدهم فوق مصابهم فى المصالح والأرزاق . وقد كان الملوك والأمراء يخدعون شعوبهم هـذه الخديعة وهم وحدهم فى بلادهم منفردون بسلطة الحكم وجاه الولاية ، فأما الخديو عباس الثانى فقد كانت معه سلطة أخرى فى بلاده أقوى منه وأقدر على كبحه والحد من مآربه وأطماعه ، فكانت حاجته الى استثارة الجهلاء باسم الدين تزيد على حاجة أسلافه من أهل بيته وحاجة الأسبقين من زملائه فى أسـاليب الاضطهاد ، وقد أسف غاية الاسفاف وتبذل غاية التبذل فلم يدع وسيلة يدرك بها مأربه لم يتوسل بها غير مبال بما يعقبها من الأثر على سمعته وسمعة وطنه ، بل على سمعة دينه البرىء مما يفتريه عليه وعلى أهله ، ولم يتورع ــ وهو أمير البلاد ــ عن التحريض على اثارة الشغب بين طلاب الأزهر وخدمته وعماله ، ولا عن تسخير الصحف التى تتجر بنهش الأعراض والمساومة على الفضائح والوشايات للافتراء على مخالفيه وهو أعلم الناس بنزاهتهم عما يدعيه . وخلع نقاب الحياء فلم يتورع عن اتهام الاسلام والمسلمين بكراهة العلم الحديث وتصوير العلوم التى

أدخلها المفتى الى الأزهر فى صورة الجناية على الدين ، ولم يبال أن يعلنها حربا دينية بين الكفر والاسلام ، اذا تأتى له بذلك أن يقصى الشيخ محمد عبده وكبار الموظفين من أعوانه عن ادارة الأزهر كما يقصيهم عن الافتـاء وديوان الأوقاف ، بل تطوع بالوقوف تحت العلم البريطانى لاستعراض جيش الاحتلال ، لعله يضمن بذلك أن يكف يد العميد البريطانى عن معارضته فيما يتعلق من تلك المسألة بالميزانية ونظام الدواوين !

***

ومن البديهى أن الخديو قد عول على الدسيسة الخفية فى تدبير هذه الحملة الواسعة على المفتى وأعوانه بمجلس الادارة ومجلس الأوقاف الأعلى ، ولكن الدسيسـة التى يتآمر عليها عشرات من المغرضين والجامدين والمأجورين لا تكتم عن الناس فى أوانها وان جازت فيهـا المغالطة أو المكابرة بين أنصـارها وخصومها ، الا أن التـاريخ قد ينفض يديه من دسائس هذه الفترة جميعا ولا يحتفظ بشيء من أخبارها غير مراسيم الخديو وخطبه المنشورة التى ألقاها فى قصره ، ولا حاجة بالمؤرخ الى بيان للدسيسة كلها أوضح من بيـانها .. فانها ناطقة بدعواها الظاهرة عن مكيدتها الخفية ، ودعواها الظاهرة أن تدريس العلوم الحديثة فى الجامعة الأزهرية خطر على الاسـلام ، وأن المفتى وأعوانه قد أبعدوا من مناصبهم لأنهم يصرون على تدريس تلك العلوم .

قال الخديو فى الاحتفال بخلع الكسوة على الشيخ عبد الرحمن الشربينى شيخ الجامع الجديد :

« ان الجامع الأزهر قد أسس وشيد على أن يكون مدرسة دينية اسلامية تنشر علوم الدين الحنيفى فى مصر وجميع الأقطار الاسلامية .... وأول شىء أطلبه أنا وحكومتى أن يكون الهدوء سائدا فى الأزهر الشريف . والشغب بعيدا عنه ، فلا يشتغل علماؤه وطلبته الا بتلقى العلوم الدينيه النافعة البعيدة عن زيغ العقائد وشغب الأفكار ، لأنه هو مدرسة دينية قبل كل شىء » .

وقد صدرت المراسيم بعد خروج الشيخ محمد عبده باختيار شيخين من الحزب القديم لأكبر المناصب الدينية ، وهما منصب الافتاء ومنصب مشيخة الأزهر ، فعين الشيخ عبد القادر الرافعى مفتيا للديار المصرية وعين الشيخ عبد الرحمن الشربينى شيخا للجامع الأزهر . فأما المفتى فقد توفى على أثر تعيينه فلم يؤثر عنه عمل ولا قول فى برنامج التعليم الذى يرتضيه رجال العهد الجديد . وأما شيخ الجامع الأزهر فقد صرح برأيه فى حديث نشرته صحيفة الجوانب المصرية (١٣ مارس سنة ١٩٠٥) فقال عن رأيه فى الغرض من انشاء الأزهر :

« ان غرض السلف من تأسيس الأزهر اقامة بيت لله يعبد فيه ويؤخذ فيه شرعه ويؤخذ الدين كما تركه لنا الأئمة الأربعة رضوان الله عليهم . وأما الخدمة التى قام بها الأزهر للدين ولا يزال يؤديها فهى حفظ الدين لا غير ، وما سوى ذلك من أمور الدنيا وعلوم الأعصر فلا علاقة للأزهر به ولا ينبغى له » .

ثم قال عن اصلاح التعليم : « ان الذى حدث من شأنه أن يهدم معالم التعليم الدينى فيه ويحول هذا المسجد العظيم الى مدرسة فلسفة وآداب تحارب الدين وتطفىء نوره فى هذا البلد وغيره من البلاد الاسلامية .... وانى أسمع منذ سنوات بشىء يسمونه حركة فى الأزهر ، أو اصلاح الأزهر ، ولكننى لم أر لهذه الحركة وهذا الاصلاح من نتيجة تذكر سوى انتشار الفوضى فى ربوعه » .

ثم قرن بين حركة الاصلاح والسياسة فقال : « انى رأيت الكثيرين من اخوانى خدمة العلم فى منصب المشيخة فوجدتهم أبعد الناس عن الاشتغال بالسياسة وأشدهم فرارا من مظاهر الدنيا الباطلة » .

***

وهذا هو شرط « الأزهر » الصالح فى عرف المشيخة التى اختارها ولى الأمر لتعتدل به من طريق الزيغ والشغب الى طريق الايمان والأمان !

معهد يستبد ولى الأمر بادارته وتعليمه ليستخدم سمعته الدينية فى تعزيز سلطانه وتوفير ثروته ، ثم يكل المشيخة فيه الى أناس يريدونه فى القرن العشرين مدرسة كبرى لا تعرف شيئا عن علوم « الأعصر » ولا تدرى شيئا عن الدنيا والديوان ، لأن كل شىء عن الدنيا والديوان انما هو سياسة تترك لولى الأمر ولا يحسن برجل الدين أن يعرض لها من قريب أو بعيد !

ومن تمام العلم بهذه السياسة التى نعاها الشيخ الصالح على المفتى وأصحابه أن نذكر أنها سياسة فى صميم العمل الأزهرى ، لأنها سياسة المحاكم الشرعية ومساجد العبادة والتدريس ، وقد كانت من صميم السياسة التى أدخلها المفتى فى برنامج الاصلاح بعد ولاية الافتاء ، وعلى أساسها تم الاصـلاح اليسير الذى سمحت به الأحوال بعد ذلك بسنوات ، ولكنه لم يسلم قط من دسائس الخديو وخلفائه فى دور التعـليم وفى دور التوظيف ، فقد كان من أصعب الأمور تخريج قضاة يحكمون فى المواريث ويبرمون العقود والمواثيـق وينظـرون فى مشـكلات الأسرة والوصـاية على التركات وهم لا يعرفون شـيئا عن الحساب والرياضة وعن نظم الادارة وتقاليد الدواوين ، وكان اصعب من ذلك حـرمان طلاب الأزهر من وظائف المحـاكم الشرعية قضائية وكتابية وهم ألوف يتخرجون بلا عمل ولا يستعدون بتعليمهم الأول لوظائف التـدريس فى المـدارس الأميرية أو الأهلية ، وقد كان الخـديو أشد المعارضين لانشـاء المدرسة الخاصة التى يتخرج منها القضاة الشرعيون ، ولكنه كان لا يبالى أن يعلن الوعد بانشائها على حدة يوم كانت المسألة عنده مسألة الحملة على تدريس العلوم العصرية فى الأزهر ، فقال فى خطابه الذى تقدم ذكره عن تاريخ القضاة الشرعيين : « انه ستنشأ له مدرسة مستقلة يقصدها كل من يحصل على شهادة العالمية فى الأزهر ويريد التوظف فى القضاء » .

وبهذا الوعد الذى أعلنه وهو ينوى المراوغة فيه خيل اليه

أنه يسكت طلاب الأزهر وعلماءه عن تحريم العلوم العصرية وعن تخريج القضاة والموظفين الشرعيين من مدرسة خاصة ، غير الجامعة الأزهرية !.

أما اصلاح المساجد فقد كان مشروعا من مشروعات الاصلاح الكثيرة التى عنى بها ذلك الرجل المغضوب عليه ، لأنه لا يترك موضعا للاصلاح بمكان يسند فيه اليه عمل ، ولو كان من أعمال الاستشارة والمراجعة .

كان المفتى بحكم وظيفته عضوا فى المجلس الأعلى لديوان الأوقاف ، ومن عملها الاشراف على مساجد العبادة والتعليم فى الأقاليم . فكان أول ما نظر فيه انشاء ادارة مستقلة بالديوان تسمى ادارة المساجد وتتخصص لتعيين الأئمة والمدرسين فى مساجد المدن والقرى التى تتسع لالقاء الدروس على مثال الدروس العصرية بالجامعة الأزهرية ، ولزم من ذلك أن ترصد النفقات لتدبير الوسائل الصحية فى المساجد وما يلحق بها من أماكن الوضوء ، وأن يختار الأئمة من العلماء الأزهريين الذين يصلحون للخطابة والتعليم ونشر التربية العصرية من طريق الوعظ والارشاد ، وأن ترفع مكافآت الأئمة والوعاظ من جنيه واحد أو جنيهين فى الشهر الى المرتب الذى يناسب طبقة العلماء والمدرسين ، واشتمل التقرير المتقدم الى المجلس الأعلى بديوان الأوقاف على تفاصيل لهذه اللائحة ــ لائحة المساجد ــ تبسط الغاية من هذا المشروع لولاة الأمور ، وهى تزويد البلاد بقوة من قوى التربية الاجتماعية واليقظة الوطنية ، تحقق

للأمة مقصدا لا يقل فى أثره الواسع عن أثر المدارس والجامعات .

ولو كتب لهذا المشروع أن ينفذ على الوجه الأمثل لخلق تلك العناية فى مدى سنوات ، ولكنه لم يكد ينتهى الى علم الخديو قبل عرضه على المجلس الأعلى ، حتى تحركت دواليب الدسيسة لاحباطه والتشهير به فى كل مكان ، ولم يكن من السهل أن يجترىء أحد على التشهير بمشروع كهذا المشروع لا يختلف فى نفعه رأيان ، ولكن الحجة التى لا يسندها الرأى قد تسندها حروف المواثيق المطوية فى أضابير الديوان ، وليس فى تلك المواثيق نص على المباخر الصحية ولا على دروس التربية الاجتماعية ، وليس لكل مسجد وقف محبوس عليه يكفى لمرتب الامام العالم وتكاليف الدراسة العامة ، وقد يجوز للناظر على الأوقاف عامة أن يرصد تكاليفها جملة ولا يفرقها أجزاء ينفصل بعضها عن بعض بادارته والاشراف عليه ، ويجوز له أن يتمم النفقة على المسجد بالنفقة على سائر الخيرات التى لم يقيدها الواقفون بوجه من وجوه الانفاق غير وجوه الاحسان ، ولكن الناظر العام على الأوقاف يصنع ذلك اذا كان من همه أن يصنع الخير حيثما وجد السبيل اليه ، ولكنه يقف عند كل حرف من حروف الحجج المطوية اذا كان من همه غير ذلك أو كان من همه — على عكس ذلك — أن يغلق الباب دون كل مشروع من هذه المشروعات العامة تتحول اليه مصارف الأوقاف وتخرج بذلك من قبضة يديه ، وقد كان القاضى الأكبر فى القاهرة لذلك الحين يتولى منصبه بالارادة السلطانية من دار الخلافة العثمانية ،

وكان ينقم على المفتى رأيه فى استقلال مصر عن السيادة التركية ، وينقم عليه فوق ذلك مكانته فى البلاد الاسلامية وهو فى رأى نفسه أولى بتلك المكانة من مفتى القاهرة التابعة لمقر الخلافة فى الآستانة ، فلم يكن أيسر من حمله على الحكم بمخالفة المشروع لشروط النظارة واحتجاجه على تنفيذه بغير اذن من صاحب الولاية الشرعية ، ولم تكن شئون المساجد مما يعرض على الوكالة البريطانية لأنها من صميم المسائل الدينية التى تعهدت باجتناب المساس بها فيما أعلنته من سياستها العامة ، ولكن ولى الأمر الشرعى أرسل اللائحة الى دار الوكالة ، ثم أبلغها احتجاج القاضى الأكبر عليها ، وأراد مرة أخرى أن يرفض مشروعا من أنفع المشروعات لبلده ، لأنه مشروع يأباه الدين ويخشى أن يعرضه لاستنكار دار الخلافة وتدخل الوكالة البريطانية !.

***

أما الرجل المغضوب عليه لأنه مصاب بداء الاصلاح ... فقد لاحقه ذلك الداء العضال الى عقر داره بعين شمس ، ففارق الجامعة الأزهرية وهو يفكر فى خطته الأولى التى اقترحها على أستاذه السيد جمال الدين فى مقتبل صباه ، وراح يعد العدة لافتتاح مدرسته الى جوار بيته لتخريج الدعاة ورسل الاصلاح ممن يتقبل دعوته ويؤمن بمقاصده ، وتمت العدة لذلك ، أو كادت ، لو لم تدركه المنية قبل موسم العمل ، فقضى نحبه صيف ذلك العام بعد اعتزاله ادارة الأزهر بثلاثة شهور .

مع عباس الثانى

فى سيرة محمد عبده شخصان مهمان كان لكل منهما أثر كبير يفرد بالكتابة عنه فى تاريخ حياته العملية : هما جمال الدين الأفغانى وقد تقدم الكلام على أثر التعاون بينهما فى دعوة الاصلاح وحركة النهضة ، وعباس حلمى الثانى خديو مصر بعد الاحتلال البريطانى ، وسنقصر الكلام عليه فى هذا الفصل ملتزمين فيه ما يستطاع من الايجاز .

كان جمال الدين مثلا للقوة المؤيدة الموجبة ، وكان عباس الثانى مثلا للقوة المعطلة السالبة : أولاهما قوة روحية مستمدة من عظمة الأستاذ وعظمة تلميذه فى وقت واحد ، وثانيتهما قوة مادية مستمدة من سلطان المنصب وظروف السياسة ، يكاد الذكاء فى صاحبها أن يكون لغوا لا يذكر فيما يعنينا من هذه السيرة ، لأنه لا يقدم ولا يؤخر فى مركز الحكم الذى يستعين به الحاكم على المقاومة والتعطيل ، فكل حاكم فى مركز عباس الثانى كان مستطيعا أن يصنع ما صنعه فى خصومته للأستاذ الامام .

***

جلس عباس حلمى على الأريكة الخديوية بعد أبيه « محمد

توفيق » خديو الثورة العرابية ، وبعد جده اسماعيل الذى عزلته دول الرقابة الثنائية ـ انجلترا وفرنسا ـ بموافقة السلطان العثمانى صاحب السيادة الشرعية على البلاد .

وكان دون الثامنة عشرة حين توفى أبوه ، فوجب أن تفرض عليه الوصاية الى أن يبلغ سن الولاية ، وكان السلطان العثمانى هو « صاحب الاختصاص » باختيار الوصى أو الأوصياء . ولكن المحتلين تدخلوا فى الأمر واحتالوا على اتقاء هذا الاشراف الفعلى على الدولة المصرية ، فحسبوا السنين بالحساب الهجرى رعاية لدين الأمير ودين الخليفة ، وانحلت الأزمة على هذا النحو حلا يرضاه الأمير ويبغضه ، لأنه يعفيه من الوصاية ويثبت له غلبة النفوذ البريطانى على شئون السياسة العليا فى بلاده .

جلس على عرشه وهو مقسم النفس بين هذين الشعورين ، ولكنهما فى الواقع ينتهيان الى شعور واحد بسطوة الاحتلال وافتياته على حقوقه وحقوق الدولة التى يتلقى أمر التعيين « بفرماناتها الشاهانية » .

وملكته حماسة السن بين الحذر والاندفاع فغلبت فى نفسه الفتية نزعة التحدى على نزعة الحذر ، وواجه المحتلين بالمعارضة التى لم يألفوها من أبيه بعد اعترافه لهم بحماية عرشه ؛ فأقبل عليه أنصار الحركة الوطنية من المتطرفين والمعتدلين ، وحف به أبناء الجيل الجديد من أنداده فى السن ومن الشبان الذين

يكبرونه سنا ولكنهم لم يشهدوا صدمة الاحتلال ولم يحتملوا خيبة الثورة العرابية .

وكان للأمير الشاب رأى صائب فى الثورة العرابيـة وفى مسلك أبيه معها ومع المحتلين .

كان بطبيعة الحال ينفر من الثوار ويسميهم بالعصاة كما يسميهم جميع أبناء بيته ، ولكنه كان يتقبل العذر من بعضهم لأنه كان لا يبرىء أباه من بعض الخطأ ومن بعض الضعف فى علاج الثورة وعـلاج الأزمات الأجنبية ، وكثيرا ما سمع فى بداءة حكمه وهو يسخر من أبيه تلك السخرية التى عابها عليه لورد كرومر فى كتابه عنه ، ويقول لمحدثيه : سامح الله الوالد الطيب . لو كنت فى مكانه لمـا فعلت هذا ... أو لو كنت فى مكانه لما سمحت نفسى بذلك !.

ورأيه هذا فى أبيه هو الذى أنساه ممالأة الشيخ محمد عبده للثورة فى دورها الأخير ورغبته فى الاطلاع على تاريخ لتلك الثورة يكتبه رجل يعرف أخطاء الثوار ويعرف أخطاء ولى الأمر ، عسى أن يستفيد لنفسه من تجربة الحوادث التى عرضت أباه للثورة وعرضته وعرضت الثوار معه لكارثة الاحتلال .

وفى احدى المقابلات التى لم تكن قليلة بينه وبين الشيخ محمـد عبده شكا الأمير للشيخ ما يلقـاه من عنت المحتلين وحجرهم عليه وعلى وزرائه ووقوفهم دون ما يرجوه لبلده من الخير والقوة ، فاغتنم الشيخ هذه الفرصة السانحة وذكره بما يستطيعه من أسباب الخير والقوة معا فى المعاهد التى له الولاية

عليها ولا ولاية عليها للمحتلين ، وهي معاهد الأزهر والأوقاف والمحاكم الشرعية ، فراقه حديث الشيخ وكلفه أن يعود اليه بشرح مستفيض لوجوه الاصـلاح المطلوب ، وانتقل برنامج الاصلاح فعلا من تلك الفتوى المهملة ـ فتوى الشيخ الانبابى ـ الى العمل الحثيث على تنفيذ مطالب الاصلاح الأزهرى فى الادارة والتعليم ، ومضى العـاملون فى عملهم الناجح بضـع سنوات ، تغيرت فيها سياسة الخديو مع المحتلين ، فلقى منه المصلحون شر ما يلقاه دعاة التقدم من دعاة النكسة والجمود ..

***

وتبين بعد الوقعة الكبرى بين عباس الثانى والمحتلين أن النزاع كله فيما بينهم انما كان نزاعا على نفوذ الحكم ولم يكن نزاعا على حقوق الأمة ولا على مبادىء القضية الوطنية ، وأن عباساً كتوفيق واسماعيل من قبله ، ينازعون السيطرة الأجنبية باسم الأمة تارة واسم الحقوق الدستورية تارة أخرى ولا يعنيهم فى الواقع الا أن يستبدلوا سيطرة فى أيديهم بسيطرة فى أيدى الدول الأجنبية ، ومن طلب منهم الحكم النيابى وشجع الأحرار من رعيته على طلبه فانما يتخذ الحكم النيابى حجة على الدولة البريطانية عند شعوبها لأنها تؤمن به فى بلادها ، ويلتمس من وراء ذلك أن يحكم من وراء النواب والوزراء ويستعيد لنفسه كل سلطانه المحدود ، أو يستعيد القليل من الكثير فى مسائل التولية والعزل ومسائل الصرف والمنع على الخصوص .

وقد جرب طلاب الدستور أساليب اسماعيل وتوفيق فى هذه المناورات ثم جربوا أساليب عباس بعدهم فتكشف لهم عن ولع بالاستبداد فى عباس لم يتكشف لهم مثله من أبيه وجده . لأنه لم يكد يظفر بقليل من السلطان على عهد سياسة الوفاق بعد عزل لورد كرومر حتى انقلب على شيعته وشيعة الحركة الدستورية ، فساقهم الى السجن واحدا بعد واحد ، ثم ألجأهم الى المنفى باختيارهم فرارا من السجن والمصادرة .

ولاح له شبح العزل بعد الوقعة الكبرى بينه وبين المحتلين فقنع بالقليل الميسور ، واستعاض عن وفرة السلطان بوفرة المال يتهافت عليه حيثما وجد السبيل اليه ، بل ظهر للأمة قصارى أمله من المحتلين بتسمية الحزب الذى ينتمى اليه ويرصد صحيفته للدفاع عنه فى جميع أطواره وتقلباته .. فقد سماه « حزب الاصلاح على المبادىء الدستورية » ايذانا للمحتلين بالتسليم لهم بدعوى الاصلاح والقناعة منهم بالمبادىء الدستورية دون الدستور الكامل على أساس سلطة الأمة ، ولم تذكر فى عنوان الحزب كلمة عن الاستقلال ولا عن الحرية الوطنية ، كأنهما على الأقل مطلب مؤجل الى ما بعد الفراغ من اصلاح الأداة الحكومية الذى ارتهن به المحتلون موعد الجلاء ... فلا جلاء اذن وفى الأداة الحكومية خلل يأخذونه ويدّعون على هواهم أنه لا يزال بحاجة الى الاصلاح .

***

وقد أشرنا الى الوقعة الكبرى التى كانت نقطة التحول فى سياسة الخديو عباس الثانى مع المحتلين ، فنذكر فى هذا السياق أنها هى الحادثة التى اشتهرت بحادثة الحدود واصطدم فيها الخديو بسردار الجيش المصرى ـ الجنرال كتشنر المشهور ـ لأنه صرح للسردار بانتقاده لحركات الفرق العسكرية ووجه انتقاده ـ على الأكثر ـ الى الفرق التى يقودها الضباط الانجليز . فاستقال السردار وطلبت الوكالة البريطانية ترضيته واضطرت الخديو الى استرداد كلماته وتوجيه ثنائه الى الفرق التى أعلن انتقادها عند عرض الجيش على الحدود ، ففعل راغما وهو يعتقد أنه نجا من خطر العزل بقبول هذا الارغام .

حدث هذا فى أوائل سنة ١٨٩٤ ... وقبل نهاية السنة كان الشيخ محمد عبده على اتصال بالخديو يزوره فى قصر عابدين ـ مقر العمل الرسمى ـ تارة ويدعى لزيارته أحيانا فى قصرى القبة والمنتزه حيث يقضى الخديو سائر أوقاته فى أعماله غير الرسمية ، وكان يصحبه فى مبدأ هذا الاتصال محمد ماهر باشا الذى كان يدعى يومئذ ببطل حادثة الحدود ، لأنه كان وكيلا لنظارة الحربية وكان على نزاع دائم مع السردار حول اختصاص الوكيل والقائد العام فى شئون الجيش وادارة الاستعلامات السرية ، وقد اصطحبه الخديو فى رحلته الى الحدود وشاع بعد ذلك أن الجنرال كتشنر تعمدخلق الأزمة والتهويل فيها لأنه غضب من اصطحاب الخديو لخصمه واعتبره انتصارا له عليه .. فبيت النيـة على خلق الأزمة التى تزج بالدولة البريطانية فى

الخلاف بينه وبين الوكيل والتسليم له بالرأى النافذ فى الجيش وفى ديوان الوزارة .

قال « أحمد شــفيق باشا » فى مذكراته وهو من رجال الحاشية الخديوية وكان فى صحبة الخديو أثناء هذه الرحلة : « ترجع حركة الاصــلاح الحديثة فى الأزهر الى أواخر سنة ١٨٩٤ . وذلك أن الشيخ محمد عبده لما رأى من عباس جرأته وجهاده للأخذ بناصية الحكم والحد من تدخل الانجليز مال اليه وتقرب منه بواسطة محمد ماهر باشا ، فاستقبله عباس بترحاب وعطف ومال اليه أيضا لما آنسه فيه من صدق الوطنية وأصالة الرأى ، وتقابلا مرارا بصــفة غير رسمية فى عابدين والقــبة والمنتزه ، وتحدثا فيما يمكن عمله من خــدمة الوطن وتحقيق أمانيه ، فاقترح الشيخ عليه أن هناك ثلاث نواح لا تزال بعيدة عن تدخل الانجليز ولا يعارضون الخديو فى العمل لاصلاحها لأنها دينية محضة ، وهى الأزهر والأوقاف والمحاكم الشرعية ، وأشار على سموه أن يبدأ باصلاح الأزهر واتفقا على أن يقدم الشيخ الى سموه مذكرة بما يراه من وجوه الاصلاح » .

وكتب الشيخ محمد عبده المذكرة وانتهى البحث فيها الى تأليف مجلس الادارة من خمسة أعضاء ، ثلاثة منهم هم أكبر علماء المذاهب فى الأزهر وهم : الشيخ سليم البشرى المالكى والشيخ عبد الرحمــن الشربينى الشــافعى والشيخ يوسف الحنبلى ، والعضــوان الآخران هما الشيخ عبد الكريم سلمان والشيخ محمد عبده من العلماء المعينين لوظائف الحكومة .

ولكن الشيخ عبد الرحمن الشربيني أنكر مبدأ الاصلاح من أساسه ، فاستقال قبل شروع المجلس فى عمله ، ولم يقبل بعد ذلك عملا فى ادارة الأزهر الا بعد اجماع النية على اقصاء الشيخ محمد عبده من مجلس الادارة والعودة بالأزهر الى منهجه القديم ، فاختاره الخديو لمشيخة الأزهر ـ كما تقدم ـ على هذه النية .

***

تلك كانت قصة الملتقى التاريخى بين أعظم رجلين فى مصر لذلك الحين .

أعظم رجل فى مصر بعرشه الموروث وولايته الشرعية وحقوقه الرسمية .

وأعظم رجل فى مصر برجاحة لبه ومتانة خلقه وعلو همته وصدق غيرته على حرية وطنه والنهوض بأمته .

أراد الأمير بتقريب الشيخ اليه أن يستعين به على تعويض السلطة التى انتزعها الانجليز منه بسلطة فى مجاله المأمون لا تمتد اليها يد الانجليز ، وأن يقيم الحجة عليهم فى دعواهم التى يلهجون بها ويتذرعون بها لتسويغ رقابتهم على دواوين الحكومة واطالة أمد الاحتلال ، وهى دعوى الاصلاح ، فان الادارة التى تنقل الأزهر والأوقاف والمحاكم الشرعية من الفوضى الى النظام لا تعجز عن اصلاح ديوان من دواوين

الحكومة قديم عهـد بالنظام « العصرى » مهما يعرض له من عوارض الاختلال .

وأراد الشيخ بالتقرب الى الأمير أن يسند ولى الأمر فى محنته مع السلطة الأجنبية ، وأن يستفيد من رغبته فى العمل سندا للمصلحين وعونا له على رسالته المرجوة من قديم ، وليس بين يديه ــ بعد عودته من منفاه ــ مجال أنفع من هذا المجال من طريق الايمان الصادق والتعليم المفيد .

***

ولكن الخديو لم ينس حب السلطة الذى ساقه فى الحقيقة الى طريق الاصلاح فى هذا المجال الواسع ، ولم يلبث أن علم أن رجلا كالشيخ محمد عبده جدير أن يعينه فى كل مهمة من مهام هذا العمل الكبير ، الا أن يكون عونا له على تسخير الأزهر ومحاكم الشرع ومرافق الأوقاف للسلطة التى تفعل ما تشاء ، لأنها خلصت فى هذا الجانب من قيود المحتلين .

واشتد طغيان هذه الآفة على نفس الأمير بعد اضطراره الى مصانعة المحتلين ، فانه أراد له مجالا لا يلجأ فيه الى مصانعة أحد من رعاياه المسخرين له من باب أولى ، ولجت به هذه الآفة لجاجها المخيف حين زين له فقدان السلطة أن يتهافت على جمع المال من كل مورد مفتوح بين يديه ، ووجد هذا المورد مفتوحا على مصراعيه فى خزائن الأوقاف ووصايا التركات وفى احتكار السيطرة على المحاكم الشرعية التى يتخرج قضاتها من بين يديه .

ولم تمض فترة التمهيد للاصلاح والتنظيم فى مجال الدواوين الدينية حتى كان للخديو مسلك آخر مع الشيخ محمد عبده وأعوانه ومريديه . فهو يستبقيه للانتفاع بقدرته وشجاعته ، بل للاحتماء بمكانته الدينية أحيانا فى وجه السلطة الأجنبية ، ولكنه يحاذر أن يسلمه زمام التصريف والتدبير فى مركز من مراكز الأزهر المستقلة ... فتخطاه فى التعيين لمشيخة الأزهر مرتين ، وكان ترشيحه لمنصب الافتاء فى الواقع حيلة مستورة لابعاده عن المشيخة ، وهو أجدر بها وأقدر على الاصلاح فيها من كل من تولاها على عهد الخديو عباس ، وهو أعرف برجحانه عليهم من سواه . .

وسر" آخر بعيد جدا من هذا المجال يرجع اليه هذا المسلك المتبدل من جانب الأمير . ـ

فانه كان يطمح الى الخلافة ويريد أن يستمد من سمعة الأزهر وعلمائه فى العالم الاسلامى سندا دينيا يرجحه على أمراء المسلمين الذين ينفسونها على السلاطين العثمانيين ، وكان يرجو من مصانعة المحتلين أحيانا أن يعاونوه بالسند السياسى وأن يؤيدهم فى المحيط الدولى بيت سقوا الايطالى صديق الأسرة العلوية القديم . ومصلحته فى ترشيح الخليفة المصرى أن تدين له اليمن وشواطىء البحر الأحمر لأنه صديق الخليفة المطاع ، ولا يأبى المحتلون هذه المصلحة للدولة الايطالية ، لأنها دخلت معهم فى المساومة على أملاك الدولة العثمانية واتفقت معهم على نصيبها من المستعمرات : اليمن وأرتريا والصومال ، فضلا عن

مصلحة الدولة البريطانية بين مسلمي الهند وغيرهم فى قيام الخلافة فى بلد يهيمنون عليه ، ولم يغفل عبد الحميد ـ بلقمة آل عثمان ـ عن هذه المساعى الخفية ، بل فطن لها واحتجز عنده جمال الدين الأفغانى لكيلا يعود الى القاهرة ويؤيد هـذه الحركة بنفوذه ونفوذ تلاميذه من المصريين والشرقيين . وحدث لما قام الخديو عباس بزيارة دار الخلافة للمرة الأولى أنه التقى هناك بجمال الدين فاستدعى هـذا اليه على الأثر وسأله : أتريد أن تجعلها عباسية ؟ يريد أنه يتآمر مع الخديو على اسناد الخلافة اليه . فكان جواب السيد : ان الخلافة ليست خاتما فى يدى أضعه فى اصبع من أشاء ، ولم يفقد عباس الأمل فى الخلافة بتأييد جمال الدين أو غير جمال الدين ، ولم يخف عليه أن « محمد عبده » هو زميل جمال الدين فى سمعته العالمية بين المسلمين ، ولكنه علم بعد ذلك موضع الخلاف بين جمال الدين ومحمد عبده فى خطة السياسة ، وأن هذه الجهود السياسية حول الخلافة وما شابهها لا تجرى مع برنامج عمله وليست مما يصرفه عن خطة الاصلاح من طريق التربية والتعليم متى وجد السبيل اليها ، فيئس من موافقته على هـذا المسعى ، وكاد أن يحسبه عقبة يتخطاها قبل توطين النفس على نجاحه بموافقة سواه .

***

ولا نسهب فى احصاء حوادث الخلاف التى تتابعت بين الخديو والمفتى واستحكم من أجلها الجفاء فى النهاية بين هذين

الرجلين اللذين خلقا للتعاون فى هذا المجال الواسع لو كان للتعاون محل بين الاستبداد والعمل المستقيم ، فان من حوادث تلك السنين سفاسف وصغائر لا جدوى من تعدادها ، ومنها دسائس ومكايد ليس أيسر من المواربة فيها ، ولكننا نذكر منها ما يدل على طبيعتها التى يأباها كل اصلاح ، ولا ينتظر من رجل ذى خلق وكرامة أن يغضى عنها أو يترخص بينه وبين نفسه ، أو بينه وبين الناس ، فى قبولها .

فالخديو كان ينفق من أموال الأوقاف العامة على أوقاف أسرته وعلى مزارعه الخاصة ، فكف يده عن ذلك فصل الحسابين ومراجعة المجلس الأعلى للمصارف والموارد فى « ميزانية الديوان » ... ولجأ الى الحيلة ــ مع تشديد الرقابة على الميزانية ــ فاصطنع طريقة الاستبدال لحمل الديوان على اقامة المبانى وتعمير الأرض البور وعرضها بعد ذلك للمبادلة بينها وبين مزارعه التى لا تساويها فى القيمة ولا فى الجودة ، وكان أشهر هذه الصفقات صفقة أرض « مشتهر » وأرض ديوان الأوقاف التى أعدت للبيع فى الجيزة بثمن أرض البناء ، وفرق ما بينهما من الثمن لا يقل عن ثلاثين ألف جنيه ، وظاهر الأمر أنها مبادلة بين مسيو زرفوداكى اليونانى الذى عرض على الديوان مزرعة مشتهر باسمه وقسم المبانى فى الديوان ، ولسوء حظ الخديو أن موظفا من كبار موظفيه فى القصر كان مندوبا عن ولى الأمر بالمجلس الأعلى فكان رأيه كرأى المفتى فى هذه الصفقة وآراء الخبراء المختصين بتقدير المبادلات ، وثبت من

معاينتهم أن هناك نقصا فى تقدير أحد البدلين وزيادة فى تقدير البدل الآخر تبلغ جملتهما خمسين ألف جنيه ، فغضب الخديو على موظفه الكبير وعزله من خدمته لأنه لا يسأل عن سبب عزل الموظفين فى ديوانه ، ولكنه لم يستطع عزل المفتى لهذا السبب ولا كان فى حدود سلطته القانونية أن يعزله لغير سبب ، فتمحل الأسباب للسخط عليه فى غير مسائل الصفقات التى يتحاشى أن تثار للقيل والقال .

وكادت أوامره فى الأزهر أن تكون الغاء تاما لقوانينه التى وضعت لترقية أحواله وصيانة الكرامة الواجبة لعلمائه ومنع العبث بدرجاته العلمية ومراتبه الدينية . فلم تكن كساوى التشريفة لعلمائه بأسعد حظا من الرتب والنياشين التى كانت تباع فى الأسواق بأسعارها المحدودة لكل درجة من درجاتها . سوى أن الرتب والنياشين تباع بالمال وكساوى التشريفة تباع بالخدمات والسعايات فى سوق الدعاية أو سوق المتاجرة باسم الدين ، وانه لمن أغرب الخواطر التى خطر للخديو أن يسوم المجلس عليها أن يرسل الى أحد الأعضاء من يقترح عليه الاستقالة ويأمر رئيس المجلس أن يطلب كسوة التشريفة من الدرجة الأولى لامام قصره تمهيدا لتعيينه خلفا للعضو المستقيل ، وبهذا يتطوع المجلس لتحويل هيئته الموقرة الى أداة تجرى أهواء الخديو ولباناته مجرى القوانين وتحوى تبعاتها أمام الناس على الرغم من أنوف المخالفين له من الأعضاء ، ولا يبقى بعد ذلك أعضاء ينتظر منهم الخلاف غير محمد عبده وصاحبه

عبد الكريم سلمان . فلما تأخر صدور الطلب من شيخ المجلس بالانعام على امام القصر بالكسوة المطلوبة قال له مؤنبا فى محفل التشريفات : ألم آمرك بتوجيه كسوة التشريفة الى امام معيتى بدلا من الشيخ الذى ينوى أن يستقيل ؟ فتلعثم شيخ الجامع وبادر الشيخ محمد عبده الى الجواب قائلا : ان المجلس انما يعمل بالقانون الذى أصدره سموه ، فاذا بدا لسموه أن ينقضه ليجرى الانعام بالكساوى العلمية على حسب رغبات سموه الشخصية فهو صاحب الشأن فى اصدار القانون بالنظام الجديد .

وأكبر الظن عندنا أن تفويت المنافع لم يلهب من ضرام الغيظ فى نفس الأمير ما ألهبه هذا الجواب الصريح من مفتى الديار . ومن مفتى الديار هذا ؟ انه عند العالم الاسلامى أكبر مقام دينى علمى فى زمانه ، ولكنه عند الأمير لا يعدو أن يكون فلاحا بين ألوف الألوف من أولئك العبيد الأرقاء الذين خلقوا للسمع والطاعة عند كل أمر وكل سؤال .

واذا صح أن يكون ضرام الغيظ عذرا للمتسلط المستبد المغلوب على استبداده فهذا هو العذر الذى قد يفسر ذلك الاسفاف الذى هبط بالأمير الى الدرك الأسفل فى حقده على ذلك الفلاح الجرىء واستباحة ما لا يستبيحه الكريم ، ولا اللئيم العاقل ، فى الكيد له والسعى الى اجلائه عن مقامه : مقامه فى منصبه ، ومقامه فى أعين الناس بين مشارق الأرض ومغاربها ، ولم يكن ليخفى عليه أنه كان أعظم مقام فى بلاد الاسلام .

ولولا الحقد الذى يسلب المرء رشاده لما سمح أمير فى مركزه أن يخطب علانية ليجعل العمل على انهــاض المسلمين بالتعليم الصالح زيغا فى العقيدة ومروقا من الدين ، وليسند مشيخة الجامعة الاسلامية الكبرى الى رجل يقول ان تعليم هذا العلم يمحو الدين ويزرى بعلماء المسلمين .

ولولا هذا الحقد لما استباح لنفسه أن يحبط كل عمل لذلك المصلح الكبير حتى العمل الذى جهد فيه جهده طول حياته لابراء المسلمين من داء الخمول وانقاذهم من الأوهام التى تعوقهم عن اللحاق بجيرانهم فى ركب الحضارة لسوء فهم الدين واختلاق الموانع التى يزيفها الجامدون باسم الشرع المظلوم .

فقــد كاد المسلمون الاســيويون أن ينعــزلوا عن سكان افريقية الجنوبية ويفقدوا وظائفهم وأشغالهم فيها لشيوع تلك الأوهام بينهم وكثرة المرجفين بالتحــريم والتحليل بين أدعياء الدين فيهم ، وقد تعاقبت على تلك البــلاد هجرة المسلمين من الهنود والعرب واختلاطهم بأبنائها الأصلاء ، فدخل فى الاسلام طوعا ألوف من الافريقيين السود لمــا أنسوه من سماحة هذا الدين وسلامته من شوائب المحظورات التى تكثر فى عباداتهم كما تكثر فى عبادات بعض الأوربيين والأسيويين ، ثم حالت هذه الحال زمنا بعــد ازدحام البلاد بالأوربيين وخضــوع أكثرها لحكوماتهم أو جماعات التبشير منهم ، فتحرج المسلمون أنفسهم من مجاراة أولئك الغرباء الطارئين عليهم ، وقعدت بهم وساوسهم الدينية عن كفاح الحياة معهم ، تحــرجا من مجاراة القــوم فى

عاداتهم وأزيائهم ، وخسر الاســلام زمنا ما كان يكسبه من سهولته وقلة قيوده فى أحوال المعيشة قبل وفــود الأوربيين ، فأعرض عنه أبناء البلاد الأصلاء وهانت مخالفته على طلاب الرزق الذين تضــطرهم مطالب العيش الى مشاركة الأوربيين وغير المسلمين الأسيويين فى مرافق أعمالهم ، ومن ذا الذى يقوى على زحام العيش فى بيئة يخشى فيها أن يلبس القبعة وأن يتناول الطعام من العلب المحفوظة وأن يؤدى الصلاة فى مسجد له امام على غير مذهبه بين المذاهب الأربعة ؟

هــذه وأمثالها كانت عوائق المعيشــة ، بل عوائق التدين بالاسلام ، فى معترك الحياة بين المسلمين وجيرانهم من سكان افريقية الجنوبية والشرقية ... وفى هذه وأمثالها كانت أسئلة الاستفتاء تتوارد على مفتى الديار المصرية فيجيب عنها وهو يعلم خطر الاجابة التى يجيب بها من يجهل ظروفها وعواقبها ، وكانت احدى هذه الفتاوى تلك الفتوى التى شغلت صحافة مصر ، وصحافة العــالم الاسلامى ، عدة أشــهر باسم فتوى الترنسفال ، وتتيجتها فى بضــعة أسطر أن الشيخ المفتى أباح للمسلم أن يلبس القبعة وأن يأكل من طعام أهل الكتاب كما ورد فى القرآن الكريم ، وأن يؤدى الصلاة وراء كل امام يدين بالاسلام .

هذه هى الفتوى وهذه هى ظروفها وعواقبها التى نظر اليها مفتى مصر فى اجابته عنها .

ولم يبح المفتى عادة واحــدة كان يحرمها الخديو وحملة

الأقلام الذين سخرهم فى الحملة الشعواء على فتوى الترنسفال ، فانهم كانوا جميعا يلبسون القبعات ويأكلون فى المطاعم الأوربية وفى بيوت الأجانب ويغشون الولائم « الرسمية » وغير الرسمية داخل القطر المصرى وخارجه . ومن شهد منهم صلوات الجمع فانما كان يشهدها ومعه مئات من المسلمين من أتباع المذاهب الأربعة ... ولكن الفتوى عمل من أعمال المفتى يجب احباطه والتشهير به وتنفير النـــاس منه مهما يكن فى ذلك من الضرر بالاسلام والمسلمين . وقد يكون فى ذلك اعــراض الوطنيين السود عن الاســـلام بعد اقبالهم عليه ، وقد يكون فيه تعويق لجهاد المسلمين المهاجرين عن كفاح الحياة فى افريقية الجنوبية مع سائر المهاجرين الذين تعفيهم عقائدهم من تلك القيود ، وقد يكون فيه استخفاف المسلم بتكاليف دينـــه اذ ثقلت عليه فى لبسه ومأكله وعبادته مع أبنـــاء ملته ووطنه ، وقد يكون فيه المساس بسمعة الدين بين أهل الحضارة وتمثيله لهم فى صورة العقبة المتحجرة التى تأبى على المسلم أن يجتمع على معيشة واحدة مع أبناء الحضارة الأوربية ... وقد يكون فيه كل ذلك ، بل كان فيه كل ذلك لو أفلح كيد المضللين كما أرادوه . ولكن ماذا يعنيهم ذلك كله اذا اشتفت صدورهم من الرجل المغضوب عليه وأفسدوا عليه عمله فى خدمة الاسلام والمسلمين أو فى خدمة ما يشاء من مقصد عام ، ما داموا لا يجدون له مقاصد خاصة يفسدونها عليه ؟

الى هـــذا الحضيض أسفت جمـــاعة الحمـــلة على فتوى

الترنسفال ، ولا نظن أن نقل الكثير أو القليل من كلامهم الذى ملأوا به الصحف بضعة أشهر يزيد القارىء علما بمبلغ ذلك الاسفاف ، فان الاتجار باسم الدين لمحاربة الدين هو عنوان عملهم الوضيع ، وانه لعنوان يغنى عن أسوأ ما كتبوه تحته من كذب فاضح وهراء مرذول .

وأخس من هـذا الكذب وهـذا الهراء أن يسبوا عرض الرجل بالتهم التى يعلمون أنها باطل مختلق لأنهم هم الذين اختلقوه وروجوه . فقد كان قراء الصحف المصـورة لذلك العهد يجهلون الكثير عن صناعة التصوير الشمسى التى يعرفها اليوم عامة القراء ويحسنها بعض هواة التصوير كما يحسنها الخبراء المختصون بتدبير المناظر للصحافة المصورة .. ومن أسرار تلك الصناعة التى كانت مجهولة يومئذ عند عامة القراء أن يلفق المصور رسما واحدا من ثلاثة رسوم أو أربعة متفرقات ، فهذا التلفيق هو الذى توسلوا به الى خداع العامة بصورة للمفتى فى حلبة الرقص يخاصر فتـاة افرنجية وكلبها يعبث بأطراف جبته ، ولو استطاعوا المبالغة فى رص المحظورات جميعا فى منظر واحد لتمموا هـذا المنظر بكأس من الخمر وصـفحة من لحم الخنزير ، ولكنهم عجزوا عن جمعها فاكتفوا من المحظورات بمحظور المفتى مع امرأة يغازلها ويراقصها ويصحبها كلبها فى حلبة الرقص على غير المألوف فى مراقص القوم . وخيل اليهم أنها ريبة لا تدفع ودليل من أدلة الاثبات لا يدحض ، ولكن الصورة أحيلت على التحقيق القضائى فلم تثبت على امتحان

الخبراء ولا على المعالجة بأدوات التحليل والتكبير ، وأدين صاحب الصحيفة التى قبلت أن تنشرها لهم بين صحف الخلاعة التى سخروها لحملتهم ، واسمها « حمارة منيتى » يغنى عن المزيد فى الدلالة عليها ... والى قصة هذه الصورة يشير اللقانى رحمه الله فى بعض أبياته اذ يقول :

مكيدة لفقوها بصورة مستعارة
ودبروها وكانوا بقبة الاستشارة
ولطخوا بعد هذا بالطين وجه الحمارة

ويعنى بالقبة قصر الأمير المعروف ، لأنهم دبروا فيه هذه التلفيقة وكاد سرها أن ينكشف بين أيدى القضاة والمحققين ، لولا ضرورة التستر على مقام الأمير المهدد بهذه الفضيحة .

ودون هذا الحضيض من الابتذال فى حق أمير يهدده الاحتلال فى كرامة عرشه أن يذهب فى مساومة المحتلين الى حد الاعتراف باحتلال بلاده واستعراض الجيش المحتل فى ساحة قصره والوقوف تحت العلم البريطانى يوم الاحتفال بعيد ملك الانجليز ، تزلفا منه الى العميد البريطانى ليغضى عن تصرفه بالوظائف الحكومية التى تحده القوانين عن محاسبة موظفيها بغير ادانة يثبتها التحقيق ، ومنها وظائف المندوبين الحكوميين بمجلس ادارة الأزهر ، ووظيفة الافتاء التى يصدر بها قرار التعيين والعزل من وزارة الحقانية .

وكانت مجلة المنار التى تنشر فتاوى المفتى هى الصحيفة الوحيدة التى انتقدت هذا المسلك المعيب ، فكان الجواب عليها

من سماسرة الحملة على فتوى الترنسفال سيلا من الشتائم والمغالطات وتمجيدا لموقف الأمير تحت الراية البريطانية يوشك أن يحسبه فتحا له من فتوح الوطنية والاستقلال ، وعلى هذا النحو كتب كاتبهم فى صحيفة المؤيد يقول « أولا » عن مجلة المنار : « ان صاحبها يملؤها بالاختلاقات الشرعية » ثم يقول :

« لم يدر صاحب جريدة المنار الذى ان خرج عن مدار بحثه ضل وان دخل فى غيره ذل ان الجناب العالى وقف تحت ذلك العلم بحضرة جلالة الملك ادوارد السابع ملك الانكليز وامبراطور الهند ولم يكن جناب اللورد كرومر فى ذلك الموقف الا صورة من صور الملك التى يمثله بها فى هذا اليوم مائة قائد فوق كرة الأرض .... وينكر صاحب المنار استعراض الجناب العالى لعساكر جيش الاحتلال مشيرا الى اكتفاء المغفور له الخديو السابق بالاشراف عليه من نوافذ القصر ، كأنه لم يدر أن مولانا الخديو الحالى حفظه الله عسكرى النشأة يرتدى فى الأعياد والمواسم الكسوة العسكرية ، وهو عالم بدقائق الحركات الحربية بحيث لو أخذ بيده قيادة جيش جرار لكان من أمهر قادة عصره . وماذا يريد بقوله وقف الجناب العالى تحت العلم الانكليزى فى أول يوم من شهر الصيام ؟ وأى دخل للأيام والأيام اخوة والليالى أخوات ولم يعلم بأن مائة مليون من المسلمين يحيون هذا العلم فى ذلك اليوم يوم الاستعراض [1] » .

---

(١) عدد ٢١ يناير ١٩٠٥ من صحيفة المؤيد بتوقيع ابراهيم المويلحى .

ولم تشذ عن خدمة الدسائس الخديوية فى هـذه الحرب الشائنة بينه وبين المفتى صحيفة واحدة من الصحف التى كانت تنعت نفسها بنعت الوطنية بين متطرفة ومعتدلة أو محافظة على القديم وغالية فى المطالبة بالتجديد .. وبلغ الكتاب أجله واستقال الشيخ محمـد عبده من مجلس الادارة وجيء بأعداء العلوم الحديثة شيوخا للجامعة الاسـلامية ومدبرين لنظام الادارة والتعليم فيها ، فانتظم المتطرفون والمعتـدلون صفا واحدا فى الثناء على أعداء الاصـلاح والشماتة بالمفتى المستقيل ، وراح أشد هذه الصحف تطرفا يقول انه تأخر فى الاستقالة لأنه كان من الواجب عليه أن يتخلى عن عمله منذ علم أن « ولى الأمر » متغير عليه .

وليس هؤلاء الصحفيون من الغباء بحيث يجهلون حكم الفضلاء عليهم وحكم التاريخ من بعدهم اذا علم الناس أنهم فى القرن العشرين يستنكرون التعليم الحديث باسم الدين . فنقلوا المسألة بحذافيرها من حرب بين الاصلاح واللصوصية الى حرب بين المفتى والسلطة الشرعية ، وحسبوا عجز الخديو عن فصل الموظف الكبير بغير محاكمة تأديبية دليلا على تأييد الاحتلال الأجنبى لذلك الموظف الكبير ، ومثله فى حماية القانون ونظام الدواوين لهم ألوف الموظفين .

أما المسألة بحذافيرها فى وضـعها الصحيح فهى أن المفتى لم ينتفع بحقه فى وظيفته لجر منفعة شخصية أو ترويج سياسة بريطانية أو التفـريط فى حق من الحقوق الوطنية ، فاذا كان

سماسرة القصر يريدون أن يقولوا ان اصلاحه للتعليم وتطهيره للدواوين ونهوضه بأبناء وطنه وأبناء دينه عمل يوافق الاحتلال ولا يوافق الوطنية فذلك هو الخزى الأكبر لمن يفتريه ، لأنه يدمغ الوطنية بميسم الهوان ويدعى للاحتلال فضلا يسقط حجة الوطنى عليه ولا يطمع فى ادعائه بألسنة مأجوريه .

وانما الخيانة للوطن ذلك الجرم المهين الذى أقدم عليه الخديو ودافعوا عنه دفاع المستميت يوم وقف تحت العلم البريطانى ليحيى جيش الاحتلال ، وأقبح منه فى الاجرام أن يقترف هذه الجريمة فى حق وطنه وحق عرشه ليتوسل بها الى حمل الانجليز على الاغضاء عنه حين يتعرض لوظائف الحكومة التى يحميها القانون ، وأقبح من كل هذا أن يكون هم الآمير من التعرض لتلك الوظائف خيانة الأمانة وسلب المال الحرام وتلويث موظفيه الكبار بلوثة الجبن والاختلاس . أما الموظف الذى يعمل فى تلك الوظيفة ما يشرفه ويشرف أبناء وطنه ودينه فلا جناح عليه أن يحسن ويسىء الأمير وتابعوه ، وانما يسيئون الى أقدس المقدسات من حرمات الحق والفضيلة .

***

ولسنا فى مقام الموازنة بين وطنية محمد عبده ووطنية عباس الثانى وسماسرة قصره . فاننا بهذه الموازنة نهبط بقدر الرجل العظيم الذى لا نعرف فى زمانه قدرا أحق من قدره بالتشريف والاكبار ، ولكننا نزيد هذا الشرف بيانا لمن يجهلونه بمثل من

أمثلة كثيرة لمواقفه الى جانب الخديو حين يعتدى عليه المحتلون وحين ينظر الخديو حوله فلا يرى له سندا أقدر على حمايته من مكانة الشيخ فى العالم الاسلامى ومن شجاعته التى لا يعنيها اغضاب الانجليز منه ، وهو لا يأمن غضب الأمير عليه .

ونحن فى هذا الكتاب الموجز لا نملك الاسهاب حيث يغنينا الايجاز المفيد ، وحسبنا ــ على قاعدتنا هذه ــ حادث واحد هو الحادث الذى استهدف فيه الخديو لأشنع اهانة تلحق بصاحب عرش من العروش فى بلاده ، وهو حادث ليون فهمى الذى أدى الى صدور الأمر من الوكالة البريطانية بتفتيش قصر رأس التين بحثا عن ليون فهمى هذا لاتهام الانجليز اياه بقتله فى قصره أو اخفائه هناك لتقييده ونقله على الرغم منه الى الآستانة ، اجابة لطلب « المابين » أو قصر السلطان عبد الحميد .

يومئذ لجأ الأمير الى حمى الشيخ وصائب رأيه ، فلباه ورجاه أولا أن يستوثق من خلو القصر ويخت المحروسة من ذلك الطريد العثمانى ان كان حقا مقبوضا عليه ، ثم أشار عليه بأن يكتب بلاغا الى معتمدى جميع الدول المعترفين باستقلال مصر بأن السلطة المحتلة تعتدى على حرم قصره ، وأن يبلغ المحتلين فى الوقت نفسه أنه يفعل ذلك اذا هم اجترأوا على تنفيذ أمر التفتيش . فتراجع الانجليز حذرا من اثارة هذه القضية الدولية بطلب من صاحب السلطة الشرعية ، ويقينا بأن المابين العثمانى يؤيد هذا الطلب الذى وجهه الأمير الى الدول بسببه ، ويقينا من الجهة الأخرى بتأييد الرأى المحترم من أبناء

البلاد لأميرهم وعلى رأسهم مفتى الديار الذى يهابون اجتماع فتواه الدينية الى جانب الوثائق القانونية ، واعتقادا منهم أن الأمير لا يهددهم هـذا التهديد وفى قصره ذلك الطريد الذى يبحثون عنه .

***

وفى ختام هذا الفصل ننشر بعض الفقرات من خطاب الخديو الى موظفه الكبير أحمد شفيق باشا حين علم أنه مشى فى جنازة المفتى مع كبار المشيعين ... فبعد أن سمح أدب العرش لذلك الأمير المسكين أن يقول عن فخر وطنه بعـد وفاته ــ لو كان يعقل ــ « انها جنازة حارة والميت كلب » مضى يقول :

« يظهر ــ والله أعلم ــ أنكم أردتم بالسـير وراء نعشه المجاملة بعد الموت ، وهو على ما تعهدونه عدو الله وعدو النبى وعدو الدين وعدو الأمير وعدو العلماء وعدو المسلمين وعدو أهله ، بل وعدو نفسه ،فلم هذه المجاملة ؟ .. »[1] .

***

ان هذا الانتقال من أخلاق الفلاح محمد عبده الى أخلاق الأمير عباس الثانى مفاجأة شديدة الوقع على النفوس الآدمية التى ينتمى اليها الفلاحون كما ينتمى اليها الأمراء ، ولكنه فى

---

(١) مذكراتى فى نصف قرن لاحمد شفيق باشا .

ختام هذا الفصل أصدق من تسويد الصفحات باشتات الوقائع والأخبار وصنوف الدسائس والوشايات للدلالة على كنه الخلاف بين الرجلين وعلى طبيعة تلك العداوة المزرية وطبائع خدامها الذين باعوها ضمائرهم فى سوق المنافع أو فيما هو شر من سوق المنافع : سوق الحسد البغيض والغرور الباطل .

وقد ذهب محمد عبده وعباس الثانى الى ذمة التاريخ ولحقت بهما الأسرة الخديوية بقضها وقضيضها ومعها منافعها التى تباع الضمائر من أجلها ، ولكن باعة الضمائر هؤلاء هم أسلاف فى النسب أو أسلاف فى العمل لخلفائهم الذين عاشوا ويعيشون بعدهم الى هذه الأيام ، وحاجتهم الى مداراة أنفسهم كحاجة أسلافهم فى زمانهم ، كلما أعيد القول فى قضايا الاصلاح وقضايا الجهاد عادوا الى الستار القديم يتوارون خلفه وأعادوا معاذيرهم تهما للمخلصين وتبـديلا لوقائع التاريخ وافتياتا على الوطن والدين ، وسيماهم على وجوه صفحاتهم لا تخفى على الناظرين .

المحسن المعلم

ان الاحسان الى ذوى الحاجات فضيلة من أشرف فضائل العظمة الانسانية وأقربها الى الصفات الالهية ، لأنها قوة فى العظيم تعمل عملها فى اعانة الضعيف ولا تعمل عملها فى اذلاله وارغامه ، على ديدن العظمة التى قد توصف بأنها قوة فرد عظيم ولكنها لا تنسب الى الانسانية ولا تسمو الى مقاربة الصفات الالهية .

وقد كان الاحسان الى المعوزين والضعفاء أول صفة من صفات الأستاذ الامام يعرفها من يعاشرونه فى معيشته ولا تقتصر معرفتهم به على المعرفة بأعماله العامة ، ولكننا — على حبنا للأستاذ الامام من أجل هذه الفضيلة بعينها — نكاد نستصغرها فى كتابة سيرته ، لأن اطعام هذا الجائع واغاثة هذا الملهوف وتلبية الرجاء من ذلك الطالب واسداء المال الميسور الى ذلك الفقير — كل أولئك خير وبر وكرم ، ولكنه — فى النهاية — بر من واحد الى آحاد ، لا يكاد يذكر الى جانب ذلك الخير العميم الذى ترى من أعمال الرجل فى جملتها أنه يغدقه على الدنيا بكل ما أوتى من قدرة وهمة ومضاء ، وأنه يدأب نهاره وليله ولا يكاد يفرغ لنفسه ساعة من النهار والليل وهو يفكر فى ذلك الخير

ويعمل لذلك الخير ويسعد ويشقى فى سبيل ذلك الخير ، ولا يقنعه منه أن يختص به محتاجا الى القوت أو مفتقرا الى المعونة أو شاكيا من الظلم ، الا أن يكون خيرا للأمم ، وخيرا للعالمين ، وخيرا لتوفير السعادة الانسانية التى لا يخطر بباله وهو يدأب لها أنه يستثنى منها أحدا من بنى آدم وحواء .

وخصلة أخرى يحسب الناظر الى احسان هذا الرجل أنها خليقة أن تغض من فضله فى هذه الفضيلة العالية ، وتلك هى صدورها منه كما تصدر الدوافع الضرورية التى تملك على الانسان مشيئته ولا تكاد تبقى له مشيئة يملكها بها أو يقاومها فيها ، فان دوافع الاحسان فى نفس هذا العظيم الكريم أشبه شىء بدافع الحنان فى نفس الأب الرحيم . وأى فضل للأب الرحيم فى عطفه على طفله الجائع أو طفله الباكى أو طفله السقيم ؟

ان فضل هذه الفضيلة يستصغر فى هذه السيرة ليبلغ غاية الكبر الذى تبلغه سجية السانية ، فقل ان شئت أنه لا فضل لمحمد عبده فى احسانه الا كفضل الأب فى الاحسان الى البنين ، ولكنك اذن تشهد بالفضل الذى لا فضل بعده للرجل الذى تملكه رحمته بجميع الناس كما تملك الأب رحمته ببنيه .

كان محمد عبده يحسن الى صاحب الحاجة وهو فى منفاه فقير لا مورد له غير مرتبه من عمله ، وكان يحسن الى أصحاب الحاجة وهم من ذرية أعدائه المفترين عليه ، وكان يحسن الى المنقطعين عن الكسب وهو مريض محتاج الى ماله القليل لتدبير

علاجه ومعيشته فى مقامه وسفره ، وكان يحسن اليهم وهو فى مرض الموت ، ويموت وفى ودائع سره صدقات للمستعينين به لم يكن يطلع عليها أحدا من أقرب المقربين اليه .

روى السيد رشيد رضا مما علمه من أخباره يوم كان منفيا ببيروت : أن صاحبا له توفى والده وليس عنـده ما ينفقه فى تشييعه ، فأعطاه كل ما فى حوزته من مال وهو مرتبـه الذى قبضه يومئذ من المدرسة السلطانية ، ولولا أن رجلا فى مصر أحسن اليه مثل ذلك الاحسان قبل نفيه وفى له بدَينه وحوله اليه على مصرف بيروت ، لاضطر الى القرض لينفق بقية الشهر على نفسه وأهله .

ولم تكن صـحيفة الجوائب المصرية من الصـحف التى تتطوع لنشر مآثر المفتى وان لم تكن كذلك من الصحف التى سخرت للحملة عليه ، ولكن صاحبها خليل مطران كان يلقى علماء الأزهر كما يظهر من حـديثه مع شيخه ومن الردود فى صحيفته ، وكان يعرف بعض شواغلهم وشواغل الأستاذ الامام ، وهو الذى روى بعض مآثره فى مقـال تأبينه فقـال عن بره بأعدائه الثائرين عليه : « ان أنجال المشايخ فى الأزهـر كانوا يتناولون مرتبات آبائهم بالوراثة فرأى الأستاذ فى ذلك غبنا للعلماء ، لأن هذه المرتبات انما هى وقف عليهم ، فأعاده الأستاذ اليهم وعوض أنجال المشايخ عنها بما كان يجمعه بسعيه فى رأس كل شهر من أمواله وأموال محبيه ، ولقد شـوهد وهو ساع

هذا السعى عقب اعتزاله الأزهــر وقيام الشــيوخ فى وجهه محاربين » .

وقد كانت له معونة شهرية لطائفة من الأدباء يأوون اليه ، ومنهم حافــظ وامام والكاظمى والشنقيطى العــالم اللغوى المشهور ، وهو الذى قال يرثى نفسه ويذكر معونة الامام له فى غربته المتقطعة دون القادرين على المعونة فى عصره :

تذكــرت من يبكى علىّ فلم أجــد
سوى كتب تخختان بعدى ، أو علمى
وغــير الفــتى المفتى محمــد عبــده
صديقى الصدوق الصادق الوّد والكلم

وكانت توصيته للمطابع ودور النشر من أقوى المشجعات على طبع الكتب القديمة والحــديثة التى يعجــز الأدباء عن الاستقلال بطبعها ونشرها ويستفيدون من تأليفها أو الوقوف على تصحيحها . لأنه ــ أجزل الله مثوبته ــ كان يتولى توزيعها على معاهد العلم ويرسلها باسمه الى مريديه من سروات الأقاليم وكبار موظفيها . وقد تسلم من حافظ أكثر نسخ البؤساء بعد صدور الجزء الأول ثم أسلم حافظا من ثمنها ما يكفيه سنوات ــ كما قال لنا حافظ ــ لولا أن رزق الســنوات لا يجاوز فى يدى حافظ مدى الشهور ، وهو الذى قال من قصيدته التائية فى رثائه :

لقد كنت أخشى عادى الموت قبله
فأصبحت أخشى أن تطول حيــاتى

وصحيفة الصاعقة — كما ينبىء عنها اسمها — ليست من الصحف التى تسخو بالثناء على أحد من الأحياء أو الموتى ، اذ كانت مرصدة للهجاء الاجتماعى والنقد اللاذع صادقا أو غير صادق ، وكان صاحبها يلقب بالحطيئة الناثر لأنه كان كالحطيئة الشاعر يهجو نفسه وأقرب الناس اليه ، ولكنه بكى فيه تلك المروءة السخية التى كان هو من العارفين بجدواها ، فرثاه بمقال طويل افتتحه بهذا البيت :

اليوم نامت أعين بك لم تنم
وتسهدت أخرى فعز منامها

ثم قال :

« أما مروءته فليس أقوى دلالة عليها من خروجه قبل أن تخرج الشمس من غمدها وجيبه ممتلىء برقاع امتلأت بحاجات الناس فلا يرجع الى داره الا بعد أن يرجع الدهر عن معاكسة من وضعوا آمالهم فيه ... وكم نظر الله اليه فى جوف الليل وهو يمد يده بالحسنات الى الفقــراء والمساكين ويعول أنفسا ماتت بموته اليوم »

ولقد عرفنا نحن أناسا نظروا اليه فى جوف الليــل يطرق عليهم الأبواب ويسلمهم ما قدر عليه من عاجل الصدقة ، وهو يقول لهم انه أمانة من جهات الخــير يؤديها اليهم ولا يعرفهم بنفسه ، وكنا نسكن على خط المطرية التى كان فيها مسكنه فنسمع أخباره هــذه مع أصحاب البيوت الكريمة التى فقدت

عائليها ، فلم يعرفوا أنه هو ذلك الرسول الذى كان يطرق عليهم أبوابهم تحت جنح الظلام الا بعد أن افتقدوه على أثر وفاته .

وقد عهد أهله الى تلميذه الحميم السيد رشيد رضا أن يرتب أوراقه عند سفره الى الاسكندرية فوجد فى محافظ الأوراق صررا من النقـود مكتوبا على كل منها اسم من يراد اعطاؤه اياها . وسأله ـ وهو يعد العدة للسفر ـ عن الشاعر الكاظمى فذكر له أنه مدين . فأسف لأنه لم يخبره بذلك قبل تصرف أخيه فى نفقة السفر ، لأن الكاظمى أحوج اليها .

ولو عرفت هذه الصـدقات المستورة التى كان يبذلها أو يسعى فيها ويوصلها بيده وأيدى خاصته الى مستحقيها لظهر أنها شغل حياة كاملة تستغرق العمر ولا تدع فيه فراغا لعمل سواها ، وعجب الناس كيف كان يدبر لها وقتها مع تلك الأعمال الجسام التى كان يضطلع بها ولا تقبل الانابة عنه فى أدائها . ومثل هذا الشغلان بالاحسان فضل نادر فى حياة العظماء الذين كانوا يشغلون بمثل شواغله ويلقون من المصاعب والعقبات بعض ما كان يلقاه من أعدائه وأعوانه فى أداء رسالته ، ولكنه على هذه الندرة لم يكن بالخاصة المميزة التى تنطبع بها هذه النفس بين أقرانها ونظرائها ، وانما يمتاز الرجل فى احسانه بتلك المزية التى انطبعت بها جميع صفاته وجهوده : وهى مزية المعلم المطبوع على التعليم . وما كان التعليم فى مثل هذه الفطرة الا شيئا يعطيه من ذخيرة الفكر والروح .

فالشيخ محمد عبده كان رائد « الخـدمة الاجتماعية » فى

وطنه قبل أن تعرف فى هذا الوطن وفى غيره « مصالح الخدمة الاجتماعية » التى سميت بعد ذلك بأسماء الوزارات والدواوين ، ولم يكن يقنع بما يسديه من الخير بيده حتى يكون هذا الخير فى مجاله الواسع عمـلا عاما للمجتمع يتعود القائمون عليه أن يوطدوا له قواعده ويتعاونوا على تنظيمه ويتكفلوا له بضمان البقاء بعدهم لمن يخلفهم عليه .

فالاحسان المستور ــ يدا بيد ــ عمل يستطيعه المحسن بينه وبين نفسه ويحمد منه أن يكتمه ولا يعلنه لغيره ، ولكن الاحسان فى النكبات العـامة لا يتأتى بغير التعميم والتنظيم وضمان الأمانة أو ضمان الدوام فى غير الاغاثة الموقوتة التى تنقضى بانقضاء دواعيها . وهذه هى مواطن الاحسان التى كان محمد عبده يبادرها فى ساعتها كلما ألم بالبلاد داع من دواعيها ولا يظهـر اسمه للنـاس الا كان مجـرد ذكره ضمانا للثقة والطمأنينة ، وكان توجيه الدعـوة باسمه ضمانا للمـوافقة والاجابة ، ثم يكون اشرافه على التدبير والادارة ضمانا لانتظام العمل ودوامه .

فمنذ عاد محمد عبده من منفاه لم يتخلف قط عن الغوث العاجل للمستغيث فى نكبة من النكبات التى تصيب هذه البلاد ويقعد عنها ولاة الأمر والقادرون على الاغاثة بالمال أو السلطان ، وكانت سنته فى كل عمل من أعمال الغوث أن يندب له الجماعة من أهل الكفاية والأمانة بين خاصة صحبه ، وأن ينهض هو بعبء تنظيمه ونشر الدعوة باسمه ، ولم يحدث قط أنه نهض

بهذا العبء فى عمل من تلك الأعمال الا كان نهوضه به أمانا من الفوضى والاختلال .

تركت حملة السودان فى هذا البلد جيشا من الأيتام والأرامل والعاطلين وجرحى الحرب والمنكوبين لا عائل لهم ولا مورد لمعونتهم ، وأمسكت الحكومة يدها عن كل معونة لهذا الجيش الزاخر لأنها اعتذرت بنفاد المال فى نفقات الحملة وعجز الخزانة عن ترتيب المعاشات أو التعويضات بين مصارفها المحدودة ، فبادر الشيخ محمد عبده ــ وكان يومئذ قاضيا بمحكمة الاستئناف ــ الى تأليف هيئة خاصة لحصر ضحايا الحرب وتنظيم المعونة لهم مما يتبرع به المحسنون وتسهم به خزانة الحكومة وخزانة الأوقاف وغيرها من جهات البر والمساعدة . وجعل قوام اللجنة من رجال القضاء وأهل الثقة من كبار الأغنياء ، وحرص على احاطة هذه الهيئة بالضمانات « الرسمية » لضبط مواردها ومصارفها على نظام الحساب المتبع فى دواوين الحكومة ، وقامت هذه الهيئة بأمانتها على وجهها الأمثل ، ثم تبعتها الحكومة والجماعات الخيرية فى طريقها ، بعد تمهيدها بهذه الفاتحة التى لم يكن لأولئك المنكوبين ــ لولاها ــ من مسألة يلتفت اليها .

واحترقت بلدة ميت غمر فى أوائل صيف سنة ١٩٠٢ فبلغ عدد المنكوبين بالحريق أكثر من خمسة آلاف ، لا فرق بين كبيرهم وصغيرهم ولا بين غنيهم وفقيرهم فى الحاجة الى المأوى والطعام ، وقال الأستاذ الامام فى وصف الحادث من بيانه الذى

نشره على النـــاس فى الصحف : « ليس الحادث بذى الخطب اليسير ، فالمصابون خمسة آلاف وبضع مئين ، منهم الأطفال الذين فقدوا عائليهم ، والتجار والصناع الذين هلكت آلاتهم ورءوس أموالهم ، ويتعذر عليهم أن يبتدئوا الحياة مرة أخرى الا بمعونة من اخوانهم ، والا أصبحوا متشردين متلصصين أو سائلين ... » .

وقد بذل الأستاذ الامام من معونة الجمعية الخيرية الاسلامية التى كان يرأسها يومئذ كل ما تحتمله مواردها ، وألف لتعمير البلدة واغاثة أهلها جماعة كبيرة تمدها بالمال وتحث الناس على امدادها به فى عواصم البلاد وقراها ، وطاف بنفسه على بيوت الأمراء والوجهاء وأصحاب الثروة يسألهم النجدة فى حينها قبل فوات أوانها ، واستخدم كل وسيلة من وسائل الحض والدعوة يقدر عليها ، ومنها حث الشعراء على النظم فى موضوع هذه النكبة وفى طليعتهم شاعره حافظ ابراهيم الذى نظم فيها قصيدة قال فى أولها :

سـائلوا الليـل عنهم والنهارا
كيف باتت نساؤهم والعـذارى
أين طوفان صاحب الفلك يروى
هذه النار ، فهى تشكو الأوارا

وقال منها يستنجد بالمنشاوى (باشا) فى سجنه :

أيهـذا السجين لا يمنع السـجـ
ـن كريما من أن يقيـل العثـارا

مر بألف لهم وان شـئت زدها
وأجـرهم كما أجرت النصارى

وهو يشير هنا الى أحمد المنشاوى (باشا) عميد القرشية الذى سجن يومئذ فى قضية لعبت فيها السياسة لعبها ، وكان من مروءته أيام الثورة العرابية أنه آمن الأوربيين الخائفين فى داره ، وسبق فى ترجمة الأستاذ الامام كلام عن صلة أبيه بهذه الأسرة العريقة فى القرشـية . وسنرى فيما يلى أنه كان أحد المحسنين القلائل الذين كان الأسـتاذ الامام يعتمد عليهم فى انجاز مشروعاته الاجتماعية . وقد جمع من أسرته ومن سائر الأسر الكريمة ألوف الجنيهات ، وذهب بنفسه الى ميت غمـر ليشرف مع الهيئة المختارة على انفاقها فى تعمير القرية وتعويض أهلها .

ولقد كان أثر المحسن المعلم فى المؤسسات البـاقية أبرز وأثبت من أثره فى هـذه المساعدات التى تدعو اليها الحوادث الموقوتة كحوادث الحرب وحادث الحريق وأشباه هذه الحوادث المرهونة بأوقاتها . فان المؤسسات الخيرية التى نشأت برعايته وهدايته كانت أثبت الجمعيات المصرية وأنفعها وأقدرها على أداء مقاصـدها من محاربة الجهل والفاقة ولا تزال أكبر هذه الجمعيات فى مصر جمعيتان تأسستا بمعاونته وهدايته وعاشتا منذ تم تأسيسهما نحو ستين سنة تعملان وتتقدمان على هداه : احداهما الجمعية الخيرية الاسلامية والأخرى جمعية العـروة الوثقى وقد سميت باسم جمعيتـه التى اشـترك فى تأليفها

وادارتها على البعد فى منفاه مع السيد جمال الدين . وقد أسهم فى تأسيس الجمعية الخيرية الاسلامية ثم تولى رئاستها فزادت مواردها وأعمالها ضعفين فى سنوات رئاسته الخمس (من ١٣١٧ الى ١٣٢٢ هجرية) اذ كانت مدارسها أربعا فأصبحت سبعا ، وكان عدد تلاميذها (٣١١) تلميذا فأصبح (٧٦٦) وكانت تملك مائتين وثمانين فدانا فأصبح لها من الأرض خمسمائة وثلاثة وثلاثون فدانا غير الموارد الأخرى التى ارتفعت فى جملتها من ٤٤٣٠ جنيها الى ١٠٣٩٥ جنيها . وازدادت — تبعا لذلك — قدرتها على التعليم بالمجان وترتيب المعونة للمعوزين .

ولم يتسع عمر الأستاذ لاتمام المشروعات التى كان يفكر فيها ويهيىء الأذهان لاعداد أسبابها وضمان اقامتها ودوامها ، وكان يرجو أن يتسنى له اتمامها فى مدى قريب بعد الفراغ لها من بعض شواغله الأزهرية ، ولكنه فارق الحياة فى السنة التى اعتزل فيها مجلس الادارة الأزهرى بعد شهور من اعتزاله ، ويمكن أن يقال — على هذا — انه ما من عمل من أعمال الخدمة الاجتماعية تم بعد وفاته الا كان من مشروعاته التى هيأ لها الأذهان ومهد لها الطريق وبدأ فعلا بالاستعداد لتنفيذها ، ومنها الجامعة المصرية التى كان يعنى بها أن « تقوم على تعليم العلوم وفقا للمناهج الحديثة وتسهم فى تجديد الحضارة العربية القديمة » وقال عنها فيما نشره الأستاذ روجرفيل من وصيته بعد وفاته : « اذا نظرنا الى التعليم الذى تنشره الحكومة من

حيث قيمته فلابد أن نلاحظ أنه لا يكاد يقدر الا على تعليم رجل محترف بحرفة يكتسب بها عيشه ، ومن المستحيل أن يستطيع هـذا التعليم تكوين عالم أو كاتب أو فيلسوف ، فضـلا عن تكوين نابغة . وكل ما لدينا من المدارس التى تمثل التعليم العالى فى مصر انما هى مدارس الحقوق والطب والهندسة ، وأما بقية الفروع التى يتكون منها العلم الانسـانى فقد ينال منها المصرى صورا سطحية فى المدارس الاعدادية ويكاد يكون من المستحيل أن يتقن منها شيئا وهو فى الغالب مكره على أن يجهلها جهلا دائما ، وذلك شأن علم الاجتماع وفروعه التاريخية والخلقية والاقتصادية ، وذلك شأن الفلسفة القديمة والحديثة والآداب العربية والأوربية والفنون الجميلة أيضا ــ كل ذلك مجهول لا يدرس فى مدرسـة مصرية .... فلا ترى فى الطبقة المتعلمة الرجل الباحث ولا المفكر ولا الفيلسوف ولا العالم ولا ترى الرجل ذا العقل الواسع والنفس العالية والشعور الكريم ، ذلك الذى يرى حيـاته كلها فى مثل أعلى يطمع فيه ويسـمو اليه [1] » .

وقد مرض الأستاذ الامام مرض الوفاة فلم يشغله المرض عن اعداد العدة لهذا المشروع الكبير ، وزار صـديقه أحمد المنشاوى باشا واستزاره غير مرة للبحث فى وسائل بناء الجامعة وضمان الموارد التى ينفق منها عليها ، وخاطب وزارة المالية فى

---

(١) كتاب محمد عبده للدكتور عثمان أمين الأستاذ بجامعة القاهرة .

بيع عشرة آلاف فدان من ملك الحكومة يشتريها المحسن السرى، ويسجل وقفها على بناء الجامعة ومصاريفها مع ما يربط عليها من الوقوف والأرصدة المالية ، ولم يتوان ذلك المحسن الوفى فى انجاز هذا العمل بعد وفاة الأستاذ الامام برا بذكراه وتحقيقا لأمله: « وفى يوم السبت عاشر شوال سنة ١٣٢٢ (١٩٠٥) كتب المنشاوى باشا الى مجلس النظار كتابا يطلب فيه أن تبيعه الحكومة عشرة آلاف فدان معينة ليجعلها وقفا على مدرسة كلية يريد انشاءها فى ضواحى القاهرة ويوقع عقد الوقفية فى الوقت الذى توقع فيه المالية عقد البيع .... حتى اذا ما انتهت الوسائل قضى الرجل نحبه فى الأسبوع الذى عين فيه موعد العقد .. »[1] .

***

ويشاء الله أن يبرىء هذه النفس الزكية من كل ملامة يتجنى بها المتجنى عليه فيما اختاره لنفسه من ايثار خطة التعليم والاحسان فى خدمة قومه على خطط خصومه المشغولين بسياسة الصحف والأحزاب ، فما كانت لتعوزه — رحمه الله — زيادة لمستزيد فى بعض المكائد السياسية والايمان بفسادها وافسادها لكل ما تمتد اليه من « اختصاصها » كما يقولون وغير اختصاصها ، ولكنه كان يخطو فى عمله خطوة بعد خطوة وكأنه

---

(١) ص ٩٤٧ من الجزء الاول من تاريخ الأستاذ الامام لصاحب المنار .

بحاجة الى التذكير الجديد بلؤم تلك السياسة خوفا عليه من نسيانه .. وفى كل خطوة من تلك الخطوات كانت تبرز له الأدلة من هنا وهناك على استقامة خطاه واعوجاج الخطى من جانب خصومه : هنا نفع لا ريب فيه من خطة التعليم والاحسان ، وهناك ضرر لا ريب فيه من سماسرة السياسة يلاحقه فى أشرف أعماله وأكرم آماله ، فما من مشروع من المشروعات التى ذكرناها فيما تقدم سلم من الوشاية الخفية أو المكابرة الصحفية، ولا نذكر المكائد التى رصدت له فى مساعيه لطلب الكتب النادرة التى كان يعهد بطبعها الى جماعة احياء الكتب العربية ، ولا المكائد التى رصدت له فى جمع التبرعات لمنكوبى حرب السودان ، ولكننا ندل على خسة هذه المكائد بالاشارة الى أغربها وأبعدها عن التصديق : وهى وشاية الوشاة عند الوكالة البريطانية بالجمعية الخيرية الاسلامية لاتهامها بأنها تجمع الأموال لاعانة مهدى السودان وتزويده بالذخيرة والسلاح ، واجترائهم فى ذلك على تلفيق الأختام المزورة والبصمات المزيفة التى أقنعت دار الوكالة وأثارت شبهاتها فأمرت بتفتيش مكاتب الجمعية ومراقبة مراكزها ، ولولا تصدى الأستاذ الامام لاحتمال التبعة فى كل ما يثبت على الجمعية من هذه الوشايات واجتهاده لكشف دخائل التزوير فى تلك الوثائق المزيفة لقضى على الجمعية فى مهدها وقضى معها على حسناتها وصدقاتها .

***

المصلح الفيلسوف

من دأب الايمان الدينى فى الطبائع القوية أن يقارب بين الروح المثالى والفكر العملى ، على غير المألوف فى أكثر المفكرين العمليين من غير المتدينين ، أو غير المؤمنين ايمان اليقين .

فان القيم الأخلاقية العليا والأريحية المثالية خيال يحلم المصلحون المثاليون بتحقيقه فى المستقبل ان صح أنه قابل للتحقيق فى وقت من الأوقات . ولكنه واقع مقرر فى كل وقت عند المصلح المؤمن . لأنه مقترن بوجود الاله الكامل السرمدى فى كل لمحة من لمحات الزمن ، حاضر بحضوره فى كل مكان ، غير ميئوس من اداركه بارادة الله وارادة خلقه مع صدق النية واستقامة الطريق على هداه .

وبهذا الايمان يتلاقى فى طبيعة المؤمن القوية هذان الخلقان اللذان يفترقان بين مثالى يخطىء طريق العمل وواقعى يرتاب فى امكان المثل العليا وسداد الأريحية الأخلاقية ، فهما خلقان متفقان تمام الاتفاق فى ضمير المصلح المؤمن بوجود الكمال المطلق فى كل وقت وكل جهة ، وهو وجود الله .

ونحسب أن هذا الاتفاق بين الخلقين هو أصح تفسير لتلك السجية البينة فى طوية مصلحنا العظيم : أمل لا حد له فى الخير

وفهم للواقع العملى لا يضـل طريقه بين الشعاب المتفرقة فى مسالك الاصلاح .

ولقد تصوف مصلحنا العظيم زمنا فى صباه ولا نخاله ابتعد من طريق المتصوفة الى ختام حياته .

وقد درس حكمة الفلاسفة النظريين كما درس فلسفة المعتزلة وعلماء الكلام ومذاهب الفقهـاء من أسرى النصـوص ومن أصحاب التأويل .

ولم يكن قط من « أهل الظاهر » الذين يأخذون بالحرف ويدينون بالتقليد .

ولكنه كذلك لم يكن قط من « أهل الباطن » الذين يفهمون « الباطنية » على أنها رفض للظاهر وانقطاع عن الواقع ونبذ للحياة وانصراف عن شواغل المعيشة التى يشتغل بها الأحياء فى دنياهم ، أو يحسبون الباطنية ضربا من « الدروشة » والمسكنة المختارة على مذهب المجاذيب من أبناء الطريق .

انما كان رفضه للظاهر رفضا للقشور وألوان الطلاء . وكان بحثه عن الباطن بحثا عن حقيقة المعنى الصحيح من وراء اللفظ السقيم .

انما كان رفضه للظاهر المموه بحثا عن الواقع الذى خلص من التمويه ، فهو واقعى عملى فى صميم الواقع الذى يصلح للعمل النافع ، وهو يقترب من وسائل العمل كلما ابتعد من ظاهر الطلاء والتمويه فيما يتداوله الناس من الأباطيل ، وغيره

على غير هذه السجية يبتعدون من حياة العمل الواقعية كلما أمعنوا فى البحث عن باطنهم المحجوب أو عن خيالهم البعيد .

فهو مصلح فيلسوف بكل ما شئنا من معانى الاصلاح والفلسفة .

هو مصلح يتصل اصلاحه بالتفكير كما يتصل بالعمل ، وهو فيلسوف حين تكون الفلسفة حكمة يروض بها الحكيم نفسه على المسلك الذى ينبغى له كما يراه والغاية التى يسعى اليها كما هداه الفكر اليها . وهو فيلسوف حين تكون الفلسفة بحثا عن سر الوجود ورأيا فى كليات الحقائق يحيط بأجزائها ويستعان به على تفسير تلك الأجزاء .

وقد كان يفهم الفلسفة على هذا المعنى فى مستهل حياته العلمية حين كان المفكرون يفسرونها على وجوه مختلفة لا تطابق معناها . وكان يوما بمجلس على مبارك باشا وزير المعارف وفى المجلس من فضلاء المفكرين الدكتور يعقوب صروف محرر المقتطف ، وكان بعض الصحف قد سمى كاتبا من كتاب العصر بالفيلسوف على غير حق فى رأى الدكتور صروف ، فقال الدكتور : ان الناس قد ابتذلوا هذه الكلمة حتى صاروا يطلقونها على غير أهلها ، وتساءل الحاضرون من يكون الفيلسوف اذن على المعنى الصحيح ؟ فقال الدكتور فى رواية الأستاذ رشيد رضا : هو الذى يتقن جميع العلوم ... قال الشيخ محمد عبده : اذن لا يوجد على الأرض فيلسوف . وعاد الدكتور يقول ما معناه : انه لابد أن يتقن علما من العلوم ويلم

بسائرها ، فقال الشيخ محمد عبده : ان الذين يتعلمون على الطريقة الحديثة يخرجون من المدارس العالية ، وقبلها الثانوية ، على المام بالعلوم ويتقنون بعضها . فما أكثر الفلاسفة بين الأطباء والمهندسين والطلاب بهذا المعنى ! . ثم قال : ان الفيلسوف كما يفهمه هو الذى له رأى ومذهب فى العقليات والاجتماعيات يمكنه الاستدلال عليه والمدافعة عنه .

وبهذا المعنى الصحيح من معانى الفلسفة يتضح للأستاذ الامام مذهب فلسفى مستقل فى موضوع الفلسفة العامة وهو البحث عن الوجود أو البحث عما وراء الطبيعة على اصطلاح أكثر المحدثين ، وتتضح له مع هذه الفلسفة العامة فلسفة خاصة فى سائر الاجتماعيات والعقليات : ومنها فلسفة الأدب والفن وفلسفة اللغة والبيان على الاجمال .

أما فلسفته فيما وراء الطبيعة فهى فلسفة متصوف اطلع على آراء الفلاسفة التى دار عليها البحث بين المتكلمين والمعتزلة وفلاسفة المسلمين ، ثم اطلع على أقوال فلاسفة الغرب فى العصور المتأخرة اطلاعا يمكنه من الجمع بينها وبين ما يشبهها من أقوال المتقدمين ، وقلما استحدث فيما بعد الطبيعة شىء من جانب المعاصرين لم يسبقهم اليه الأوائل فى أمهات المسائل . وان أضاف اليه المعاصرون ما أضافوا من مصطلحات العلم الحديث .

واستقلال الشيخ محمد عبده بالفكر والنظر ، ثم استقلاله بالعمل فى الاصلاح ، يفردانه بمذهبه بين مدارس الفلسفة

الاسلامية فلا يتيسر ضمه الى طائفة منها يسمى باسمها وينفصل بذلك عن سائرها .

فهو مع الفلاسفة والمعتزلة فى تحكيم العقل والقياس على المنطق والعلوم الكونية ، ولكنه يخالف رأى الفلاسفة فى فهم معنى الوجود ومعنى العلوم بالنسبة الى الحقيقة الالهية ، ويخالف رأى المعتزلة فى مجادلاتهم العقيمة حول مسألة الصفات وما تفرع عليها من الكلام عن خلق القرآن .

وهو مع المتصوفة فى رياضتهم النفسية والفكرية ولكنه يرى أن الهام المتصوف « ذوق » وجدانى لا يجوز له أن يدين به غيره « ولا ينكر أن لهم أذواقا خاصة وعلما وجدانيا .... ولكنه خاص بمن يحصل له لا يصح أن ينقله لغيره بالعبارة ... فان هذا الذوق يحصل للانسان فى حالة غير طبيعية ، وكونه خروجا عن الحالة الطبيعية لا يجيز أن يخاطب به المتقيد بالنواميس الطبيعية » .

وشبيه بهذا رأى الطب ــ على قول ابن سينا ــ فى علاج من كانوا يعرضون عليه من المصابين بمس الجن أو الأرواح الخفية . فانه كان يعالج الأعراض الجسدية بما يناسبها من الأدوية الجسدية ، ولا شأن له فى علاج الآثار الطبيعية بما كان لها من المؤثرات غير الطبيعية ، أيا كان منشؤها .

وقد يحيط بالفلسفة الالهية فى مذهب الأستاذ الامام من يقرأ تعليقاته على العقائد العضدية ومناقشته فى حاشيته للامام عضد الدين الأيجى والامام جلال الدين الدوانى فى شتى

المسائل التى تقوم عليهـا اليوم فلسـفة ما وراء الطبيعة عند الفلاسفة المعاصرين . مضافا اليها مسألة الصفات التى لم يطرقها هؤلاء المعاصرون .

وأيسر من هذه الحاشية ــ لمن لا يقرأ كتب الفلسفة السلفية ــ رسالته القيمة فى التوحيـد ، وتفسيراته للآيات القرآنية من دروسه فى الجامع الأزهر . وفيها بيان جلى لكل مسألة من تلك المسائل التى يقل فيها الجـلاء ويكثير فيها الغمـوض فى كتب الأقدمين .

فاذا أردنا أن نجعل لفلسفة الأستاذ الامام حدا فاصلا بينه وبين مخالفيه من جماعة المعتزلة والمتكلمين والفلاسفة الأقدمين ... فالحد الفاصـل هنا هو القـدرة على حسم الجدل العقيم بالرجوع الى حكم العقل السليم ، أو هو القدرة العملية على حل المشـكلات العقلية ، ولا سـيما المشكلات التى لا داعى للاشكال فيها غير الوقوف عند اللجاجة اللفظية والعجز عن تقرير معناها ، أو غير التهالك على الزبد وترك ما ينفع الناس .

وأقرب الآراء الى الأسـتاذ الامام آراء حجة الاسـلام أبى حامد الغزالى رضـوان الله عليه ، فهو قريب منه فى كل ما ابتعد به الفهم بينه وبين الفلاسفة أو المعتزلة أو المتكلمين ، وليس بينه وبين حجة الاسلام من خلاف يذكر الا كان ــ على الأكثر ــ من قبيل الاختلاف فى الدرجة دون الجـوهر . فان الأستاذ الامام لا يشتد على الفلاسفة اشتداد حجة الاسلام ،

ولا يقول بالتكفير حيث يتأتى المخــرج المقبول ، ولو ببعض الصعوبة فى التأويل .

ان « الاله » عند أرسطو هو المحرك الأول ... ولا تأتى الحركة منه لأنه أبدى لا أول له ولا آخر ، ولكنها تأتى من الهيولى التى هى المادة فى دور القابلية ، وانما تخرج من القابلية الى الكون بحركتها نحو الكائن الأول شوقا الى الكمال ، وهى فى كل حركة تتخذ لها صورة معينة تجعلها شيئا وتجعلها أقرب الى الكمال بمقدار خلوها من الهيولى وازدياد نصيبها من الصورة المحض التى لا مادة فيها .

أما الاله فى العقيدة الاسلامية كما يبسطها الأستاذ الامام فى كتبه المتقدمة فهو « الوجود الكامل المطلق » وكل ما عداه من المخلوقات فهو وجود ناقص محدود .

وكمال الله لا ينفى ارادة الخلق على قــول أرســطو فى الارادة ، ولا يقتضى قدم المخلوقات الناقصة المحدودة متفرقة أو مجتمعة فيما نسميه العالم أو الكون ، ولا يمنع العقل أن يكون هذا العالم حادثا وأن يكون الله قد أحدثه من العــدم بقدرته ، لأن القدرة هى امكان القادر ما لا يمكن غيره ، ومعنى قدرة الخالق المطلق أنه يمــكنه ما ليس بالممكن بغــير قدرته المطلقة ، فلا وجه هنا للاستحالة مع الوجود المطلق الذى ليست له حدود .

وصفات الله التى يقتضيها الكمال واجبة وجوب وجوده على أكمل صفة ، فاذا جاء الشرع بصفات غير مستلزمة عقلا

فلا يجوز للفيلسوف أن يرفض صفة من الصفات لا يمنع العقل نسبتها الى الكمال المطلق . ولا معنى للجدل العقيم فى استكناه هذه الصفات لأن العقل الانسانى لا ينفـذ الى كنه شىء من الأشياء ، فضـلا عن كنه الوجود الأوحد الذى ليس له مثيل يقاس عليه .

وللأستاذ الامام فى ذلك رأى كرأى الفيلسوف الألمـانى عمانويل كانت فى استحالة العلم بالشىء فى ذاته (Nomena) ووقوف العلم الانسانى عند الظواهر (Phenomenan) مع التعبير عن هذا الفارق باصطلاح الأقدمين : وهو الفـرق بين الكنه والعوارض ، اذ يقول من رسالة التوحيد عن غاية كمال العقل الانسانى انما هى « الوصول الى معرفة عوارض بعض الكائنات التى تقع تحت الادراك الانسانى حسا كان أو وجدانا أو تعقلا ، ثم التوصل بذلك الى معرفة مناشئها وتحصيل كليات لأنواعها والاحاطة ببعض القواعد لعروض ما يعرض لها ، وأما الوصول الى كنه حقيقة ما فمما لا تبلغه قوته ، لأن اكتناه المركبات انما هو باكتناه ما تركبت منه وذلك ينتهى الى البسيط الصرف وهو لا سبيل الى اكتناهه بالضرورة وغاية ما يمكن عرفانه منه هو عوارضه وآثاره » .

وليس قصور الانسان عن استكناه الأشياء فى ذواتها بحائل بينه وبين الاستعانة بعقله على المعرفة الدينية . فانه بهذا العقل يستعين على كل معرفة تعنيه وتنفعه فى مصالحه الدنيوية ، وعلم العقل الانسانى بقصوره يلهمه تفويض الايمان بمسائل الغيب

ومسائل الشرع التى لا يتطلبها العقل على صورة من الصور غير صورتها فى الدين ، كشعائر الفروض واعداد الركعات فى صلوات العبادة ومقادير الزكاة وما اليها ، فان العقل يتقبلها لأنها ضرورية على صورة من الصور ، وليس له أن يرفضها على صورة دون صورة .

وبهذه القوة العاقلة فى الانسان يدرك ما يجب فى حق الله وما ليس بالممتنع فى حقه ، كما يدرك ما ينبغى للخلق كله فى جملته ، وقصارى القول فيه أن الواجب فى حق الله هو الواجب فى حق الوجود الكامل المطلق ، وأن نهاية القول فى العالم كله أنه وجود مخلوق أو وجود محدود .

وتنجلى طبيعة المصلح العامل فى هذه الفلسفة الالهية التى اطمأن اليها من بين آراء الفلاسفة وعقائد المعتزلة وعلماء الكلام . فلم يكن يعنيه منها أنها فلسفة تحل جميع المشكلات وتفسر جميع الغوامض وتفصل فى جميع القضايا المعلقة بين المفكرين الالهيين ، وانما كان يعنيه منها أنها تبطل الحيرة من الناحية العملية فلا تشغل العقل بما لا داعية للحيرة فيه . لأنه على أى الآراء من ناحية الواقع سواء . وما لم يكن البت فيه جوهريا للعلم بحق الله وحق العالم المخلوق فالقيل والقال فيه لجاجة لا تجمل بالعقل وليس لها ضرورة فى عقائد الضمير .

فالوجود المطلق لا يحده الزمان لأنه يخلق الزمان ، ولا موجب اذن للحيرة فى قدم العالم أو حدوثه . لأن الله قادر على

أن يخلقه مع الزمان ، ولا داعية لحيرة العقل فى أمر حـدوثه وقدمه على هذا الاعتبار .

والذين يقولون ان البعث بالأرواح حتم يوجبون استحالة البعث بالأجسام فى غير استحالة معقولة . لأن قدرة الله لا يمتنع عليها تبديل الجسد فى ابان الحياة ، ولا داعية للحيرة فى مقادير المادة التى تتألف منها الأجساد الحيوانية جميعا ، لأن الاله الذى خلق المادة ابتداء يخلقها كرة أخرى بما يشاء لها من المقادير .

ومسألة القدر ـ على أى معنى من معانيه ـ لا تلغى ارادة الانسان كما ينبغى أن تكون ارادة المخلوق المحدود ولا تبطل الجـزاء كما ينبغى لتلك الارادة ، والعلم السـابق بالتكليف والعقاب لا يقتضى بطلان الارادة النفسية ، لأن الانسان قد يريد عامدا ما يعلم أنه معاقب عليه . واذا كان علم الله بعمل الانسان حقيقة فحقيقة مثلها أنه جعل له ارادة على قدر وسـعة ، ولا يكلف الله نفسا الا وسعها على أية حال .

واذا بقى من هذه الخلافيات شىء لا تبطل فيه الحيرة فهو الشىء الذى يقضى العقل بالتفويض فيه الى الله . لأن فهمه والتسليم فيه للغيب سواء .

ويخيل الى قارىء الفلسفة حين يراجع أقواله فى العقائد العضدية ورسالة التوحيد أنه فرغ من هذه الأقوال جميعا وهو يقول لنفسه : ان المفيد هو أن نعمل ما لابد من عمله ، فدعونا من اضاعة الوقت والعقـل فى تحصيل الحاصل ، ودعونا من

الخلاف فيما يتساوى فيه طرفا الخلاف ، فان ترك الحيرة أولى من الحيرة التى لا تنتهى الى طائل .

وان مسلكه هذا مع الفلاسفة والمفكرين لقريب جدا من مسلكه مع الساسة والأمراء : الاصلاح بدونهم خير من انتظار الاصلاح معهم على غير جدوى .

***

والواضح من تعليقات الأستاذ الامام على العقائد العضدية أنه تتبع مذاهب الفرق فى أمهات مراجعها ، وأحاط باللباب الجوهرى من أقوال الفلاسفة الاسلاميين ، ولم يفته منها غير المصادر التى ظلت مطوية فى مكتبات الغرب وتخصص فيها البحث بآراء الفيلسوف الأندلسى ابن رشد التى كان فيها على خلاف مع سائر الفلاسفة المشرقيين . وقد كان هذا سبب النزاع على الفلسفة الرشدية بين الأستاذ الامام والأستاذ فرح أنطون صاحب مجلة الجامعة . فان كلا الباحثين كانت تعوزه مراجع الآخر « ولعل هذه المساجلة ـ كما قلنا فى رسالتنا عن ابن رشد ـ تهدينا الى أسباب اتساع الخلف وانفراج مسافته بين المتناقشين فى هذه المسائل وأشباهها ، فان اتساع الخلف بينهم انما يأتى على الأغلب الأعم من اختلاف المراجع التى يعتمدون عليها ، وهذا الذى حدث فى مناقشة الأستاذ الامام والأستاذ فرح أنطون ، فلم يكن أحدهما يعتمد على مراجع الآخر فى مسألة من مسائل الفلسفة الرشدية أو الفلسفة

الاسلامية على التعميم .. قال الأستاذ الامام : وأما العقل فليس كما تقو ل الجامعة . فان العقل الأول جوهر مجرد عن المادة ، وهو قول صادر عن الواجب ، وقد صـــدر عنه الفلك التاسع المسمى عنـــدهم بالفلك الأطلسى ، ونفس ذلك الفلك تدبر حركاته الجزئية . وعقل آخر هو العقل الثانى ، وعن هذا العقل الثانى صدر الفلك الثامن المسمى عندهم بالعقل الفعال أو العقل الفياض ، وعن هذا العقل صدرت المادة العنصرية ، واليه يرجع ما يحدث فى عالمها .

وهذا كله صحيح بالنسبة الى فلاسفة الاسلام فى المشرق على الجملة ، ولكن ابن رشـــد كان يعتمد على شرح أرسطو مباشرة ويفسره برأيه لا بآراء الفلاسفة المشرقيين ، ويقول من كتاب تهافت التهافت فى مسألة تعـــدد العقول : «ولسنا نجـــد لأرسطو ولا لمن شهر من قدماء المشائين هذا القول الذى نسب اليهم ، الا لفرفريوس الصـــورى صاحب مدخل علم المنطق ، والرجل لم يكن من حذاقهم » .

أما الأستاذ فرح أنطون ، فكان جل اعتماده على تخريجات رينان ولم يتوسع فى الاطلاع على كتاب التهافت وغيره توسع اســـتقصاء ، وقد صرح بذلك حيث قال : لا مناص للكاتب العـــربى اليوم من أخذ تلك الفلســـفة عن الافرنج أنفسهم ، فأخذنا كتابا للمستر مولر عنوانه : فلسفة ابن رشد ومبادئه الدينيـــة ، وكتابا آخر عنوانه : ابن رشـــد وفلسفته ، وهو للفيلسوف رينان المشهور » .

فقد كانت المصادر اذن مختلفة ، وكان أكثرها مرويا عن صاحبه مأخوذا من خلاصة كلامه ، ولو توحدت المصادر مع حسن النية لما تباعدت بين المتناظرين فى هذه المسألة ، ولا فى غيرها ، شقة الخلاف » .

***

فمصادر الأستاذ الامام فى مسائل الفلسفة الاسلامية كانت شاملة لمراجعها الوافية من كتب الفلاسفة والمعتزلة والمتصوفة والمتكلمين ، ولكننا لا نعلم عن مصادره التى اعتمد عليها لدراسة الفلسفة الغربية شيئا على التفصيل . وكل ما نعلمه أنه كان يطلع عليها فى بعض كتبها بعد تعلمه اللغة الفرنسية ، وأن أقواله عن العقائد الالهية تدل على علم بآراء الفلاسفة المتأخرين من الأوربيين ، وأغلب الظن عندنا أنه توافق فى التفكير الذى تشابهت فيه الموضوعات الفلسفية قديما وحديثا ، وهى — فيما عرضت له — من مسائل الخلاف لم تطرق موضوعا لم تسبق اليه فى موضوعات الفلاسفة الاسلاميين .

ولعل من هذا التوافق قوله الذى ارتاح اليه سبنسر حين سأله عن العقيدة الاسلامية فى الاله . فانه ذكر له عقيدة أهل السنة وعقيدة المتصوفة القائلين بوحدة الوجود ثم ذكر له أن بعض المتصوفة الاسلاميين يعتقدون أن الله وجود محض . وليس بشخص ، فبدا على الفيلسوف الانجليزى أنه ارتاح الى هذه العقيدة ، ويبدو اليوم أنها العقيدة التى يرتاح اليها كبار

المفكرين الغربيين ، ومنهم انيشتين صاحب الفلسفة النسبية .

وكذلك يجوز لنا أن نفهم أن الأستاذ الامام نقل عقيدة المتصوفة القائلين بهذا وهو يفرق بين دلالة الشخص (Person) ودلالة الذات فى عقيدة التوحيد الاسلامية ، لأن الشخص باللغات الأوربية يوحى بالشبه والحد والمثال ، من أصل الكلمة اللاتينية التى أخذت من قناع الوجه المستعار فى التمثيل. وليس فى كلمة « الذات » ما يوحى بهذا على الحقيقة أو على المجاز ، وانما توحى بأن الذات تحتوى الصفات وتملك ما ينسب اليها من لوازم الكمال .

***

ولا نجد فى كتابات الشيخ محمد عبده أنه أراد أن ينشىء له مذهبا خاصا فى المسائل الالهية كالمذاهب التى تسمى بالنظم فى اصطلاح الفلسفة الحديثة ، ولكننا نجد آراءه كاملة فى كل مسألة من هذه المسائل مبسوطة فى تعليقاته على أقوال الفلاسفة أو المعتزلة أو المتكلمين أو المتصوفة ، يوافق بها كل طائفة من هذه الطوائف أو يخالفها ، مستقلا عنها جميعا بمنهجه الذى امتاز بطابعه الخاص فى الفهم والتحقيق ، وهو طابع الفكرة العقلية العملية ، أو طابع الفكرة الصالحة للتعليم والافادة بالتربية والهداية .

فهو مع الفلاسفة الالهيين فى مسألة الوجود الالهى أو الوجود المطلق ، ولكنه لا يقف بادراكه للقدرة الالهية عند

استحالة الخلق من العـــدم ، لأن الوجود المطلق فى عقيدته ، وتفكيره ، لا يستحيل عليه أن يفيض نعمة الوجود على خلقه . فليس الخلق من العدم بالمستحيل . بل المستحيل هو العدم نفسه مع وجود الخالق المريد الفعال لما يريد . ولا تكفير عنده لمن قال بقدم العالم وهو يؤمن بأن الله هو الفاعل لما أراده من خلقه . اذ كانت ارادة الله قديمة لا ندرى كنه عملها السرمدى خارج الزمان ، وكان الواجب فى مسألة وجود العالم أن نؤمن بأن له موجدا كما شاء ، فلا يكفر من قال ان الله أوجد العالم فى القدم وان يكن مخطئا فى التفكير . قال فى تعليقـــاته على العقـــائد العضـــدية : « واعلم أنى وان كنت قد برهنت على حـــدوث العالم ، وحققت الحق فيه ، على حسب ما أدى اليه فكرى ، ووقفنى عليه نظرى ، فلا أقول بأن القائلين بالقـــدم قد كفروا بمذهبهم هذا وأنكروا به ضروريا من الدين القويم ، وانما أقول انهم قد أخطأوا فى نظرهم ولم يسددوا مقدمات أفكارهم » .

ثم قال : « ومن المعـــلوم أن من ســـلك طريق الاجتهاد ولم يعول على التقليـــد فى الاعتقـــاد ، ولم تجب عصـــمته فهو معرض للخطأ ، ولكن خطأه عند الله واقع موقع القبول ، حيث كانت غايته من سيره ، ومقصده من تمحيص نظره أن يصل الى الحق ويدرك مستقر اليقين » .

وهو مع المعتزلة فى تحكيم العقل والاستهداء به الى هدى الدين ، ولكنه لا يرى رأيهم فى الاســـتغناء بالعقل وحـــده ، لأنه يفرق بين مطابقة الدين للعقـــل وبين الاكتفاء بالعقل فى

المسائل النظرية والشرعية ، اذ لابد من تسليم العقل بنصيب الشرع من الهداية ، ما دام العقل يعلم أنه لا ينفذ الى كنه الأشياء ، وان العقول الانسانية موكولة الى حكمة الغيب حيث وقف بها مدى التفكير .

وهو مع المتكلمين فى استخدام القضايا المنطقية ، ولكنه يأخذ على غلاتهم أن استخدام المنطق يذهب بهم الى السفسطة أحيانا ، ويدفع بهم الى خلق المشكلات بينهم وبين الفلاسفة أو المعتزلة ، فى غير داع الى الاشكال .

وهو مع المتصوفة ، أو على الأصح مع الحكماء المتصوفين ولا سيما الأخلاقيين ، لأن التصوف عنده رياضة خلقية على هدى الرياضة العقلية ، ولكنه يرى لهذه الرياضة جانبا غير الجانب الحسى من الحياة الدنيوية يسميه « ذوقا » ويحمد من صاحبه أن يروض عليه ضميره ووجدانه ولا يدين به أحدا من المقيدين بالحياة الطبيعية أو الحياة الحسية ، لأن الأمر فى هذه الحياة لما يستقيم عليه صلاح الجماعة ، ولا محل فيه للذوق الخاص الذى لا تراض عليه طبيعة العموم .

وجماع القول فى مذهب الأستاذ الامام أنه كان مذهب « المصلح الاسلامى المفكر » الذى أعطى التفكير النظرى كل حقه ولكنه أخذ منه حق العمل على الاصلاح الرشيد المستنير ، واستخلص منه العقيدة الاسلامية خالصة من عقبات الجمود والخرافة التى تصدها عن التقدم وتقعد بها عن مسايرة الزمن والتأهب للحياة بأهبة العقل البصير والضمير الحر والكفاية

الخلقية والمادية لمناهضة القوة المستطيلة عليها بسلاح العلم والمال ــ تلك القوة التى أنزلت المسلمين فى العصر الحديث منزلة المغلوبين المستبعدين ، ومن حقهم لو عرفوا دينهم حق معرفته أن يرتفعوا بأنفسهم عن مهانة الخنوع والاستعباد .

وقد كان له فى مذهبه هذا تلاميذ يؤمنون بالفكر والعقيدة فى أرجاء العالم الاسلامى من أقصاه فى المشرق الى أقصاه فى المغرب ، وكان أكثر هؤلاء التلاميذ من قادة الفكر المتدينين يقومون بواجبهم المضاعف فى كل بلد اسلامى كما قام به الأستاذ الامام فى وطنه ، فيكافحون الجمود من جهة ويكافحون التفرنج الذميم من الجهة الأخرى ، ويتعرضون فى وقت واحد لعداوة المتألبين عليهم من أنصار الاستعمار والاستبداد وأنصار الجهل المظلم والتعليم الفاسد ، وفئات النفعيين الذين يندسون بين جميع الصفوف ، حيث وجدت المنفعة على كل حساب ، ولو كان حساب الوطن والدين .

على أن تلاميذ « الفيلسوف » محمد عبده كانوا فئة معدودة تحسب بالآحاد فى كل أمة من أمم العالم الاسلامى ، وكان عليهم أن يعيدوا دعوته بألسنتهم وأقلامهم مرة أخرى حتى تبلغ الى الأسماع والعقول ، وانما انتشرت دعوته الى الاصلاح أوسع انتشارها بين قراء تفسيره للقرآن وفتاواه لطلاب الفتيا الكثيرين ومقالاته وفصوله التى كانت تنشر بتوقيعه أو بغير توقيعه ولا تخفى نسبتها اليه لنشرها فى مجلة « المنار » . وقد أنشأ مسلمو أندونيسية مجلة على مثالها سموها « المنير » تبلغ

هذه الدعوة لمن لا يقرأون العربيـــة من أبناء الأمة الملاوية ،
وتتبع مسلمو الهند دروسه كما توجهوا اليه بالاستفتاء فى كل
مشكلة من مشكلاتهم الاجتماعية التى تصطدم عندهم بالعقيدة
الدينية ... ولما تسامع المسلمون فى الهند بانقطاع الأستاذ الامام
عن ادارة الأزهر وشاع بينهم أنه سيهجر التدريس وقع منهم
النبأ موقع الهول الذى لا يحتمل وكتب النواب محسن عميد
كلية عليكرة ينعى رسالة الاصلاح فى العالم الاسلامى وينحى
على الخديو وشيعته من الجامدين أشـــد الانحاء ويقول انهم
« لو كانوا يتوقعون من المستر دنلوب بعد قنوطهم واياسهم
من الجامع الأزهر أن يؤسس لهم كليات وجوامع فى أرض مصر
يكون فيها نشر التعاليم العالية ... لكان فى ذلك بعض التعزية
عما قد فاتهم من ذلك فى الجامع الأزهر ، ولكن الذى ظهر لنا
أنهم لا يتوقعون ذلك من هذه الجهة أيضا ... وعسى أن ينكشف
لديهم أن أعضاء الدولة الذين بأيديهم زمام دولة مصر وملاك
أمرها وسلطانها لا يرضون بأن يتاح لهم من التعاليم ما تستنير
به قلوبهم وتستضىء به أدمغتهم ويطلعون به على حقوقهم الملية
والسياسية » .

وقالت صحيفة الرياض بعد نشر الخبر ومعه خطاب الخديو :
« عجبنا وعجب كل مسلم فى الهند من حكم سموه الذى قضى
به فى جمع حافل من العلماء وشدد النكير على حزب المصلحين
وجماعة المخلصـــين ...... فالآن يصـــدق على من يخرج من

الأزهر : ليس له فى الدنيا نصيب وما له فى العلوم الاسلامية من خلاق » .

وكان للنبأ فى البلاد العربية صدى كصداه هذا فى البلاد الاسلامية غير العربية ، وصححت ثورة الخواطر تقدير المصلحين أنفسهم لمدى انتشار الدعوة بين جمهرة المسلمين ومدى النكسة التى أصيبت بها حركة التجديد من جراء تلك الحملة المطبقة عليها من بين صفوف الجامدين وسماسرة الكذب والتشهير ، فوضح لهم بعد الغاشية الأولى أن دعوة الحرية الفكرية أقوى من أن تصدها عن طريقها مكيدة مفتعلة تقوم على التدبير المشترك بين الجمود والباطل ، لأن الجمود ادبار الى الماضى لا محل له فى المستقبل ، والباطل غشاء دخيل لابد أن ينكشف عن معدنه الأصيل .

وفى مصر كانت مبادىء المصلح الحكيم تسرى سريانها العميق الى العقول الفتية وعقول الكبار من ذوى النيات السليمة ، وكانت تستقر على أسسها فى الوقت الذى خيل فيه الى المستمعين لضجيج السعاية أن الأمة قد أعرضت عنه بأسماعها وقلوبها ، وأن حملات التشهير قد نالت من سمعته منالا يصرف الناس عن الاكتراث له والمبالاة بعلمه وعمله ، وأملى للمتوهمين فى وهمهم هذا أن الدعوات الفكرية لا تبرزها الحشود الجامعة كما تبرزها دعوات الحوادث السياسية ، فاذا سرت الى العقول متفرقة لم تظهر فى الأمة مجتمعة الا بما يكون لها من النتائج العامة فى الزمن الطويل ، ولكن المصيبة بفقد

المفتى بعد اعتزاله ادارة الأزهــر هيأت لهذه الدعوة الفكرية حشودها الجامعة التى لم تتهيأ قبل ذلك لدعوة من الدعوات السياسية فى الأمور التى تشــغل أذهان الجماهير ، ولم يكن للمفتى الفقيد حزب ذو أداة منتظمة تسخر أعوانه لجمع الجموع وتسيير المواكب ، بل كان صاحب السلطة الرسمية يعــاديه ويغضب على مشيعيه ، وكانت صفة الفقيد الدينية لاتدع مكانا للسلطة الفعلية فى تشييعه والاحتفال بجنازته ، وكان الوقت صيفا قائظا والغائبون عن المدن من معتادى الاصطياف خارج القطر وفى قرى الريف أكثر من الحاضرين ، فغلبت الصــبغة القومية على كل صبغة رسمية أو تقليدية فى تشييع رفات المفتى الى مقره الأخير من الاسكندرية الى القاهرة ، بل غلبت هذه الصــبغة على الصبغة التقليدية التى تعودناها بمصر فى تشييع الجنازات ، اذ كان المفتى فى حياته ينكر هذه المظاهر التقليدية ويعلن النهى عنها ، فكانت موجة الحــزن التى غشيت ألوف المشيعين على طول الطريق دفعة من أعماق القلوب والضمائر عرفت بها الأمة مبلغ شــعورها بعظمة الفقيد الراحل وعظم الخسارة بفقده ، وجاوز الزحام كل ما قدرته الشرطة واتخذت له حيطتها فى المدينتين منذ الصباح الباكر قبل خروج النعش من داره ، فتعطلت حــركة الأســواق وأغلقت الدكاكين أبوابها للمشاركة فى موكب الجنازة ، واكتظت الأرصــفة بالواقفين والسائرين ، ولم يبق أحد فى العاصمتين من ذوى الفكر والمنزلة

لم يشترك فى ذلك الموكب الحافل الذى عمت التعزية فيه وجلت أن تخص عشيرة الفقيد أو ذويه ، ولم يدهش أحد من هذه البادرة القومية بطبيعة الحال ، كما دهش لها النزلاء الأوربيون الذين كانوا يتسمعون أخبار المعارك حول الاصلاح الدينى من بعيد ويحكمون عليها بمقدار ما ينتهى اليها من لغط الصحافة وآقاويل المرجفين . فقالت صحيفة الفاردى ألكسندرى : « ان توارد الجماهير لتشييع الجنازة يخمد أنفاس القائلين بأن المفتى لم يكن محبوبا فى الأمة المصرية [1] » . وقالت صحيفة ليجيبت : « انه مشهد مهيب من أجلّ المشاهد وأشدها تأثيرا فى النفوس. كان يشتد زحامه بجماهير الناس المصطفين على جوانب الطرق التى مر بها حتى لقد توقفت حركة التجارة فيها ، وكان الناس فى سكون واجلال خلال مرور الجنازة ، يخيل الى الرائى أن جميع سكان القاهرة الوطنيين قد حضروا ليؤدوا آخر فريضة من الاجلال والاعظام لذلك الشيخ الجليل ، وبينهم عدد عظيم من الأوربيين » .

***

وقد تمخضت هـذه البادرة القومية عن معناها العملى الدائم ، ولا يمكن أن يكون لها غير معنى واحـد هو الذى شوهد فى واقع الحياة القومية بعد ذلك وبرزت حقيقته فى كل

---

(١) عدد ١٢ يوليه ١٩٠٥

مهمة تتطلب الرجال العـاملين من المفكرين المؤمنين بفريضـة الاصــلاح ورسالة التقدم . فقد شوهد تلاميذ المصلح الكبير على رأس كل حـركة جادة من حركات النهضـة الوطنية أو الفكرية ، وتلفتت الأمة بعد وفاته تبحث عن القادة العاملين فلم تجد بين المتقـدمين للقيادة من هو أقدر على قيادتها وتسديد خطاها وتقرير مطالبها من زمرة الفقيد وخيرة أشياعه وتلاميذه ومريديه ، لا فرق فى ذلك بين شـئون الدنيا وشئون الدين ، وحسب القارىء ما يمكن حصره فى الشئون الدينية التى تتصل بالجامع الأزهر ومعاهد التعليم على منهجه ، فلم يكن أظهر بين مشايخه وأقطابه من الشيخ محمد شاكر والشيخ مصطفى المراغى والشيخ مصطفى عبد الرازق والشيخ ابراهيم حمروش والشيخ محمود شلتوت ، وكلهم من مريديه المؤمنين برسالته ، وغيرهم كثيرون مثلهم وان لم يحضروا كلهم على يديه . أما فى شئون النهضة الوطنية على اختلافها فلا حاجة الى التخصيص باسم واحد من أسمائها أو فرع واحد من فروعها ، فكلها بلا استثناء تقترن باسم ــ أو أكثر من اسم ــ بين شيعة الأستاذ الامام ، وقد كانت ثورة مصر الكبرى على الحملة البريطانية بعد الحرب العالمية الأولى ــ بزعامة سعد زغلول ــ مثالا للأمانة الخلقية والنفسية التى أودعها الأستاذ الامام فى نفوس شيعته وخاصة صحبه ، وأهلتهم فى نطاقها الواسع لتلك المهمة الجامعة ، كما أهلتهم لما دونها من المهام المتفرقة فى كل نطاق محدود .

***

وأكبر ما استفاده العقل السليم المستنير من فكرة الأستاذ الامام فى الاصلاح والحرية الانسانية أنه أعاد اليه الثقة بعقيدته فى هـذا العصر الحديث ، ورفع من طريقه الى العمـل عقبات الجمود والخرافة والتقليد ، لأنه زوده على قواعد دينه بفلسفة الحياة التى يقابل بها فلسفات الغـرب المتسلطة عليه من جهة السطوة أو من جهة الايمان بالعقـائد والآراء . ولهذا كانت ردوده على فلاسفة الغرب ومفكريه أهم وأجدى على المسلم العصرى من ردود المدافعين عن الاسلام على جماعات المبشرين المحترفين ، اذ كانت شبهات المبشرين المحترفين لاتعدو أن تدور حول الشقاشق اللفظية التى تمس الأديان الأخرى أشـد من مساسها بالاسلام فى العصر الحاضر أو العصور الماضية ، ولكن شبهات المفكرين على غرار الفيلسوف أرنست رينان والوزير جبرايل هانوتو كانت على غير ذلك الغرار من شبهات المبشرين المحـترفين : كانت بحاجـة الى الفكر العصرى المؤمن بالدين لمواجهة الأفكار العصرية التى لعلها لا تؤمن بالاسلام ولا بغير الاسلام ، ولكنها تخامر فكرة المسلم كما تخامر ضميره بالأسئلة المعلقة فى انتظار الجواب من ذى ثقة باعتقاده وذى ثقة بتفكيره وذى طوية لا ترتقى اليها الظنون ، وكان الأستاذ الامام مليئا بكل ما يتطلبه العقل المسلم المستنير فى عصره من آيات الثقة وحجج الاقناع .

كانت ردوده على رينان وهانوتو ردود من يعلم ما قد علموه عن تواريخ الحضارات وخصائص الشعوب وطبائع الأجناس

والســلالات ويزيد عليهم بالايمان الثابت والأريحية الانسانية والهمة التى ترفعه الى مقام الرسالة الروحية ، اذ لا رسالة لأمثال رينان وهانوتو فى عالم العقيــدة ولا فى عالم الاصلاح . وقد كان ــ قدس الله روحه ــ أعلى طبقة من مناظريه فى مضمار المناظرة بين المعسكرين المتقابلين ، فكان رينان وهانوتو يقابلان بين الاسلام والمسيحية ليقابلا بين المسلمين والمسيحيين الأوربيين خاصة ، ويقابلا بعد ذلك بين دعوى الغالب ودعوى المغلوب ، ولم ينزل الأستاذ الامام الى مضمارهم الا ليدفع عن عقــيدة الاسلام دون أن يقدح فى عقيدة المسيحية ، بل كان دفاعه عن الاسلام فى وجه الأوربيين المصطبغين بالصبغة المسيحية وهم أبعد ما يكونون عن المسيحية السمحة كما يعرفها الأستاذ الامام .. ولم يخرج من ردوده بتنزيه الاســلام وتشويه المســيحية . بل خرج منها جميعا بتنزيه الديانتين واثبات الحقيقة التى يدين بها من يدين بكتاب الاسلام : وهى أن المسيحية ديانة محبوبة لا عداوة بين من يدين بها على أصولها ومن يدين بالاسلام على أصوله ، ولا يحرم على المسلم يوما أن يصاحب أهل الكتاب على سنة أهل الكتاب .

وقد ألهم فضــلاء المسيحيين ذلك من وحى فكره ووحى اعتقاده ووحى كلامه فى تفسير القرآن وشرحه للدين فى كل موطن أقام به أو رحل اليه ، فكان أدباء المسيحيين يتسابقون الى دروسه بمساجد بيروت أيام منفاه ، وكان القس الانجليزى اسحاق تايلور يرى أن شرح المسيحية كما يبسطه الأســتاذ

الامام يوشك أن يعينه على اقناع الأوربيين بالتوحيد بين الديانتين على الجادة الوسطى التى يلتقى لديها المؤمن بالأناجيل والمؤمن بالقرآن . وعبر العلامة يعقوب صروف تعبيره الصادق عن شعور فضلاء المسيحيين يوم قال ساعة دفن الأستاذ الامام لمن حوله من تلاميذه : « انى أسمعكم تقولون فقيد الاسلام والمسلمين ولا تزيدون ، انه فقيد الفكر والعلم حيث كان ... انه فقيدنا أجمعين » .

***

الفلسفة الاجتماعية :

ومن البديهى أن الفيلسوف المصلح لا يقصر تفكيره على العقليات والالهيات ، أو على فلسفة ما وراء الطبيعة كما تسمى عند المعاصرين ، اذ لابد له من فلسفة اجتماعية يتبعها فى اصلاح المجتمع على مبادئه التى يتوخاها ويتخذها هاديا له الى فضائل المجتمعات المثالية ومواطن عيوبها التى يجتهد اجتهاده فى تبديلها أو ازالتها . وهذا هو الواقع فى منهج محمد عبده المصلح الفيلسوف . فان فلسفته الاجتماعية مفصلة واضحة من كل ما كتبه فى مطولاته ومختصراته بلا استثناء كتابته عن العقليات والالهيات ، ولكننا نستطيع أن نسمى فلسفته الاجتماعية فى لبابها فلسفة أخلاقية لا تفرق بحال بين مشاكل الاجتماع ومشاكل الأخلاق ، وليس للاجتماع عنده مشكلة قائمة اذا توفرت العزائم على علاج آفات الخلق فى الفرد والجماعة ، وليست عنايته بالناحية الخلقية سهوا عن أثر الشئون المادية أو

شئون النظام فى آداب المعاملات وآداب النفوس على الاجمال ، لأنه كان يؤمن بأثر الفاقة والثروة معـا على ضمائر الناس من الرجال والنساء ، وكان يقول دائما ان العفة ثوب تمزقه الفاقة وأن الثروة بغير عمل مفسدة ، وعناصر الكيان الاجتماعى عنده ــ كما عـددها فى رده على هانوتو سـبعة : هى العلم والأدب والتجارة والصناعة والعـدل والدين والسلاح . فليس قيام الكيان الاجتماعى على الأخلاق فى رأيه سهوا عن عمل التجارة والصناعة ولا عن عمل النظام العادل فى سياسة الناس ، ولكنه كان يعتبر أن الجهل فقر أشد على الناس من فقر المال ، وهو القائل فى احـدى خطب الجمعية الخيرية : « ان بلادنا ليست بلاد الجوع القتال ولا بلاد البرد القـارس المميت ، ولا بلاد الشقاء التى لا ينال الانسان فيها قوت يومه الا بالعذاب الأليم ، بل نحن فى بلاد رزقها الله سعة من العيش ومنحها خصوبة وغنى يسهلان على كل عائش فيها قطع أيام الحياة بالراحة والسعة ، ولكنها ويا للأسف منيت مع ذلك بأشـد ضروب الفقر : فقر العقول والتربية » .

وقد قال قبل ذلك فى خطاب المدرسة السلطانية ببيروت : « .. اننا لو نظرنا الى ثروة بلادنا لا نجدها قاصرة عن حاجاتنا ولكن القاصر عن الحاجات هو ادراكنا لاحتياجنا ، فقـد نرى الغنى يبذل أموالا جمة فى زخارف زينة لا مقـام لها فى نظر العاقل ولا يرى فى بذله هذا مغرما ، ثم اذا دعى الى مساعدة وطنه وملته ودولته يستكثر القليل ويعطى وهو كاره » .

فاذا تحرى النظام العادل توفير أسباب المعيشة الحسنة فالرخاء — وهو غاية ما يبلغه هذا النظام — لا يكفى لاقامة كيان المجتمع ولا لحفظ بقائه من عوامل فنائه ولا من أخطار أعدائه ، ولن يقام للمجتمع كيان بغير المعرفة العملية والتربية الأخلاقية ، ولن يقر له هذا الكيان اذا حرم منهما أحد جنسيه واحدى طبقاته .

ومن أخطر أسباب الضعف التى أصابت المسلمين كما قال فى رده على هانوتو : « ان النساء قد ضرب بينهن وبين العلم بما يجب عليهن فى دينهن أو دنياهن بستار لا يدرى متى يرفع » . وقد قال فى احدى خطب الجمعية الخيرية الاسلامية : « نحن نتمنى تربية بناتنا ، فان الله تعالى يقول : ولهن مثل الذى عليهن بالمعروف ... الى غير ذلك من الآيات الكريمة التى تشرك الرجل والمرأة فى التكاليف الدينية والدنيوية ... وترك البنات يفترسهن الجهل وتستهوين الغباوة من الجرم العظيم » .

وكان أشد ما ينعاه على من يحسبون أنفسهم من العارفين قولهم : لا شأن لنا بالعامة « فلا يمكن الانسان أن يعمل بمصلحة العامة ما لم يحس برابطة بينه وبينهم » [1] .

والعلم فى رأى الأستاذ الامام سبب من أسباب الثروة والقوة وسبب من أسباب المعرفة الذهنية التى تبصر العقل بأدوات النجاح فى أعمال المعيشة ، ولكن التربية الأخلاقية شيء

---

(١) راجع منشآت الأستاذ الامام صفحة ٦٤٩

آخر غير المعرفة الذهنية . ولا سيما المعرفة التى تتأدى آخر الأمر الى الايمان بالمادة دون غيرها ، وهو مايسمونه بالفلسفة المادية .
وقد لمس الأستاذ الامام آثار هـذه الفلسفة المادية فى حضارة الغرب فأشـفق من عواقبها على بنى الانسان وزادته اعتقادا بضرورة الدين لصلاح النفوس البشرية وهداية الأمم فى حياتها الاجتماعية . وأكدت له هـذه الضرورة مناقشته للفيلسوف الانجليزى هربرت سبنسر (سنة ١٩٠٣) اذ قال له الفيلسوف الانجـليزى : ان الانجليز يرجعـون القهقرى فهم الآن دون ما كانوا عليه منذ عشرين سنة . فسأله الأستاذ الامام : وفيم هذه القهقرى ؟ قال سبنسر انهم « يرجعون القهقرى فى الأخلاق والفضيلة ، وسببه تقدم الأفكار المادية التى أفسدت أخـلاق اللاتين من قبلنا ، ثم سرت الينا عـدواها . فهى تفسد أخلاق قومنا وهكذا سائر شعوب أوربة » ثم قال : انه لا أمل له فى صد هذا التيار « لأنه لابد أن يأخـذ مده الى غاية حده فى أوربة . ان الحق عند أهل أوربة الآن للقوة » .

وفارق الأستاذ الامام دار الفيلسوف وهو يدير فى خاطره كلمة الحق للقوة ويصف أثرها فى نفسه ويحس أنها ما كانت لتحدث لديه هذا الأثر لو جاءت من ثرثارة يهرف بما لا يعرف . ثم يدون هذه الخاطرة فى مذكراته :

« هؤلاء الفلاسفة والعلماء الذين اكتشفوا كثيرا مما يفيد فى راحة الانسان .... أعجزهم أن يكتشفوا طبيعـة الانسان ويعرضوها عليه حتى يعرفها ويعود اليها . هؤلاء الذين صقلوا

المعادن حتى كانت من الحديد اللامع المضيء أفلا يتيسر لهم أن يجلوا ذلك الصدأ الذى غشى الفطرة الانسانية ويصقلوا تلك النفوس حتى يعود لها لمعانها الروحانى ؟ . حار الفيلسوف فى أوربة وأظهر عجزه مع قوة العلم فأين الدواء ؟ الرجوع الى الدين . الدين هو الذى كشف الطبيعة الانسانية وعرفها الى أربابها فى كل زمان . لكنهم يعودون فيجهلونها » .

***

الفلسفة الأدبية :

وربما كانت آراء محمد عبده ــ المفتى الأكبر ــ فى الفنون الجميلة أقرب الى تعريفنا بسعة الأفق التى امتاز بها هذا العقل الراجح من سائر آرائه فى المسائل العقلية والاجتماعية ، فانه كان يكتب قبل ستين سنة ليحبب الفنون الجميلة الى الناس فى الوقت الذى كان الرأى الشائع فيه عن النحت والتصوير أنهما حرام مستنكر ... وكان المتعلمون العصريون أنفسهم يحتقرون هذه الفنون ولا ينظرون اليها نظرة جدية أو يحسبونها حتى من الكمالات المحتملة فضلا عن اللوازم المطلوبة ، وقد خلا الشرق العربى من مدرسة واحدة لهذه الفنون ، وقلت العناية بها فى الصحف السيارة ولم يظهر ــ بعد ــ لها أثر على اللوحة البيضاء يعود الناس أن يحتفلوا برؤيتها ، فكان أكثر ما ينتظر من رجل الدين المتحرر أن يدفع عنها وزر التحريم ويجعلها من المباحات السائغة لمن يزاولها ، ولكن محمد عبده ــ المفتى ــ

كان يكتب يومئذ لبنوه بها ويفسر معنى الاقبال عليها بين الغربيين ــ لمن يجهله منا ــ بأنها عندهم كالشعر عندنا وأنها لغة نفسية تفرق فى تعبيراتها بين أدق المعانى الشعرية التى لا تظهر التفرقة بينها من أسمائها وأوصافها . وفى ذلك يقول من فصل كتبه فى سنة ١٩٠٣ :

« اذا كنت تدرى السبب فى حفظ سلفك للشعر وضبطه فى دواوينه ، والمبالغة فى تحريره ، خصوصا شعر الجاهلية ، وما عنى الأوائل رحمهم الله بجمعه وترتيبه ، أمكنك أن تعرف السبب فى محافظة القوم على هذه المصنوعات من الرسوم والتماثيل ، فان الرسم ضرب من الشعر الذى يرى ولا يسمع ، والشعر ضرب من الرسم الذى يسمع ولا يرى ... ان هذه الرسوم والتماثيل قد حفظت من أحوال الأشخاص فى الشئون المختلفة ، ومن أحوال الجماعات فى المواقع المتنوعة ، ما تستحق به أن تسمى ديوان الهيئات والأحوال البشرية ، يصورون الانسان أو الحيوان ، فى حال الفرح والرضى ، والطمأنينة والتسليم ، وهذه المعانى المدرجة فى هذه الألفاظ متقاربة لا يسهل عليك تمييز بعضها من بعض ، ولكنك تنظر فى رسوم مختلفة ، فتجد الفرق ظاهرا ، باهرا ، يصورونه مثلا فى حالة الجزع والفزع ، والخوف والخشية . والجزع والفزع مختلفان فى المعنى ولم أجمعهما هنا طمعا فى جمع عينين فى سطر واحد ، بل لأنهما مختلفان حقيقة . ولكنك ربما تعتصر ذهنك لتحديد الفرق بينهما وبين الخوف والخشية ، ولا يسهل عليك أن تعرف متى

يكون الفزع ومتى يكون الجزع ، وما الهيئة التى يكون عليها الشخص فى هـــذه الحال أو تلك . وأما اذا نظرت الى الرسم وهو ذلك الشعر الساكت فانك تجد الحقيقة بارزة لك تتمتع بها نفسك كما يتلذذ بالنظر فيها حسك ، اذا دعتك نفسك الى تحقيق الاستعارة المصرحة فى قولك : رأيت أسدا ــ تريد رجلا شجاعا . فانظر الى صورة أبى الهول بجانب الهرم الكبير تجد الأسد رجلا أو الرجل أسدا . فحفظ هـــذه الآثار حفظ للعلم فى الحقيقة وشكر لصاحب الصنعة على الابداع فيها .... » .

ويعرض بعد ذلك لحكم الشريعة فى تلك الفنون فيقول : ربما تعرض لك مسألة عند قراءة هذا الكلام وهى : ما حكم هذه الصور فى الشريعة الاسلامية اذا كان القصد منها ما ذكر من تصـــوير هيئات البشر فى انفعالاتهم النفسية أو أوضاعهم الجثمانية ــ هل هذا حرام أو جائز ؟ أو مكروه أو مندوب أو واجب ؟ . فأقول لك ان الراسم قد رسم والفائدة محققة لا نزاع فيها ، ومعنى العبادة وتعظيم التمثال ، أو الصورة ، قد محى من الأذهان . فاما أن تفهم الحكم من نفسك بعد ظهور الواقعة واما أن ترفع ســؤالا الى المفتى وهو يجيبك مشافهة ، فاذا أوردت عليه حـــديث : ان أشـــد الناس عذابا يوم القيـــامة المصورون ، أو ما فى معناه مما ورد فى الصحيح فالذى يغلب على ظنى أنه سيقول لك أن الحديث جاء فى أيام الوثنية وكانت الصور تتخذ فى ذلك العهد لسببين : الأول اللهو والثانى التبرك بمثال من ترسم صـــورته من الصالحين . والأول مما يبغضه

الدين والثانى مما جاء الاسـلام لمحوه . والمصور فى الحالين شاغل عن الله أو ممهد للاشراك به . فاذا زال هذان العارضان وقصدت الفائدة كان تصوير الأشخاص بمنزلة تصوير النبات والشجر فى المصنوعات ، وقد صنع ذلك فى حواشى المصاحف وأوائل السور ولم يمنعه أحد من العلماء . مع أن الفائدة فى نقش المصاحف موضع نزاع ، وأما فائدة الصور فمما لا نزاع فيه على الوجه الذى ذكر ... ولا يمكنك أن تجيب المفتى بأن الصورة على كل حال مظنة العبادة فانى أظن أنه يقول لك : ان لسانك أيضا مظنة الكذب ، فهل يجب ربطه مع أنه يجوز أن يصدق كما يجوز أن يكذب ؟ ... وبالجملة يغلب على ظنى أن الشريعة الاسلامية أبعد من أن تحرم وسيلة من أفضل وسائل العلم بعـد تحقيق أنه لا خطـر فيها على الدين ، لا من وجهة العقيدة ولا من وجهة العمل . على أن المسلمين لا يتساءلون الا فيما تظهـر فائدته ليحـرموا أنفسهم منهـا ، والا فما بالهم لا يتساءلون عن زيارة قبور الأولياء أو ما سماهم بعضهم من الأولياء وهم ممن لا تعرف لهم سيرة ولم يطلع لهم أحد على سريرة ؟... وهم يخشونها كخشية الله أو أشد ويطلبون منها ما يخشون أن لا يجيبهم الله فيه ويظنون أنهم أسرع الى اجابتهم من عنايته سبحانه وتعالى ... لا شك أنهم لا يمكنهم الجمع بين هذه العقائد وعقيدة التوحيد ، ولكن يمكنهم الجمع بين التوحيد ورسم صـور الانسان والحيوان ، لتحقيق المعـانى العلمية وتمثيل الصور الذهنية ... » .

والمفتى هنا يشير الى « المفتى » بصيغة الضمير للغائب ولا يجزم بفتواه جزم التوكيد ، لأنه كان يكتب تلك الرسائل من أوربة ويوقعها بتوقيعه المستعار كما تعود فى كتابة رسائل الرحلات .

هذا رأيه فى الفنون الجميلة التى لم يشتغل بها ولم يشتغل بها فنان خبير بها فى عصره ، فلا عجب أن يكون رأيه فى فنه الجميل الذى كان هو امام المشتغلين به ــ وهو فن البلاغة ــ رأى الرائد الذى يتذوق أسراره فى أشكاله ومعانيه تذوقا سبق به النقاد من خلفائه ، ولا يزال منهم من يقتفى آثاره ولا يدرك مداه (١) .

كان محمد عبده الناقد البليغ يوقن أن اللغة مادة البلاغة وجمال التعبير ، وكان من شواغله الكثيرة شاغل واحد لم تشغله عنه مهمة من مهام أعماله المتعددة التى تنوء بالعمل منها كواهل المنقطعين له والمتوفرين عليه . وذلك الشاغل الواحد هو احياء اللغة مادة وعلما ودراسة وكتابة . فكان يعين جماعة احياء الكتب العربية بعلمه ووقته وماله ونفوذه ، وكان ينشر نماذج البلاغة السلفية ويشرحها بقلمه أو ينوه بها فى دروسه وتفسيراته من قبيل نهج البلاغة ومقامات البديع ودلائل الاعجاز وأسرار البلاغة . ومن أهم المراجع اللغوية التى بذل الجهد فى

---

(١) تراجع كلماته المأثورة فى جزء المنشآت من تاريخ الاستاذ الامام الشيخ محمد عبده .

استحضارها وتشجيع الواقفين على طبعها كتاب المخصص لابن سيده ، وهو نوع من المعجمات المبوبة على حسب المعانى والأغراض أنفع من اكثر المعجمات التى لا عناية لها بغير جمع المفردات .

ومذهب محمد عبده الناقد فى تحصيل مادة اللغة انها تحصيل ملكة وليست بتحصيل قواعد ومصطلحات ، لأن دقائق الفصاحة والبلاغة وبراعه التعبير تحيى الفهم وترك الاشتغال بها « موت للحياة العقلية » ... وكان يقول ان الكلام البليغ سهل على الفطرة ولكنه « صعب على كل عقل تعلم البنانى على السعد » ولا قدرة للأديب على القصد فى التعبير بغير توفير مادته من اللغة ، ولا خير فى المبالغة « فانما يأتى بالمبالغة من كان مجازفا فى رأيه ، والعقل السليم لا يتعدى الصدق » ... ورأيه فى الشعر البليغ مع جودة اللغة « انه لا يكون شعرا الا اذا كانت ألفاظه آخذة بجزء من روح الشاعر » والا فهو نظم لا بلاغة فيه . وقد كانت توجيهاته لتلاميذه من الشعراء فاتحة اشتغال شعراء عصره بالتعبير عن الحياة الانسانية ــ عامة وخاصة ــ ولولاه لما ظهر كثير من القصائد فى الموضوعات العامة ومنها قصائد كثيرة لحافظ ابراهيم وعبد المحسن الكاظمى ومحمد امام العبد ، وربما أملى على الشاعر ما يقوله حضا لبعض المحسنين بأسمائهم على معونة المنكوبين ، كما فعل فى قصيدة حريق ميت غمر التى نظمها حافظ ابراهيم .

***

ويصدق على الشيخ محمد عبده الأديب أنه استعاد أطوار الأدب فى كتابته من نهاية عصر التقليد الى الطور الأوسط من عصر التجديد الحديث . ففى كتاباته الأولى كان يلتزم السجع على عادة المتأخرين مع اجتناب اللغـو الذى كانوا يخلطونه بمقالاتهم ولا يتحرون فيه معنى مفهوما يقصـدون اليه ، ثم تخلص من قيود السجع وترسل فى أسلوبه مع تحرى الفصاحة فى الكلمة وتصحيح الخطأ المشهور من أخطاء النحو والصرف التى كانت تتخلل الكتابة فى عصره ولا تزال تتخللها فى كتابة المتحرزين من هذه الأخطاء ، لغلبتها الطويلة منذ أزمنة بعيدة على المفردات والتراكيب ، وقد سلم أسـلوب الأستاذ الامام منها الا القليل الذى لا يصعب رده الى القـاعدة ببعض التجوز والتأويل ، ولو من قبيل تجويز الخطأ المشهور . وقد نظم الشعر فى الحوادث التاريخية وفى بعض المناسبات الخاصة ، وعده من النظم الذى يراد للتدوين أو التذكير ، ولا يرتضـيه شعرا على مذهبه فى فن الشعر بين ألوان الفن الجميل .

ولم يتسـع له الوقت لتأليف الكتب فى علومه التى كان يشارك فيها مشاركة وافية كعلوم الدين والفلسفة والبلاغة ، ولكنه فسر القرآن الكريم الى سـورة النساء ، وفسر السور التى كان يحفظها التلاميذ من الجزئين الأولين ، وشرح الفلسفة الاسلامية فى تعليقه على العقائد العضدية ، والمنطق فى شرحه للبصائر النسفية ، وكتب رسالة التوحيد تبسيطا لهذه الفلسفة ، واجتمع من مقالاته فى الرد على هانوتو كتيب صغير ، واجتمع

من مقالاته عن الاسلام والنصرانية كتاب أكبر منه وأوسع فى بابه ، وله فى الأدب شرح نهج البلاغة مقامات البديع ، وله فى التصوف رسالة الواردات التى كتبها فى صباه ، ورسالة أخرى فى علم الاجتماع ألفها يوم عمل فى التدريس بدار العلوم ، ولكنها ضاعت ولم يبق من فصولها ــ أو على الأصح من معانيها ــ غير ما أودعه بعض البحوث فى الوقائع المصرية والأهرام وصحيفة العروة الوثقى ومجلة المنار وتقديمه لترجمة رسالة الرد على الدهريين .

ولا يحسب هذا المحصول قليلا من مجهود التأليف فى حياة رجل جم المشاغل والأعباء توفى وهو يناهز الثامنة والخمسين . ولكن عظمة هذا العقل الكبير وسعة الآفاق التى كان يجول فيها بتفكيره وجهوده تصغر هذا المحصول بالقياس الى المحصول الذى كان مستطاعا له مع اليسر وقلة الكلفة لو أنه انقطع للتأليف . فليست هذه المؤلفات ، على وفاء الفلسفى منها فى بابه ، الا كالشعاع القوى الذى ينبثق عن الشمس فيدل على ما احتجب منها ، ولكنه يعطى الناظرين كل ما تعطيه الشموس من ضوء النهار ، تتلقاه النوافذ وتحول دونه الجدران .

***

ولا نحسب أننا نحيط بذلك الأفق الواسع من شتى نواحيه اذا ختمنا الكلام على المصلح الفيلسوف دون أن نذكر حظه من فنون الرياضة البدنية الى جانب حظه الكبير من رياضات

العقل والروح . فقد كان هذا المجاهد الباسل فى ميادين الاصلاح فارسا سباقا فى ميادين الفروسية والرياضة البدنية ، وكان فتيان اقليمه يرحلون اليه لمباراته واكتساب الشهرة بسبقه أو اقتران أسمائهم باسمه ، وظل الى آخر أيامه يركب الجواد أحيانا من بيته بعين شمس الى القاهرة أو من القاهرة الى بيته ... وكان يمتطيه كثيرا فى ذهابه الى الجامع الأزهر ، ويقول لمن يراجعه من أنصار التقاليد ان الفروسية كانت من سمت النبوة ، وان العالم الذى يتوكأ على السند الى اليمين والشمال انما يدرج — كما قال فى تقريعه اللاذع — على سمت « ستى هانم » وليس هو بسمت علم ولا عمل . وقد شهدناه فى أسوان يحضر على صهوة جواد الى ميدان الرياضة ليشهد مباراة كرة القدم بين مدرستها واحـدى المدارس القريبة منها ، فأعجبنا منه رجل الدين المهيب ، يزيده وقارا ولا يخل بوقاره أن يقدس رياضة الأبدان بقداسة الدين ، وفهمنا بهذه الزيارة الصامتة درسا عن الاسلام فى عصر الحركة التى لا تهـدأ والحياة التى لا تقبل الجمود والوناء ، انه دين النفس القوية فى الجسد القوى ، لا امام له أحق بالاتباع من هذا الامام .

شخصية ولا شخصية

لوحظ فى كتابة التراجم والسـير أن البحث عن أحوا
الشخصيات المشهورة يغرى القارىء ــ والكاتب معا ــ بالبحـ
عن أحوالها « الشخصـية » ويشوق المستطلع الى جوانبـ
الخاصة التى تقابل جوانبها العالية ، أو جوانبها التى اشتهرد
فيها أعمالها العامة .

ونلاحظ قديما وحديثا ــ قبل كتابة هذه الصفحات التى
نختمها بهذا الفصل ــ أن سيرة محمد عبده كانت احدى السـ
التى يقع فيها الاستثناء القليل من هذه القاعدة ، فاننا نزدا
اكتفاء بأخباره العامة ــ عن أخباره الخاصة ــ كلما توسعنا فـ
معرفتنا به ومعرفتنا ببواعث أعماله ، كأننا نحس بعد التوسـ
فى المعرفة بشخصيته أنها « شخصية » ولا شخصـية ، أو أ
أعماله الخاصة هى أعماله العامة بغير حاجز من السر أو العلانيـ
يفصل بينهما ، فكل ما فيها من بواعث « الأنانية » والأثرة فهو
فيها جنبا لجنب الى بواعث الانسانية والايثار .

يشوقنا كلما فهمنا عملا من أعماله أن نراه ونتأمل صورتـ
المشهودة ، كأنما نسائل أنفسنا أى طلعة تكون لهذا الانسان
الذى غاب بجمع نفسه وعقله فى الشعور الانسانى حتى كا

أن يختفى بشخصه عن عالم الملامح والقسمات ، لولا أنه شخص عظيم لا يجوز عليه الخفاء .

نتطلع الى رؤيته لنرى كيف تتمثل فيه هذه « الانسانية » الصافية مطبوعة أمام النظر بطابع انسان واحد ، ولكننا لا نبحث كثيرا بعد ذلك عما يعنيه . لأننا علمنا أن شئونه الخاصة لا تنعزل عن شئونه العامة ، وأن قرابته فى داره وجواره هى احدى قراباته العامة — قرابته الانسانية ، وليست قرابة أخرى لها حال غير هذه الحال ، ووجود غير هذا الوجود ، وحجاب يتغير جانبه من هنا عن جانبه من هناك .

رأيت الشيخ محمد عبده مرات معدودة ، ورأيته مرات لا تحصى فى صوره الشمسية التى لا تلتبس احداها بملامح صورة أخرى ، فكانت النظرة الأولى كالنظرة الأخيرة الى تلك الملامح فيما تنم عليه وتشير اليه .

قوة وطيبة متفقتان لا يبين لك أنهما تنازعتا يوما أو تتنازعان . فهو قوى لا ينازع طيبته نية من نياتها ، وهو طيب لا ينازع قوته دافعا من دوافعها ، وهو أقرب الناس سمة بما يرتسم فى أخلادنا من سمات النبوة ، وهى فى طلعتها الانسانية بشر مثلنا ، وان لم نكن نحن بشرا مثلها فيما تتلقاه من وحى الله .

قال عنه تلميذه وصديقه وأقرب الناس اليه فى عامة أمره وخاصته صاحب المنار السيد محمد رشيد رضا تغمدهما الله برضوانه : « انه سليم الفطرة ، قدسى الروح ، كبير النفس

وصادف تربية صوفية نقية زهدته فى الشهوات والجاه الدن
وأعدته لوراثة هداية النبوة فكان زيته فى زجاجة نفسه ص
يكاد يضىء ولو لم تمسسه نار » .

وافتتح ترجمته بعد وفاته بنحو عشرين سنة بقوله ع
« ان هذا الرجل أكمل من عرفت من البشر دينا وأدبا و
وعقلا وخلقا وعلما وعملا وصدقا واخلاصا ، وان من من
ما ليس له فيه ند ولا ضريب . وانه لهو السرى الأحـو
العبقرى » .

وقال قبل ذلك : « انى وايم الحق لم أطلع له على .
الا الحقيق بلقب المثل الأعلى من ورثة الأنبياء » .

وقال قبل ذلك : « واننى وايم الحق لم أطلع له على
ينافى العفة والنزاهة ولا الورع والشرف ولا هفوة تدل
كامن حقد أو حسد ، فهو أكمل من عرفت من البشر ، ومن ا
على دخائل كثير من المشهورين بالعلم والتقـوى أو الحـ
والفلسفة أو تاريخهم الصحيح رأى كثيرا من العجر والبج
فما قولكم فى زعماء السياسة وعشاق الرئاسة » .

وهذا السمت الذى وصفه صاحب المنار بعد الخبرة الطو
هو السمت الذى كان يبده الناظر اليه من الغرباء عند النظ
الأولى ، كما وصـفه هارولد سبنسر كاتب حـزب الأحر
الانجليزى فى صحيفتهم الديلى كرونكل بعد وفاته بأسابيع

اذ يقول عن لقائه له بدار صـــديقه عدو الاستعمار ويلفــرد سكاوين بلنت :

« هنا أمسك مستر بلنت عن الكلام والتفت فجأة لسماعه وقع حوافر فرس ، فقال : ها هو الرجل ... فالتفت مثله فاذا أنا بصورة انسان يقول الناظر اليها انها برزت من كتب الأنبياء الأقدمين . شيخ حسن البزة جهير يمتطى فرسا عربيا كميتا جميلا يقبل نحونا على مهل » .

كانت له طلعة وسيمة مهيبة ، تتوقد فيها عينان نفاذتان . على قامة معتدلة لا الى البدانة ولا الى النحول ، أبيض اللون الى سمرة ، شائع الشيب فى رأسه ولحيته قبل أوان المشيب ، وبنيته على ما وصف به منذ شبابه بنية رجل سليم الجسد مكين البنيان ، تعرض فى عنفوانه لتسمم سرى الى الدم من دمل لم يعقم ، فنجا منه بمعجزة الجسد المكين والدم القوى والعزيمة الصادقة ، وظلت عقابيله تعاوده فيما كان يعتريه من آلام المفاصل حينا بعد حين ، ولم تكن وفاته دون الستين بمرض من أمراض الهرم العاجل ، ولكنه توفى من أثر سرطان فى الكبد لم يتحقق منه الأطباء قبل استفحال الداء » .

***

هذه هى شخصية محمد عبده لمن تشوقه الشهرة المسموعة الى الرؤية المشهودة ، فاذا تطلع الى الخبر الخاص من سيرته

فالذي يعلمه بعد البحث الطويل قليل ، ولكن القليل فيه والكثير يستويان فى التعريف بما يعنينا من تلك العظمة وما يعنيها : شخصية ولا شخصية ، وانسان له « أنانية » تخصه من بين جميع الناس ، ولكنها كأنانية النوع الانسانى كله تحيزت بمكانها فى فرد انسان .

توفى عن زوجته اللبنانية السيدة رضا حمادة من آل بيت حمادة ، ولم يعقب من الأبناء الذكور غير ولد واحد توفى فى طفولته ، وأعقب أربع بنات كانت احداهن دون سن الزواج عند وفاته ، وتزوج أخواتها بثلاثة اخوة هم : الأستاذ محمد يوسف المحامى وشقيقاه الأستاذان عبد اللطيف وعثمان .

وكان له عند وفاته ثلاثة أخوة من أبيه ، أصغرهم « حمودة بك » الذى رباه من طفولته وتولى عنه شئونه الخاصة التى لم يفرغ لها طول حياته ، وهو الذى اشترى باسمه أرض الدائرة السنية التى كانت تباع بالتقسيط ، واشترى باسمه خمسة وثلاثين فدانا من صحراء عين شمس كان الفدان منها يباع بعشرة جنيهات ، ثم بيع بعد ذلك بخمسة وأربعين بعد البدء بتعمير الصحراء ، أما مسكن الشيخ محمد عبده بصحراء عين شمس فهو فدان من الأرض الخلاء تركه له المستشرق ويلفرد سكاوين بلنت يوم أمر بالسفر من الديار المصرية ، وبنى عليه مسكنا متواضعاً هو الذى اشترته وزارة الشئون الاجتماعية لتخليد ذكراه ، ومن ثمنه سدد الورثة ما بقى من أقساط الثمن

على الأرض التى اشتراها أخوه فى حياته ، وقد كانت الأسرة تملك نحو أربعين فدانا من أرض البحيرة المثمرة ، فلم يجتمع فى يديه من ميراثه ومن مرتباته وأثمان مؤلفاته غير ذلك المقدار اليسير من المـال الذى يكفى لشراء الفـدادين من أرض فى الصحراء أو أرض تباع بالتقسيط..

***

وهذا المصلح المحسن الذى لم يفارقه شعور الحاجة قط ليغنى ذوى الحاجات ، لم يخامره الشعور بالحاجة يوما ليطلب الغنى بما تملكه الأيدى ويحفظ فى صكوك المواريث .

سنوات فى تاريخ الاستاذ الامام

سنة	
١٨٤٩	ولد بقرية محلة نصر .
١٨٥٩	بدا تعلم القراءة بمنزل والده .
١٨٦٢	تلقى أول دروس التجويد بالمسجد الاحمدى .
١٨٦٤	تلقى أول دروسه العلمية بالمسجد .
١٨٦٥	عاد الى قريته وتزوج .
١٨٦٥	اعاده والده الى المسجد .
١٨٦٥	حضر أول الدروس بالجامع الازهر .
١٨٦٩	لقى السيد جمال الدين .
١٨٧٢	اخذ فى الكتابة المنشورة .
١٨٧٥	الف حاشيته على شرح الدوانى .
١٨٧٧	نال شهادة العالمية .
١٨٧٨	عين مدرسا بدار العلوم .
١٨٨٠	عين محررا للوقائع المصرية .
١٨٨٢	نفى من مصر لاشتراكه فى الثورة العرابية .
١٨٨٤	سافر من بيروت الى باريس لانشاء مجلة العروة الوثقى مع السيد جمال الدين .
١٨٨٥	عاد الى بيروت واشتغل بالتدريس وترجم رسالة الرد على الدهريين وشرح مقامات البديع ونهج البلاغة .
١٨٨٩	عاد الى مصر وعين قاضيا بالمحاكم الاهلية .
١٨٩١	عين قاضيا بمحكمة الاستئناف .
١٨٩٥	عين عضوا بمجلس ادارة الازهر .
١٨٩٧	الف رسالة التوحيد وشرح البصائر النصيرية .
١٨٩٩	عين مفتيا للديار المصرية ثم عضوا بمجلس الشورى .
١٩٠٠	انتخب رئيسا للجمعية الخيرية الاسلامية .
١٩٠٢	الف كتاب الاسلام والنصرانية .
١٩٠٣	نشر الرد على هانوتو .
١٩٠٥	اعتزل مجلس ادارة الازهر .
١٩٠٥	توفى بالاسكندرية .

فهرس

الصفحة

أعلام العرب

مكتبة الثقافة الحية التى تسام فى اشـــتراكية الثقافة بقروش زهيدة — تصدر شهرية عن إدارة الثقافة بوزارة الثقافة والإرشاد القومى — المساهمة فى التعريف بنوابغ المفكرين من أعلام العرب . . .

دار مصر للطباعة

٣٧ شارع كامل صدقى "الفجالة"